باتريك بينو

أبطال الرواية الحقيقيون

مشهورون مغمورون



ترجمة:
د. قاسم المقداد

نينوى

باتريك بينو

أبطال الرواية الحقيقيون
مشهورون مغمورون

ترجمة

د. قاسم المقداد

اسم الكتاب: أبطال الرواية الحقيقيون مشهورون مغمورون
اسم المؤلف: باتريك بينو
اسم المترجم : د. قاسم المقداد
عدد الصفحات: ٢٠٠
القياس: ١٤.٥ * ٢١.٥
١٠٠٠/١٠/٢٠١٠م-١٤٣٠هـ

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص ب ٤٦٥٠
تلفاكس: ٠٠٩٦٣ ١١ ٢٣١٤٥١١ +
هاتف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية:
الإخراج والطباعة
القسم الفني - دار نينوى
تصميم الغلاف: م. سوسن الحلبي

*Patrick pesnot

*In connus celebres

* Les heros de roman ont vraiment existe

* Albin Michel منشورات

2000

توضيح
حول الترجمة

هي كلمة عجلى حول الترجمة درءاً لأي تعليق من شأنه التشكيك بدقتها إذا أتاحت الفرصة لمن يود ذلك قراءة النص الأصلي.

الجميع بات يعرف أن الترجمة ليست نقلاً ميكانيكياً لشكل لغوي إلى شكل آخر، لاستحالة هذا الأمر لعدة أسباب أهمها أن كل لسان يتمتع ببنية تركيبية خاصة به ناجمة عن الثقافة التي تشكل فيها. فماذا تفعل إذا اضطررت إلى إفراغ مضمون زجاجة من الزيت في بلد لايصنّع الزجاج أصلاً بل ربما لايعرفه، لكنه يصنّع نوعاً من الأواني يمكنك إفراغه في إحداها. قد تكون الآنية المستقبلة ذات فوهة ضيقة، فتحتاج عندها إلى قمع حتى لايضيع زيتك فوق الأرض. أو ربما تكون كبيرة لايحتل الزيت المفرغ منها سوى حيز ضئيل الخ.

ما يهم هو الزيت /المضمون المنقول.

النص التالي في لسانه الأصلي (الفرنسي) كان رائعاً. ممتعضاً في قراءته. لكن حينما بدأت بنقله إلى الآنية العربية وجدت أن روعته الفرنسية لايمكن نقلها إلى العربية إلا باللجوء إلى بعض التصرف الذي حاولت ألا يخل أبداً بالمضمون العام، بل حتى بالتفاصيل. الأصل كان أقرب إلى الأسلوب البرقي، الذي يترك لخيال القارئ ملء الفراغات وتفسير النقاط. لكن لو أنني استخدمت الأسلوب نفسه في الترجمة لجاءت مزعجة ومقتضبة وغير معبرة عن المضمون. لذلك سمحت لنفسي بالتصرف بعد أن مرت عملية الترجمة بأربع مراحل: الترجمة الحرفية ثم إعادة صياغة هذه الترجمة الحرفية للاطمئنان على أن أياً من تفاصيل الكتاب لم تضع أثناء تلك العملية. والمرحلة الثالثة اقتضت العودة

إلى بعض المسكوت عنه في النص الأصلي وتثبيته في النص المترجم. أما المرحلة الرابعة والأخيرة فهي هذه التي أرجو أن يستمتع بها القارئ.

هناك فصول أغفلت ترجمتها قاصداً، لأنني أزعم بأن الروايات التي تتحدث عنها غير معروفة للكثيرين من القراء العرب لأن ترجمتها غير متوفرة أو لأنها لم تترجم أصلاً، لذلك اكتفيت بترجمة الفصول التي تتحدث عن تلك الروايات الكلاسيكية التي أظن أنها معروفة للقارئ العربي أوأن ترجمتها متوفرة.

د. قاسم المقداد

أستاذ اللسانيات والترجمة/جامعة دمشق

مدخل

"كان يجلس على عتبة الباب وينظر إلى الغرفة التي كانت أحلام طفولته تسكنها، ونظراته تتنقل من قطعة أثاث لأخرى تنتابها حيرة أشبه بتلك التي تند عن الإنسان حينما توقظ الذكريات في نفسه حزناً ما". حينما نقرأ مقطعاً كهذا، ندرك أن الروائي يسعى، بأسلوبه الخاص، إلى وضع قارئه في صلب الشخصيات التي بعث الحياة في شخوصها عبر روايته. إنها معجزة الكتابة التي ننفذ من خلالها إلى الأرواح التي يبدعها الروائي. أما الصحفي فيسرد الوقائع ويصف المشاعر التي تدفع إنساناً ما إلى ارتكاب فعلٍ يخرجه من غياهب حياته الخاصة.

يحق لنا التساؤل: من أين يأتي الروائي بأبطال روايته؟ بكل بساطة، إنه يستعير لحمة حبكتها، محتفظاً لنفسه، قدر ما أمكنه، بحرية السرد.

باتريك بيسنو، مؤلف هذا الكتاب، انطلق باحثاً في الوثائق التاريخية عن أولئك المغمورين الذين تقاطعوا مع مخيلة الكاتب وتحولوا إلى أبطال رواية معينة.

هذا النوع من العمل، يكتشف لناالأبطال الحقيقيين الذين نسج حول حياتهم أبطال الروايات، مثل جوليان سوريل بطل رواية "الأحمر والأسود" لساندال، وكونت مونتي كريستو، لألكساندر ديما الأب، والسيدة بوفاري، بطلة رواية فلوبير، أو نعيش وقائع تلك المحاكمة المدهشة التي أوحت إلى فرانسوا مورياك بفكرة روايته "تيريز ديكيرو" الخ. وسنعجب لتلك المفارقة العجيبة التي حولت أقدار هؤلاء كلهم إلى روايات نستمتع بقراءتها اليوم وغداً وكل يوم.

بيير بيلمار

كاتب وإعلامي فرنسي معروف

عصر الانتقام

كونت مونت كريستو[1]

إبان فترة حكم التجديد Restauration[2] ثم في فترة لوي فيليب، في فرنسا كانت الشرطة شائعة تحدثت عنها بعض مؤلفات تلك الفترة، أولها مذكرات فيدوك في عام ١٨٢٨، و كتاب "تاريخ شرطة باريس" لهوراس ريسون Horace Raisson المنشور في عام ١٨٤٤. بين هذين التاريخين، أي في عام ١٨٣٨ نشر لوفاسور Levasseur عدة أجزاء من مذكرات مأخوذة عن وثائق شرطة باريس منذ القرن الرابع عشر وحتى أيامنا، قامت بجمعها شخصية مثيرة للفضول هي جاك بوشيه، الذي كان محامياً ولد في باريس عام ١٧٥٨ وانخرط في سلك الشرطة منذ بداية الثورة. لكن الاعتقاد بميوله الملكية كان وراء استبعاده عن هذا السلك. في عام ١٨١٥ أعيد إلى الشرطة على أن يتابع شؤون وثائقها، وبقي في هذا الموقع إلى أن أحيل إلى التقاعد عام ١٨٢٦. وخلال فترة عمله هذا بقي مهيمناً على هذه الرفوف المغبرة وسيداً لها، ويحصد منها الأسرار الكبيرة والصغيرة، ويكتشف أموراً مجهولة ويجمع وقائع متنوعة منسية ضمها في نهاية المطاف كتاب ضخم على شكل مذكرات.

كان معروفاً عن الروائي ألكساندر ديما شدة الشره إلى الأدب والبحث الدائم عن موضوع رواية يكتبها بسرعة بناء على طلب مدراء الصحف

---

(١) ألكساندر ديما Alexendre Dumas (père)

(٢) هي فترة من تاريخ فرنسا امتدت من بداية سقوط الإمبراطورية الأولى في ٦ نيسان ١٨١٤ وثورة ٢٩ تموز ١٨٣٠. وخلالها تمت العودة إلى السلطة الملكية التي حددها ميثاق ١٨١٤.

وملاحقة دائنيه. ألكساندر هذا، قرأ مذكرات بوشيه. وأثناء قراءته للمجلد الخامس، طوى زاوية صفحة يبدأ بها فصلاً من عشرين صفحة يحمل عنوان "الألماس والانتقام". ثم نسي الأمر.

بعد خمس سنوات، جاءه أحد أصحاب المطابع، بيتون (من شركة بيتون وبلون) في منطقة سان جيرمان أنليه، في فيلا ميديسيس التي كان يسكنها، ولم يطل الوقت حتى وقع الرجلان عقداً ينص على نشر كتاب جديد تحت اسم انطباعات عن رحلة في باريس. بقي ديما في بيته أربعة أيام لايخرج منه وبدأ بدون أية حماسة، باحثاً في مكتبته ومستلهماً مما لديه من كتب، تحرير الكتاب المطلوب منه. بعدها ذهب إلى الناشر ووضع بين يديه حفنة من الأوراق قائلاً له بصوت مدوٍ "خلال فترة قصيرة سيكون كتابك بين يديك" فزمّ الناشر شفتيه، لكن ديما تابع قوله: "سأقدم إليك ما هو أفضل من قصة السفر". في هذه الأثناء كان الروائي يوجين سو Eugene Sue يسجل نجاحاً باهراً على الساحة الأدبية من خلال روايته المسلسلة: أسرار باريس". عندها أدرك مؤلف " الفرسان الثلاثة" مكمن النجاح، فانكبّ على عجل لإنجاز مثل هذا الكتاب الذي سيعود على ناشره ليس بالحظ وحده بل بالثروة أيضاً.

كان ألكساندر مشحوناً لاسيما وهو سيد هذا النوع من الروايات المسلسلة التي تحبس أنفاس القارئ، عدداً بعد عدد، أليس قادراً على تجاوز أوجين سو؟ لاسيما وهو الأعظم والأشره للكتابة، لايضارع شهيته سوى اندفاعه للإنفاق! لكن لابد له من موضوع فوري.

وتساءل الروائي: لماذا لايعود إلى التفكير بمذكرات بوشيه التي قرأها قبل خمس سنوات؟ ما الذي يمنعه! أحس ديما بأنه يمسك بقصته. وسرعان ما استدعى ماكيه، مساعده وشريكه وحابك قصصه ليبدء العمل. قام ديما بتلخيص الفصل المأخوذ عن بوشيه، فبرز له موضوع "الانتقام" من بين السطور. لكن ماكيه رأى في ذلك حماقة وأن الأمر غير معقول. لكن ديما أجابه: "سنقوم بطبخ هذا الموضوع، أي موضوع الانتقام". وبدأ ديما يتخيل:

ماكيه، القوة الشاملة! قانون القصاص، إنه موضوع أقوى من موضوعات الحب أو الطموح. "على ماكيه أن يتقن البناء والبحث عما يلزم من الوثائق. لأن الكاتب فكر فوراً بكتابة رواية تاريخية كبيرة. لوحة ضخمة ترسم وتفضح المجتمع في عهد لوي فيليب؛ المجتمع الذي يتمرغ في الكسب المالي السهل والفساد، مع أنه وضع الأحداث في عهد التجديد لأسباب معروفة. وبالانتظار، قدم إلى ماكيه ملخصاً لمضمون عشرين صفحة من مذكرات بوشيه التي تحمل عنوان "الألماس والانتقام". ومن هنا انطلقت رواية "كونت مونت كريستو" الشهيره.

في عام ١٨٠٧ كانت باريس تعيش يوم احتفال كرنفالي. فرانسوا بيكو الشاب الإسكافي الجميل يعيش قصة حب مع فتاة جميلة اسمها مارغريت. تم تحديد تاريخ الزواج بعد التفاوض على المهر مع والديّ الفتاة. ونظراً لثراء هذين الوالدين، فقد كان المبلغ كبيراً يسمح لفرانسوا بأن يستقر. ذهب الشاب إلى مقهى متواضع في ساحة سانت اوبورتين Opportune ـ sainte، حيث يتردد أحد أبناء مدينته نيم، واسمه جيل لوبيان وكان يلتقي في المقهى رجال آخرون من المدينة نفسها بشكل منتظم هم: جيرفيه شوبار، غيليم سولاري وأنطوان ألوت. كانوا يتمازحون ويستحضرون الذكريات ويتبادلون الأنخاب والنكات. كلهم كانوا موجودين حينما دخل عليهم بيكو الإسكافي والنور يعلو وجهه لدرجة أن فرانسوا لم يستطع الاحتفاظ بسره زمناً أطول. نعم، تم الأمر، لقد تزوج بالجميلة مارغريت! وبين استهجانات الفرح والتهاني دعا فرانسوا أصدقاءه إلى الاحتفال ثم إلى الحفل الراقص الذي سيليه. شرب الإسكافي قدحاً على عجل وانصرف إلى دار البلدية. بقي أبناء نيم لوحدهم يعلقون على روعة حظ صديقهم: يا لحظه، إنها جوهرة تلك المارغريت. وأردف لوبيان بأن صديقهم لم يحظ بالجمال فحسب بل بمهر جيد. وفجأة راح في تفكير عميق. هذا المبلغ الكبير، هو تماماً المبلغ الذي يحتاجه هو لكي يقيم في منزل أجمل. منزل يقع في الشوارع العريضة المظللة بالأشجار، على

سبيل المثال. واختطت الغيرة طريقها إلى نفسه. زد على هذا أن لوبيان كان أرملَ يعيل طفلين ويعشق مارغريت منذ فترة طويلة. فجأة قال للحاضرين: "خطرت ببالي فكرة!"

توقفت المناقشات. تغير منظر صاحب المقهى، وحار أصدقاؤه وهم ينظرون إليه. وانطلق لوبيان يقول:

"سنقوم بمزحة لطيفة! إذ لو تزوج صاحبنا بيكو سيتكبر علينا، لكن لدي وسيلة لتأخير زواجه!"

شرح لوبيان فكرته على النحو التالي: سيذهب لرؤية مفتش الشرطة، وسيقول له بأنه يشتبه ببيكو بأنه متورط مع الإنكليز. وسيصار فوراً إلى استدعاء الإسكافي إلى مخفر الشرطة، سيستوجب، وربما يتم الاحتفاظ به بضعة أيام، وهو وقت كاف لكي نخلق في نفسه شيئاً من الهلع ونؤخر زواجه لمدة أسبوع. ثم إن الزفاف يمكن أن يتأخر! وسيكون بيكو سعيدا لو تزوج مرة ثانية. التزم الآخرون الصمت. ثم خاطب أحدهم لوبيان: "ألا تظن أنها ستكون مزحة قاسية "؟

وأشار آخر، هو ألوت، إلى أن بيكو قد لايستوعب هذه المزحة. هذا دون أن نأخذ بالحسبان أن مظهر الإسكافي الخارجي الضحوك يخفي طبيعة قاسية، وقد يرغب بالانتقام. يستبعد لوبيان ذرائع أصدقائه الواحدة تلو الأخرى قائلاً: هيا، دعونا نتسلى، ثم لا تنسوا أننا في فترة كرنفال، أليس كذلك؟. اتفق الأصدقاء الثلاثة، باستثناء إليوت، على أن يضحكوا ملء أشداقهم.

لكن رئيس مخفر الحي لم ينظر إلى الأمر على أنه مزحة، لاسيما وأن أنصار الملكية المدعومين من الإنكليز، بدؤوا بالتحرك في منطقة فانديهVendée، بل لوحظت حركة انشقاق في منطقة لانغدوك. وبالتالي لن تتسامح الإمبراطوية بقيام الاضطرابات التي تعكر صفو النظام العام، واعتبر بيكو (الإسكافي)، الذي تعود أصوله إلى مدينة نيم، بعد وشاية أصدقائه بمثابة

ممثل لأولئك المتآمرين في باريس. وسرعان ما تم إخبار وزير الشرطة سافاري، دوق روفيغو Rovigo. وتم توقيف الإسكافي الشاب ليلاً بشكل سري. وبدون محاكمة أودع في سجن الدولة في قلعة فينيستزل. ولم تعرف عائلته أو خطيبته بمصيره. وأودع فرانسوا بيكو، الإسكافي المتواضع في زنزانة، ولم يعد يتذكره أحد فكان كالميت ـ الحي، جاهلاً سبب هذا الاعتقال.

لكن القدر هيأ له رفيقاً غير عادي في زنزانته، هو خوري من مدينة ميلانو، سليل عائلة إيطالية مشهورة وثرية. وكان معارضاً لبونابرت تم توقيفه وحجزه سراً. ونظراً لصعوبة مساعدته من قبل عائلته البعيدة عنه، فقد فضلت هذه العائلة نسيان هذا الوريث الثري لكي تتصرف بأملاكه. نشأت صداقة بين هذين الرجلين المتلازمين، وقام الخوري الشاب برعاية الإسكافي. وحينما أحس بقرب أجله كتب وصية لصالحه. وكان الخوري قد وضع قسماً من ثروته في مدينة هامبورغ، وقسماً آخر في لندن. والأهم أن هناك كنزاً من قطع الذهب والألماس مخبأ في مكان بالقرب من ميلانو باح له الخوري بسره قبل أن يفارق الحياة.

في عام ١٨١٤ تم إطلاق سراح بيكو بعد الاعتزال الأول لنابليون. لكن بيكو تحول إلى رجل آخر بعد معاناته الطويلة في السجن. ففارت قسمات وجهه ونحل جسمه وابيض شعر رأسه، باختصار، تحول إلى شخص آخر لايمكن التعرف على شخصيته الحقيقية!

توجه بيكو، بعد إطلاق سراحه إلى ميلانو وحصل على كنز الخوري. وأصبح ثرياً، بل في غاية الثراء، تقدر ثروته بملايين الفرنكات. عاد إلى باريس بعد أن مر بمدينة هامبورغ ولندن وعلم بعودة نابليون من جزيرة إلبا. وبحذر شديد تصنع المرض وأدخل نفسه في مشفى تحت اسم مستعار هو جوزيف لوشر. وبعد نهاية المائة يوم، استعاد جوزيف لوشر المزعوم صحته بأعجوبة وأسرع بالذهاب إلى باريس ليعرف السبب الذي دفع بالشرطة إلى القبض عليه واعتقاله في تلك الليلة. وكانت خطوة الإسكافي السابق الأولى نحو ساحة

سانت ـ اوبورتين. هاهو المقهى مازال موجوداً، لكن جيل لوبيان لم يعد يديرة. وبدأ جوزيف لوشر في البحث والسؤال دون أن يتعرف عليه أحد. وعلم أن القهوجي قد حظي بزواج جيد، وبفضل مهر زوجته انتقل للإقامة في أحد الشوارع الكبيرة. لكن ماذا عن زوجته؟ تلك الشابة التعيسة التي هجرها خطيبها وهي تستعد للزفاف، ظلت تبكي طيلة عامين، لكنها بعد ذلك قبلت بالزواج من لوبيان.

لم يعد هناك شك في أنها مارغريت. مارغريت التي خانته. جن من الألم ومن رغبته بالانتقام وهو ما يزال متخفياً تحت اسم جوزيف لوشر. استمر باستجواب هذا وذاك. أخيراً أفصح له أحد الجيران في ساحة سانت ـ اوبيرتان عن معلومة ثمينة: إن غياب خطيب مارغريت المدعو بيكو كانت وراءه مزحة سمجة، فحاصره الإسكافي السابق بأسئلته:كيف عرف ومن قال له ذلك؟..

منذ أولى ساعات صباح اليوم التالي استقل لوشر ـ بيكو العربة المتجهة إلى مدينة نيم، لأن ذلك الرجل أسر إليه بأن مصدر معلوماته شخص يدعى أنطوان ألوت الذي عاد إلى مدينته الأصلية. ألوت هذا كان أحد رواد حانة لوبيان من أبناء مدينة نيم المرحين.

الرجل الذي حط رحاله في نيم بعد عدة أيام من السفر لم يعد ذلك البرجوازي لوشر. بل تخفى بزي رجل دين، وسمى نفسه الأب بالديني. راح الإسكافي السابق يبحث، متخفياً بلباسه الديني، عن ألوت، فعثر عليه دون عناء وقصّ عليه قصة عجيبة زعم فيها أنه التقى في سجنه شخصاً اسمه بيكو الذي خدم أحد الأثرياء الإنكليز، فأهداه، مقابل هذا الصنيع ماسة ثمينة أوكل إلى بالديني (الإسكافي المتخفي) تسليم هذا الحجر الثمين إلى أحد المقربين منه القادرين على كشف سر اعتقاله، وأخرج من قفطانه ماسة رائعة، عندها وعده ألوت بقول كل مالديه، بعد أن بهرته الماسة. وأخيراً، عرف بالديني ـ بيكو الحقيقة التي لا تصدق.

بعد فترة قصيرة من الزمن، ظهر رجل بهيئة متواضعة وشعر أبيض، وظهر

منحن، في مقهى جيل لوبيان مؤكداً أن اسمه بروسبير ويسعى للعمل كنادل مقهى، فتم اقتياده إلى صاحبة المقهى التي لم تكن سوى مارغريت التي حافظت على جمالها الباهر على الرغم من تقدمها في العمر. اضطربت مارغريت وتفحصت القادم الجديد، وأخبرته بحاجتها إلى نادل. لكن، ألم يذكّرها هذا الرجل المنهوك، الذي لم تره من قبل أبداً، بشخص بعيد وذكرى أليمة؟. طفرت من عينها دمعة. وفجأة قالت لبروسبير أن بإمكانه البدء بالعمل اعتباراً من صباح الغد.

كان بروسبير دقيقاً ويقظاً وحريصاً، ومثال المستخدم الكامل. لكنه كمال مبالغ فيه. شيئاً فشيئاً راح يدخل في حياة الزوجين لوبيان الخاصة، ويختلس النظرات إلى ابنة صاحب المقهى، تيريز الجميلة البالغة من العمر ست عشرة سنة. لم يكن يوفر أية فرصة للمرور بالقرب من الطاولة التي سبق له وأن كان يلعب الورق عليها بانتظام مع صديقيه المقربين شوبار وسولاري.

ذات مساء، وفي الوقت الذي لم يكن فيه بروسبير على رأس عمله، تغيب شوبار عن لعبة الورق. وفي اليوم التالي عثر على جثته فوق جسر الفنون وفيها طعنة خنجر مايزال مغروزاً في الجرح وفوق قبضة الخنجر كتبت عبارة غريبة: "رقم واحد".

لاشك في أن تيريز كانت رائعة الجمال وتشد إليها الأطماع. على الرغم من أن والدها كان يحضنها بنظراته ولا يكف عن مراقبتها، إلا أن هذا لم يمنع من أن يستحوذ على انتباهها شاب جميل يرتدي أحدث الملابس فضللها وأوقعها في شباكه. وحينما اكتشفت بأنها حامل كادت تغيب عن الوعي. لكن" زوجها" الذي يزعم أنه ماركيز، كان شهماً وأبدى استعداده لإصلاح الخطأ. أراد لوبيان أن يقايض البؤس بحسن النية، لاسيما وأن صهره المستقبلي ثري ومعروف (ذو لقب)، وعليه فقد تم الاتفاق على الاحتفال بالزواج في أقرب فرصة. ونظراً لوفرة المال سيقام حفل زفاف ضخم. حينما حل يوم الزواج لم يصل العريس، ووزعت رسالة على المدعوين جاء فيها أن الخطيب هو أحد

السجناء الذين تم الإفراج عنهم منذ فترة قريبة وأن الماركيز المزيف قد هرب.

بعد أربعة أيام احترق مقهى لوبيان الجميل، وكادت النيران تلتهم المسكين بروسبير، وقررت الشرطة أن وراء الحريق دوافع إجرامية لأن النار اندلعت في تسع أماكن في الوقت نفسه. كان الحادث، بالنسبة لصاحب المقهى، يعني الإفلاس، لأن المالك صعب المراس ونوى رفع دعوى قضائية على المستأجر. كان لدى لوبيان وفر متواضع مكّنه من افتتاح مقهى آخر أكثر تواضعاً في شارع سانت انتوان. ولم يبق من بين جميع الذين كانوا يقومون على خدمة زبائنه الأنيقين سوى بروسبير. أما سولاري فقد استمر في التردد على صديقه منذ أيام الشباب. ذات مساء، بعد أن شارك في لعبة الورق وتناول كأساً من الجعة وعاد إلى منزله، وهناك أحس بآلام شديدة أدت إلى موته بسرعة. واكتشف فوق تابوته ورقة مفروزة بالكفن كتب عليها : "رقم اثنان".

طالت الفضيحة ابنة لوبيان بعد أن دمرت تجارت الأب ومات صديقاه وأصاب المرض زوجته التي لاقت حتفها لاحقاً بسبب الحمى أو الآلام، وغرق لوبيان في اليأس. لحسن الحظ أن ابنه أوجين مايزال معه. وهو شاب جسور علق والده عليه ما تبقى له من آمال.. وفجأة، وبدون علم الوالد، بدأ الشاب يعاشر أناساً مشكوكاً في أمرهم. ذات مساء شارك معهم في عملية سرقة ترافقت بعمليات تكسير أدت إلى تدخل رجال الأمن، بناء على وشاية. تمكن الشركاء الأربعة من الهرب، مما أثار الشك بمعرفتهم بما سيجري. تم توقيف الشاب فقط. وحكم على أوجين لوبيان بالسجن لمدة عشرين عاماً.

إزاء هذه المآسي المتتابعة أحس صاحب المقهى أنه قد فقد صوابه، واعتقد أن هناك من يضمر له الشر ويعمل خفية على ضياعه: والدليل تلك المؤامرة التي راح ابنه ضحيتها. لكن من يقف وراء هذا لاسيما وأن الأمر لم ينته بعد. بعد مصيبة أوجين بدأ الزبائن بالصدود عن مقهاه فتراكمت الديون عليه، ولم يكف حجّاب المحاكم عن مضايقته وانتهى الأمر بالحجز على أملاكه. عندئذٍ قام بروسبير الطيب بعمل غير مسبوق حيث وضع مدخراته

بتصرف رب عمله. ذهل صاحب المقهى لأن الهدية كانت مقرونة بشرط: هو أن تسلم تيريز نفسها له! وعاد الكابوس. تيريز، صغيرته، تيريز التي فضحها سابقاً ذلك الأزعر، والآن.. سمعت الصبية كل شيء فاختارت أن تنقذ والدها بالإذعان لطلب بروسبير.

كان لوبيان على حافة الجنون، فأصبح يتردد على حدائق التويلزي كل ليلة وحيداً يجتر يأسه. وذات مساء شتائي، انبثق ظل مبرنس من خلف إحدى الأشجار ونادى على صاحب المقهى:

"لوبيان، هل تذكر عام ١٨٠٧؟ السنة التي ارتكبت فيها جريمتك!"

ارتعد صاحب المقهى.. هذا الصوت.. و١٨٠٧، سنة توقيف بيكو! سنة تلك المزحة السيئة. وجد شوبار ميتاً وعلى مقبض الخنجر الذي طعن به كتبت عبارة: "رقم واحد" و"سولاري"، رقم اثنان. وبالتالي فهو الرقم ثلاثة؟ راح الظل الغامض يكيل التهم بعناد. لم يعد لوبيان قادراً على الهرب بسبب الرعب الذي تملكه. اقتربت القلنسوة من وجهه، وتبينت له قسمات مألوفة: إنه بروسبير! لكن خلف هذا الوجه يرتسم، كما بين السطور، وجه فرانسوا بيكو. وجه رجل مخيف، مسكون تماماً بالرغبة في الانتقام بعد استعراض كل المصائب التي حلت بلوبيان:

"نعم، أنا يالوبيان، من قام بكل شيء، وتعمد كل شيء، لكي أنتقم من الإنسان الذي حكم علي بالسجن ليسرق مني خطيبتي!"

أطلق صاحب المقهى صرخة رعب ترافقت مع طعنة سكين كانت تخترق صدره. "أنت الرقم ثلاثة يالوبيان".

الوداع لوشر، بالديني. ها قد انتقم فرانسوا بيكو لنفسه، لكنه بدأ يحس بالتعب على الرغم من رضاه عما فعله، ولم تتمكن ثروته الكبيرة من إدخال السكينة إلى قلبه إلا قليلاً. ترى هل للانتقام طعم مر بعد إنجازه؟ رمى بوشاحه في إحدى الأكمات. لكن، في تلك اللحظة نفسها انقض عليه ظل، وخلال ثوان وجد بيكو نفسه مكمماً معصوب العينين، ثم محمولاً. ووجد

مرتكب الجرائم الثلاث نفسه مربوطاً إلى حلقة بسلسلة حديدية قابعاً في غور أحد الأقبية. لماذا؟ ومن ؟ وماذا حصل له؟

أخيراً اقترب من ضوء مرتجف واكتشف بيكو هوية من اعتدى عليه. وعلى ضوء السراج تعرف على أنطوان ألوت، ذلك الرجل الذي أعطاه الراهب المزعوم بالاديني ماسة مقابل اعترافه. لكن مالذي يفعله هنا هذا الرجل؟

ضحك ألوت ساخراً وروى قصته الرهيبة. بعد أن اعترف على أصدقائه القدامى وقبض ثمن خيانته، ذهب إلى أحد باعة الجواهر ليبيع الحجر الثمين الذي قدمه له الخوري المزعوم: لكن التاجر سرقه، فقتله أليوت من شدة غضبه. وبعد أن بدأت الشرطة بملاحقته حاول العثور على هذا الراهب الغامض بالديني. وعند وصوله إلى باريس بدأ بالبحث. ومن خلال تجواله حول منازل المهاجرين من مدينة نيم، انتهى به الأمر إلى فهم كل شيء وتعرف على هوية بيكو.

"مالذي تريده مني الآن؟"

ماذا يريد ألوت؟ النقود طبعاً. الكثير من النقود. لأنه عرف أن الإسكافي السابق قد أصبح واسع الثراء.

"بداية ستكلفك وجبة الطعام خمسة وعشرين ألف فرنك!"

زمجر السجين، وتلوى وحاول تحطيم قيده. لكن ألوت بقي ثابتاً على موقفه. لم يكن ألوت يعرف أن بيكو الذي استطاع تدبير مثل ذلك الانتقام لم يكن ذلك الرجل الذي يمكنه الخضوع. ماهم في القيد، والتعذيب والجوع، لأن الحقد سيبقى هو الأقوى. الحقد. أصبح بيكو يهذي، وجرح نفسه. وتلوث الجرح. وأصيب بالكزاز. تصلبت عضلاته وجحظت عيناه وتشنجت قسماته. وأدرك ألوت أنه سيفقد الثروة.

"تكلم !"

أصيب بيكو بالجنون وشارف على الموت. فجن جنون ألوت وانقض على بيكو وقتله. وبهذا وقعت الضحية بدورها ضحية الانتقام.

بعد جريمته الثانية قام ألوت بسد مدخل القبو الواقع في شارع سانت روش. ثم هرب إلى انكلترا. في عام ١٨٢٨ اعترف وهو يحتضر أمام أحد الكهنة الذي قام بتدوين ما قصّه عليه. وقام المحتضر بالتوقيع على كل صفحة. بعد ذلك قام رجل الكنيسة بإرسال ذلك الاعتراف إلى دائرة شرطة باريس. وهنا يؤكد بوشيه المشرف على الوثائق بأنه اكتشف هذا النص، الذي قام بنشره لاحقاً في كتابه الموسوم: مذكرات.

هل القصة حقيقية؟ أم أنها من اختراع ذلك المشرف على الوثائق؟ أحد المؤرخين المشهورين، جان تولار، قام بدراسة القضية (مجلة إيستوريا، العدد ٥٦١)، وأول ما لاحظ أنه من المستحيل تأكيد أو نفي قصة بوشيه لأن وثائق دائرة الشرطة قد احترقت في عام ١٨٧١ إبان كومونة باريس. بعد ذلك يكشف عن بعض الأخطاء التاريخية، منها على وجه الخصوص أن سافاري لم يكن في عام ١٨٠٧ دوق روفيغو ولا وزيراً للشرطة.

هل تعمد ألكساندر ديما التشكيك بتلك القصة؟ ليس هذا ما يهم! وسواء أكانت ملفقة أم لا، فقد فرضت الحبكة نفسها عليه. الأشخاص والمشاهد تترى. فرانسوا بيكو سيكون ذلك البحار المرسيلي إدمون دانتيس. وخطيبته مارغريت ستحمل اسم مرسيدس. أما قلعة فينيستريل فتصبح قصر إيف... حيث يلتقي بيكو - دانتيس بالراهب الإيطالي الخرافي الثراء، فاريا. لماذا هذا الاسم فاريا؟ إنه اسم راهب قديم ومنوم مغناطيسي شهير عرف المجد في بداية القرن. يشبه الكونت كاغليوسترو.

لكن ماذا عن الآخرين: عائلة لوبيان وشوبار وسولاري... ؟ هنا يتدخل ديما ليضع روايته في الواقع التاريخي لعصره. والغريب أن خياله سيصبح أكثر احتمالية من القصة التي رواها بوشيه.

لوبيان وشوبار وسولاري يقابلون مونديغو ودانغلار وفيلفور. مونديغو يعشق مرسيدس ويسعى إلى سرقتها من دانتيس. وبمساعدة دانغلار وفيلفور، نائب وكيل الملك تتم حياكة المؤامرة. الأحداث تدور في عام ١٨١٤ بعد أن

استقر لوي فيليب في باريس. فيلفور، الذي قام على خدمة النظام السابق بكل أمانة، أراد أن يحظى ببركة النظام الجديد. وتورط في المؤامرة مثل والده الذي كان أحد شيوخ الإمبراطورية القدامى فاتهم دانتيس، زاعماً أنه يحمل رسالة من الإمبراطور إلى المتآمرين البونابارتيين. وسرعان ماتم توقيف البحّار وحجزه إدارياً. وكغيره من الموقوفين، تم إيداعه قصر إيف. لوهنا تصادف عودة نابليون. فيغير فيلفور موقفه ويتعمد نسيان دانتيس المسكين الشاهد على حماسته الملكية. وحينما يتنازل الإمبراطور عن الحكم للمرة الثانية، انتقل نائب وكيل الملك إلى المعسكر الآخر. أو لم يكن أول من اتهم دانتيس بالاشتراك في مؤامرة لصالح بونابرت وتركه يتعفن في قصر إيف. !

موندیغو ودانغلار وفيلفور امتهنوا أعمالاً استثنائية خلال حكم كل من لويس الثامن عشر وشارل العاشر، ثم في عهد ملكية تموز. موندیغو الذي كان مجرد جندي في عام ١٨١٥ ، هرب من الخدمة إبان حملة بلجيكا قبل معركة واترلو بقليل برفقة ذلك الذي سيصبح مرشده أي الماريشال بورمون. وهو شخصية حقيقية. شخصية أرستقراطية هاجر منذ بداية الثورة، وبعد أن أصبح أحد قادة الثورة الملكية، عاد إلى الجيش في عام ١٨٠٨ . بعدها لم يتوقف عن البرهنة على وفائه، مما أدى به إلى أن يصبح وزيراً للحربية والحصول على مرتبة الأشراف (النبالة) واتبع موندیغو خطى بورمون، فأصبح قبطاناً في إسبانيا . وفي أثناء الانتفاضة اليونانية ضد الأتراك، أصبح مدرباً في قوات علي باشا جانينا، الثائر ضد الدولة العثمانية. بعد عودته إلى فرنسا، نال لقب كونت مورسيف وأصبح أحد أشراف فرنسا كما هو حال راعيه.

أما دانغلار، فقد جمع ثروة من عمله كمورد للجيش خلال حملة إسبانيا في عام ١٨٢٣ (حيث التقي شريكه موندیغو). وبعد أن نال لقب بارون، أصبح أحد أهم المصرفيين على الساحة الباريسية. وكما يشير المؤرخ جان تولار، فإن مهن هذه الشخصية الخيالية تذكر حتماً بشخصية رجل المال ومورد الجيش

غابرييل أوفرار. أما فيلفور، الذي عين في وظيفة محترمة، هي نائب وكيل الملك في باريس، فهو يرمز إلى انتهازية ووصولية رجال القانون في تلك المرحلة، الذين كانوا ينتقلون من نظام لآخر دون أن يصيبهم أي ضرر.

وبالتالي يلتقي الخيال بالواقع. وحينما تخيل ديما انتقام دانتيس الذي أصبح كونت دو مونت كريستو، فقد استلهم واقعاً وأحداثاً تاريخية. مونديفو - مورسيف أصبح ضحية عنف حملة صحفية اتهمته بخيانة باشا جانينا وتسليمه للأتراك. ودفعت الفضيحة بهذا النبيل إلى الانتحار. أما المصرفي دانغلار، فقد أفلس بعد تلقيه برقية دفعته إلى المغامرة في إحدى عمليات البورصة، فلاذ بالفرار. الواقع أن أوفرار قد أودع السجن للاشتباه بقيامه بعدة اختلاسات. وأخيراً اتهمت محكمة الجنايات فيلفور بتخليه عن أحد أولاده مما أدى به إلى الجنون.

بذلك يكون ديما قد وجه النقد إلى أركان سلطة تموز الثلاثة: مجلس باريس، والمصرف والعدالة. كما أن رواية كونت مونت كريستو رواية معاصرة وتتضمن نقداً قاسياً للمجتمع.

لكن ماذا عن اسم مونت كريستو، تلك الجزيرة التي خبأ فيها فيرارا كنزه؟ الشرح نتركه لديما نفسه. في عام ١٨٤٢، أي قبل عام على كتابة أشهر رواياته، ارتبط ديما بنابليون، ابن الملك جيروم. وقاما معاً بزيارة إلى جزيرة إلبا واستغلا هذه الفرصة لصيد الحجل. وهناك أشار عليهما أحد سكان الجزيرة الأصليين أن بإمكانهما القيام بصيد أوفر في جزيرة صغيرة ليست بعيدة، هي جزيرة مونت كريستو. ويبدو أن الاسم أعجب ديما فقام بتسجيل الموقع الجغرافي مما أدهش ابن الملك جيروم، فقال له ديما أنه سيجعل من اسم هذه الجزيرة عنواناً لرواية قد يكتبها ذات يوم تخليداً لذكرى هذه الرحلة.

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة. في كتاب عنوانه: ثرثرات، يروي ديما القصة التالية: "والآن كل واحد حر في البحث في كونت مونت - كريستو عن مصدر آخر غير الذي أشير إليه هنا؛ ومن يعثر عليه هو شخص شديد

الذكاء". وبالفعل فقد تم العثور على هذا الشخص. في عام ١٩٧٦، حيث نشر هنري جيل، الكاتب والمتخصص في السلالات، نتائج أبحاثه عن أجداد ديما(مونت كريستو أو المغامرة العجيبة لأجداد ألكساندر ديما، منشورات بيران. وتحري التاريخ، منشورات ف. و) وكشف عن قصة غريبة.

جد الكاتب، ألكساندر داي دولابايوتري، مركيز من أصول نورماندية، صاحب مزرعة في سان دومينغ. استقر فيها مع أخيه الأصغر شارل الذي كان على نقيض أخيه في كل شيء. فبينما كان ألكساندر شخصاً لامبالياً، كان شارل متعلقاً في البحث عن الثروة. في عام ١٧٤٨، وعلى أعقاب مشادة عنيفة جديدة –كان شارل يأخذ على ألكساندر أنه يغازل زوجته - اختفى هذا الأخير من ثلاثة من العبيد، رجلان وزوجة بعد أن هدد أخيه: "سأنتقم ذات يوم". وفي مجتمع مثل مجتمع سانت دومينغ كان هذا الهروب مع ثلاثة عبيد "آبقين" يعد بمثابة فضيحة. جن جنون شارل، وراح يبحث عن أخيه بدون طائل. واقتنع الجميع بعد مدة أن ألكساندر قد توفي.

شارل فرس بياتوري راح يستثمر المزرعة لوحده وأعطاها انطلاقة جديدة تقوم على صناعة السكر والاتجار به وتصديره من ميناء حر اسمه مونت - كريستو(كان يعمل فيها مائتا عبد. بعد مدة تراجعت صحة صاحب المزرعة وتحتم عليه العودة إلى فرنسا تاركاً خلفه من يشرف عليها في غيابه.

شارل الذي حصل على لقب ماركيز، انطلق في عالم الأعمال بعد اعتقاده بموت أخيه. حقق في البداية بعض النجاح. لكن الآتي كان كارثياً. انتقل ماركيز بايوتري الجديد من فشل لآخر، فراح يقترض الأموال حتى أفلس نهائياً. وحينما توفي في عام ١٧٧٣ اكتشف ورثته أنه مدين بأكثر من مليون فرنك. ولحسن الحظ أن مزرعة بايوتري في النورماندي بقيت للعائلة.

في عام ١٧٧٥ نزل في مدينة الهافر رجل ستينيّ من مركب قادم من سانت دومينغ مدعياً أن اسمه أنطوان دوليل. لكن حينما قابل خوري بيلفيل أنكو (حيث ملكية داي دولابياتري) قدم أوراقه التي كانت تحمل اسمه الحقيقي:

ألكساندر أنطوان دا في دولابياتري، وأنه الماركيز الذي اختفى منذ سبعة وعشرين عاماً بنية استرجاع أملاكه وقصره.

ليس على الورثة إلا الانصياع للأمر. أخيراً انتقم ألكساندر لنفسه. ومع ذلك، فإن صهر شارل قام بتحقيق في سان دومنغ أسفرت عن ظهور قصة غريبة: استقر ألكساندر مع العبيد الثلاثة الذين رافقوه أثناء هروبه في الجهة الشمالية من الجزيرة حيث وجد الزنوج الآبقون ملجأ لهم. قام ألكساندر ببيع العبيد الثلاثة ليشتري بثمنهم عبدة رائعة الجمال اسمها سيزيت ديما. أنجبت له سيزيت أربعة خلاسيين. مع مرور الزمن ضجر ألكساندر من هذه المساكنة وفكر برؤية فرنسا مرة ثانية وهمّ الانتقام يلازمه. ودفعته وقاحته إلى حد بيع أولاده ليدفع نفقات السفر باستثناء ابنه الأصغر، وهو صبي رائع الجمال اسمه توماس ألكساندر ولم يتنازل عنه إلا بشرط إمكانية استرجاعه يوماً ما.

عاد ألكساندر إلى قصره فعاش فيه حياة صاخبة على الرغم من تقدمه في العمر برفقة بعض النورمانديات الجميلات، وبدد ثروته التي حصل عليها مجدداً. في عام ١٧٧٦ استقدم المركيز ابنه الشاب توما ألكساندر من سان دومنغو عاشا معاً حياة مرحة. حياة العربدة هذه أتت على آخر أملاك دا في دولابايوتري. واضطرا أكثر من مرة إلى الهروب من المزرعة للتخلص من الدائنين.

على الرغم من هذه التجاوزات فقد حصل توماس ألكساندر على قسط جيد من التربية. هذا الخلاسي العملاق الماحك أصبح ذائع الصيت في أوساط باريس الراقية. في عام ١٧٨٦، وهي السنة التي توفي فيها والده المركيز. انخرط توما في جيش الملكة متكنياً بكنية والدته، ديما. وكانت بداية مهنته العسكرية اللامعة في الجيش الملكي ثم في جيوش الثورة والقنصلية وحصل توماس ديما، في عام ١٧٩٢ على رتبة عميد.

في عام ١٨٠٢ أنجبت ماري لابوريه، زوجة الجنرال ديما ابنها الذي أطلقت عليه اسم ألكساندر الصغيرتيمناً باسم جده. لكن القدر لم يمكن هذا

الابن من التعرف على أبيه أبداً، لأن الجنرال توفي في عام ١٨٠٦ في إيطاليا بعد مدة من الأسر المرير. ومما لاشك فيه أن فضوله للتعرف على قصة أجداده قاده إلى سماع اسم مونت كريستو الذي يتداوله أفراد العائلة. بعد مضي زمن طويل، وعلى أثر رحلته مع ابن الملك جيروم، فقد ذكّره اسم جزيرة مونت كريستو بمغامرات دافي دولابايوتري في سان دومينغ. أما موضوع الانتقام، كما يشير جيل هنري بحق، فقد كان موجوداً في لب المأساة العائلية. الوجه الاستثنائي لإدمون دانتيس سيقدم له لاحقاً حياة جديدة.

شاب شاحب فائق الجمال

الأحمر والأسود[٣]

جوليان سوريل ابن صاحب منشرة في منطقة فرانش كومتيه، استطاع أن يتعلم شيئاً من اللاتينية والتاريخ على يد جراح ـ عسكري chirurgien major إضافة إلى ولعه بسيرة نابليون بونابرت. وكان هذا الشاب غير راض عن حياته فأراد تجاوزها وتخطي ظروفه الاجتماعية. لكن والده كان يرى في أفكار ابنه مجرد أحلام ولم يكن يحب ميوله إلى قراءة الكتب.

تنبه خوري قرية فيرير، الأب شيلان، إلى ذلك الشاب الطامح إلى الدخول في سلك الكهنوت ليكون له مهنة فيها. وإلى أن تحين الفرصة المناسبة، سعى الكاهن إلى العثور له على عمل كمرب لأولاد عمدة القرية السيد دو رينال. فتن جوليان بزوجة العمدة فخطط لغزو قلبها وكان له ما أراد. لكن حبه الآثم لم يعد سراً، وصار لزاماً عليه مغادرة بيت عائلة رينال. فالتحق بإكليريكية مدينة بيزانسون بناء على توصية من الأب شيلان، على الرغم من افتقاره إلى الميل والورع، لكنه تصنع ذلك بذكاء، وأصبح محسوب المدير الأب بيرار. وحينما استقال هذا الأخير، غادر سوريل الإكليركية وعثر على وظيفة سكرتير لدى إحدى الشخصيات الفرنسية الهامة هو الماركيز دولامول. وشيئاً فشيئاً استحوذ على ثقة هذا السيد العظيم ذي النفوذ في البلاط، وتحول إلى مؤتمن على أسراره.

بدأ جوليان بغواية ماتيلد، ابنة الماركيز، ليس لرغبته فيها بل بهدف

---

(٣) الرواية الشهيرة لستاندال

تحقيق طموحاته. واكتشفت المسكينة بأنها حامل منه، فاستشاط الماركيز غيظاً واعتبر أن جوليان قد خان ثقته. فاقترح عليه الشاب بأن يقتله ويعمل على أن تبدو هذه الجريمة انتحاراً. لكن الماركيز رفض الذهاب إلى هذا الحد. عندها أصلح جوليان غلطته وتزوج من ماتيلد. ولكي يتخلص السيد دو لامول من هذا العار قرر أن يمنحه لقباً نبيلاً ورتبة ملازم أول في سلاح الخيالة.

عند إعلان الزواج وصلت رسالةمن السيدة دورينال التي مازالت مغرمة بجوليان الذي علمت بأنه يعد العدة للزواج من ماتيلد دولامول. وبناء على نصيحة أحد مرشديها الروحيين، وشت بجوليان باعتباره مفسداً للنساء. وفي الحال، اتخذ جوليان قراراً بالعودة إلى فيريير والغيظ يملأ صدره. وهناك انتظر السيدة دورينال في الكنيسة وأطلق عليها عيارين ناريين فأصابها بجرح خطير.

ألقي القبض على جوليان. وقامت السيدة دورينال بكتابة رسائل إلى كل من أعضاء هيئة المحلفين تتشفع فيها لعشيقها. لكن الشاب اعترف بأنه مذنب، وحكم عليه بالموت. قامت السيدة دورينال بزيارته في سجنه وتوسلت إليه بأن يعود عن إقراره بالجريمة، لكن جوليان رفض. المهوأدك كل منهما بأنه كان يحب الآخر. أعدم جوليان تحت المقصلة. وبعد ثلاثة أيام توفيت السيدة دورينال.

نشرت رواية ستاندال: الأحمر والأسود، في عام ١٨٣١، وكانت تحمل عنواناً فرعياً هو: وقائع القرن التاسع عشر. حقيقة الرواية أن الروائي استلهم وقائعها من حادثة وقعت قبل أربع سنوات في منطقة الدفينيه التي ولد فيها وانفردت صحيفة المحاكم La gazette des tribunaux بنشر هذه الحادثة. الاسم الحقيقي لجان سوريل هو أنطوان بيرتيه، والسيدة دورينال اسمها الحقيقي أولالي ميشو دولاتور، أما اسم ماتيلد دولامول، فكان هنرييت دو كوردون.

حينما دخل قاعة المحكمة محاطاً بدركيين يعتمر كل منهما قبعة بقرنين، اتجهت عيون النسوة الحاضرات إلى ذلك الشاب النحيل البالغ الشحوب ذي العينين السمراوين المحمومتين، واللباس الأنيق. كان يضع منديلاً أبيض تحت ذقنه مربوطاً بأعلى جمجمته. سرى همس بين الحضور: "لا بد وأنه يتألم كثيراً". وفي الحال، بعد هنيهة، صار يقال "ياله من جميل". الألم والجمال والفضيحة. فضيحة حب حرام انتهى تحت قبة كنيسة بمحاولة قتل وانتحار. اجتمع كل شيء في قاعة المحكمة المتواضعة هذه في مدينة غرونوبل لكي تخفق القلوب بأقوى ما تستطيع الخفقان. كيف لا ونحن نعيش في عصر الرومانتيكية. لكن العنصر الروائي كان حاضراً في قفص المتهمين، يرمز إليه هذا الشاب الناعم الذي يمكن أن يغمى عليه في أية لحظة.

كان أنطوان بيرتيه في السادسة والعشرين من عمره. ولد في ٤ آذار ١٨٠١ في قرية برانغ من منطقة الإيزير القريبة من جبال بوغي. أبوه كان بيطاراً (حذاء للخيل)، وأمه ترعى ستة أطفال آخرين. سرعان ما لاحظ الوالدان أن أنطوان - ماري، آخر العنقود لم يكن كإخوته. صحته رهيفة وبنيته ضعيفة، وجبلته بيضاء (بريئة)، باختصار كان أقرب ما يكون إلى هيئة البنت. فكيف والحال هذه يمكنه أن يعمل في محترف الحداد مع أبيه وإخوته الأشداء ذوي السحنات النضرة؟ زد على هذا أن الشاب أنطوان لم يعرب عن أي فضول نحو ما يقوم به أبوه. إذ ما أن تسنح له الفرصة حتى يلجأ إلى ملحق البيت العلوي ليستغرق في أحلامه لساعات طويلة.

مع أن أنطوان كان موضع سخرية من أبيه وأشقائه الذين كانوا يضربونه في أغلب الأحيان، فقد استحوذ على انتباه خوري القرية، الأب ميشو العجوز. كان الطفل يتمتع بنظرة حادة وذكاء على أبواب التفتح. قبل الأب بيرتيه، آسفاً، أن تفرض الإكليركية على ابنه تعلم مبادئ اللغة اللاتينية. وسرعان ما برهن أنطوان على أنه تلميذ نجيب. فقرر الأب ميشو أن يجعل منه كاهناً، وهو ما وافقت عليه العائلة فوراً لأن التحاقه بالمدرسة الإكليركية، سيوفر عليها طعام

أحد أفرادها. لكن بقيت مشكلة دفع مصاريف سفره إلى غرونوبل وإقامته فيها. مرة أخرى يهب الكاهن الشهم لمساعدة أنطوان، فاغترف مما وفره واستنهض كرم بعض العائلات السديدة. وفي تشرين الأول من عام ١٨١٨، تم جمع المصاريف اللازمة للإقامة، واتجه أنطوان في طريق غرونوبل متأبطاً صرة حاجياته الصغيرة.

في المدرسة برهن هذا الشاب عن براعته. لكن النظام والفاقة والبرد أرخت بثقلها عليه. ولاشك في أنه أدرك أنه ملزم بالمداهنة إذا أراد أن يحقق طموحه. كانت إرادته، وليس رغبته هي دافعه نحو النجاح وتجاوز ظرفه الاجتماعي. لم يكن أنطوان راغباً في أن يكون كاهناً إلا لينسى الآخرين بأنه أكثر من مجرد ابن بيطار (حذاء للخيل). زد على هذا استياءه من جو الإصلاح الأخلاقي والديني المهيمن منذ نهاية الحقبة النابوليونية وعودة آل بوربون إلى الحكم. في غرفته استبدل بكتاب الصلوات كتباً ممنوعة مثل كتب القرن الثامن عشر الفلسفية وربما بعض الروايات الإباحية. وبعد فترة فوجئ بوجوب مغادرته المدرسة، التي أمضى فيها أربع سنوات كاملة. قيل له رسمياً أن سبب طرده يعود لأسباب طبية ـ حيث مازالت صحته ضعيفة. فاستخدم هذه الذريعة لكي لا يعترف لحاميه الأب ميشو بالسبب الحقيقي وراء طرده.

الحقيقة أن أنطوان قد تخلى عن الرهبنة قبل أن يطرد منها. فقد كان مثقفاً في عائلة تكاد تعرف القراءة والكتابة بصعوبة. فأصبح أنطوان يشعر بالغربة بين أهله أكثر من أي وقت مضى. تأثر الخوري بما أصاب الشاب من هلع فهب لنجدته من جديد. كان أحد أقاربه الأغنياء ملاكاً عقارياً كبيراً في مدينة بانغ، سعى لأن يضيف إلى نسبه لقب "آل" [أي من عائلة..] لأن وقعه أكبر، إضافة إلى توظيف مرب خاص لولديه الصغيرين. أوصى الخوري قريبه هذا بأنطوان. فتوجه هذا الأخير إلى "سادة القصر" كما كان أهل القرية يسمونهم. لم يكن في البيت من مقومات القصر أي شيء، لكنه كان فسيحاً ومؤثثاً بشكل مريح. أبلغت الخادمة إليز سيدة البيت بوصول أنطوان. فضبط

رداءه الكهنوتي رغماً عنه بانتظار السيدة أولالي ميشو دو لاتور التي كانت في الثلاثين من عمرها. وجه صبوح وقوام ميّاس، على الرغم مما أنجبته من أبناء. يتهادى تحت أهداب فساتينها، يضوع منها عطر فوّاح مثير أسكر أنطوان الذي لم يسبق له أن تنشق عطراً مثله مما أصمّ أذنيه عن سماع ما قالته له سيدة المنزل إلا بصعوبة.

بعد لحظة، وجد نفسه يصعد سلماً خلف السيدة ميشو دو لا تور. يسير خلف حرائر وفساتين وعرقوب ناعم يصعب على المرء تصوره فوق خفّين. "هذه غرفة تلميذيك.. سنضع لك فيها سريراً." قالت له السيدة دولاتور.

نظر أنطوان بصعوبة، فرأى باباً متصلاً مفتوحاً خلفه غرفة يتربع فيها سرير واسع يقوم على أعمدة مذهبة، تغطيه المطرزات البغدادية. ترى هل فاجأت أولالي نظراته وهي تبتسم قائلة: " هذه غرفتي، اخترتهالأكون قريبة من طفلي، أما غرفة نوم السيد ميشو دو لا تور فتقع في آخر الممر."

هذه هي الليلة الأولى التي يقضيها أنطوان بيرتيه تحت سقف آل ميشو. نام الشاب وعيناه معلقتان على الباب المتصل الذي يفصله قليلاً عن أم تلميذيه.

هكذا أصبح لأنطوان تلامذته. لكن الطفلين ما كانا يعنيان له سوى القليل، لاسيما وأنهما مشاكسان ومنحرفا المزاج.

لم يكن أنطوان راضياً عن حال العبودية هذه على الإطلاق، لأن المربي، بنظره، ليس سوى خادم كالآخرين. لكن هناك أولالي. ويا له من اسم رائع. فقد كانت لا تكف عن التبسم له وتبادله كلاماً لطيفاً كلما دخلت غرفة الأولاد مع بداية كل درس. وإذا ما دعي إلى طاولة مستخدميه، كانت تتجاذب معه أطراف الحديث، وتعرب عن قلقها لوضعه الصحي، وتنصحه بالذهاب لا ستنشاق هواء الجبال العليل. لكنه لم يفعل شيئاً من هذا. إنه يتشبث أكثر من أي شيء آخر بالحفاظ على سحنته البيضاء، وذلك التعبير الحزين الدائم الذي كان يستدّر عطف السيدة ميشو دو لاتور كثيراً. كان أنطوان يعنى كثيرا

بحزنه ويجعل منه أداة للغواية.

كما أنه كان يرصد بانتباه، حياة هذين الزوجين غير المتجانسين. هي خفيفة مرحة، محبة وشابة. أما هو، فمتذمر متحفظ لايهتم إلا بأملاكه وعائداته وحساباته. رجل ضجر وعجوز. لم يجرؤ أنطوان على تصور مسيرة حياتهما الزوجية. وحينما يضطر إلى التفكير بهذا تثور ثائرته.

أحالم هو يا ترى؟. لقدلاحظ، منذ وصوله إلى بيت ميشو دو لا تور، أن ضياء بدأ يتلألأ في عيني السيدة أولالي. كانا يجتمعان معاً أثناء مراجعة واجبات الأطفال. آنذاك، كان أنطوان يتمنى لو يضع يده فوق يدها. وحينما يحل الظلام كان يستدير ناحية الباب المتصل ويكتب بحرارة على ضوء الشموع بطاقات فيها من شدة الهيام ما يجعله يمزقها في الصباح.

ذات يوم، راودته الجرأة ووضع وريقة بين يدي أولالي. ويا لشدة ما كانت دهشته كبيرة حينما لم ترفضها. بل أغلقت يدها الجميلة عليها، ثم نقلتها بشكل مفاجئ إلى صدرها العامر الشاب. إذا، فقد دخلت كلماته ذلك الكهف السري الذي طالما حلم بمداعبته. احمرت وجنتا أنطوان. أتراها وقعت في حبه؟.

راحت البطاقات الناعمة تترى، الواحدة تلو الأخرى. وأصبح أنطوان يعبر فيها عن مزيد من الجرأة التي كانت أولالي ميشو دو لا تور تقبلها دون أن تشعر بالصدمة. لم يمض وقت طويل حتى عرف الشاب أن الباب المتصل لن يشكل بعد اليوم أي عائق أمامه، فراح ينسل خلسة مع حلول الظلام إلى السرير المقبب ويروي ظمأه بأقصى علامات الحب من عشيقته.

هل استسلمت أولالي؟ يبدو أن الأمر كذلك. لا شيء يؤكده بشكل قطعي. لكن مثل هذا الأمر يصعب ألا تلحظه الخادمة. إليز الداهية، لاحظت تماماً لعبة سيدتهاولم تنتظر طويلاً حتى وضعت سيدها لوي جوزيف ميشو دو لا تور بصورة ماتعرفه. وجل ما اتخذه من قرار هو التخلي بطريقة مهذبة عن

خدمات أنطوان تجنباً للفضيحة، وتصرف كأمير أو كزوج مجامل بشكل لبق. ووافق على استبقاء أنطوان في منزله بضعة أسابيع حتى يتدبر أمره. في هذه الأثناء توفي الخوري العجوز ميشو، فذهب أنطوان بيرتيه للقاء خلفه، الأب ريال. لم يتنازل الشاب عن طموحه في أن يصبح كاهناً، تحدوه دائماً الإرادة في أن يعلو فوق ظروفه. لكن لم يعد من الممكن بالنسبة له العودة إلى المدرسة الإكليركية في غرلاونوبل. ترى هل بوسع رجل الدين أن يوصي به لرؤسائه في مدرسة بيلاي؟. رومان ريال قبل بهذا، وتوجت وساطته بالنجاح. ومرة أخرى يغادر أنطوان قرية برانغ.

ترى كيف جرى الوداع بين العشيقين؟ هذا ما نجهله. بعد أن وبخت أولالي من قبل زوجها ومعرفها (مرشدها) لاشك أنها قررت، مرغمة، على الالتزام بطريق الزواج الطويل الرتيب. أما أنطوان، بعد أن انتصر فعلياً على فضيلة السيدة ميشو دو لاتور وظفر بما يريده منها، رحل لا يلوي على شيء، لأن النجاح كان شغله الشاغل. ولولا الغياب والزهد لما استيقظت فيه الرغبة بتلك المرأة.

لكن سرعان ما وقع أنطوان بيرتيه في شر انحرافاته خلال دراسته في الإكليركية، فقد لاحظ معلموه أنه يخلط بين الطموح والموهبة. فترك المدرسة بعد مضي سنة ونصف. لكن عزيمته لم تثبط على الإطلاق، فجرب حظه مرة ثانية في إكليركية غرونوبل، لكن تجربته هناك لم تطل أيضاً وتبين أنه لن يكون رجل دين أبداً.

خلال هذه العزلة الإرادية، ظل بال الطالب مشغولاً بالسيدة أولالي. وكان يكتب إليها في عدة مناسبات رسائل مفعمة بالهيام والكلمات الرقيقة التي كانت تتضمنها رسائله التي كان يضعها خلسة بين يديها في الماضي. خافت سيدة المنزل من تلك اللهجة العنيفة التي كانت تتضمنها الرسائل، فأسرت بذلك إلى مرشدها الروحي. هل تحدثت عن هذه الرسائل الحادة إلى زوجها؟ هذا ما ستزعمه في وقت لاحق. لكن تتمة القصة تستبعد هذه الفرضية. أو لم

تتهور هي نفسها حينما كتبت إلى أنطوان رسالة بسيطة لاتتضمن سوى سؤاله عن أخباره؟. كانت تعرف أن معلميه في المدرسة سيطلعون على رسائلها إليه، وبالتالي، ربما كان يستحيل عليها أن تعبر في تلك الرسائل عن حقيقة مشاعرها.

ما أن طرد أنطوان بيرتيه من مدرسة بيلاي، حتى سارع بالسفر إلى برانغ وإلى عائلة ميشو دو لا تور بالذات. لكن أمله خاب حينما اكتشف أن مربياً آخر، اسمه جاكان، قد حل محله. وتساءل: ماذا لو أن هذا المربي الجديد قد خلفه في قلب أولالي أو في سريرها؟ ومما زاد في شكه ذلك الاستقبال البارد غير العادي الذي قابلته به، وكادت الغيرة أن تطيح بعقله فهدد جاكان أولاً بتحديه في المبارزة، ثم عاد إلى طريقه كاظماً غيظه. لكن صرته قد ازداد وزنها: إذ يبدو أن السيد ميشو دو لاتور لم يكن حقوداً، فزوده بمبلغ أربعمائة فرنك. وبعد أن ترك أنطوان مدرسة غرونوبل، بلغت الطيبة (أو العمى) بزوج أولالي أن دبر له عملاً لدى أحد الأرستقراطيين المجاورين هو الكونت كوردون.

بعد أن استقر أنطوان بيرتيه في وظيفته الجديدة، كان يقوم بعمله بلا حماسة، وبقي وفياً لطبعه، فلم تفارقه تلك السحنة من الحزن المبهم الذي سمح له ذات يوم بكسب عطف أولالي ميشو دو لاتور. هل كان يأمل في القيام بغزوة عاطفية جديدة؟ على أية حال، سرعان ما حيّر ضنى ذلك الشاب ابنة المنزل الجميلة، هنرييت دو كوردون ذات الثمانية عشر ربيعاً. في يوم من الأيام، لحقت به خلسة وهو يقوم وحيداً بإحدى نزهاته الريفية. تقصف غصن تحت قدم الشابة الأرستقراطية. استدار أنطوان، فاحمرت وجنتا هنرييت وهي تقف أمامه. تقدم المربي بضع خطوات نحوها فلم تتحرك.

ربما كان إيراق الأشجار عاملاً مشجعاً على البوح فتعرف الشابان إلى بعضهما البعض.

"لم هذا الحزن الشديد يكسو محياك"؟، سألته الشابة.

ثم أردفت وهي تنظر في عينيه:

"ألا تعتقد أن الآخرين أيضاً يعانون من مشاكلهم الخاصة كما هو حالي، على سبيل المثال؟!

وحد الحزم عواطف الشابين. وقعت الفتاة في غرامه وسلمت له نفسها. وهنا بدأت فصول رواية جديدة. لكن هذا الحب سرعان ما حمل ثماره. فقرر الماركيز رغماً عنه تزويج ابنته من المربي. لاشك أن أنطوان بيرتيه لم ينس أولالي، لكن النجاح الاجتماعي الذي بدأت تباشيره مع هذا الزواج، جعلته يخفي حقده. قبل أن يقدم الأب على تزويج ابنته راح يستعلم عن هذا المتهور الذي حملت ابنته منه، وكانت كل المعلومات التي جاءته من المدرسة بالغة السوء لدرجة دفعتها إلى طرد هذا الغاوي. أما هنرييت فقد ابتعدت عن القصر ولم تعد إليه إلا بعد أن استعادت هيئتها وكأنها لم تحمل يوماً.

بعد أن طرد أنطوان بيرتيه من القصر كما يطرد الخدم، افترس الغضب صدره، فراح يفكر بسبب حظه العاثر. ترى من قدم للكونت معلومات بالغة الإضرار بشخصه إلى هذا الحد؟ ولماذا ؟. فرض الجواب نفسه: حتماً إنها أولالي! أولالي الغيورة من نجاحه ومن هنرييت. أولالي التي خانته مع جاكان وبقيت مغرمة به لأنها منعت زواجه. أولالي التي يحبها ويكرهها في الوقت نفسه.

استبد الغضب بأنطوان، فتناول ريشته ليودع أوراقَهُ عنفَ مشاعره التي أراد أن تعرفها أولالي: "أتذكرين جملتك إليّ وأنا في بيلاي: "لقد وصلتني أنباء نجاحك ياصديقي العزيز بكبرياء"، أما الآن وقدتخلى الجميع عني، يمكنك أن تقولي: "يالفرحي وأخبار ضعتك تصلني "لكن انتصارك سيكون قصيراً قِصَر انتصار آمان[٤].

تعاظم هيجان الشاب، ومثله تعاظمت وساوسه، بعد أن امتلأ يقيناً بأن أولالي تقف وراء ما أصابه من إخفاق. هل قامت بإغلاق طريق المدرسة أمامه

---

(٤) [شخصية توراتية كانت معادية لليهود، وأمان هو الوزير المقرب من ملك الفرس Assuérus حيث مات مشنوقاً].

بشكل غير مباشر؟ كيف يمكن تفسير رفض المدارس الدينية له على الرغم من الطلبات المتعددة التي قدمها لها؟. أرسل أنطوان رسالة جديدة إلى عشيقته يهددها فيها: "إذا استطعت الدخول إلى المدرسة الإكليركية فسيحل كل شيء؛ وإلا فلن أستطيع منع نفسي من القيام بعمل غير مألوف".

ترى أي تفكير كان يراوده؟.

بدأ القلق يساور عائلة ميشو دو لا تور جدياً، لاسيما وأن كاهن برانغ، الأب ريال، قد تلقى بدوره رسالة غريبة جاء فيها: "حينما أظهر تحت جرس الدير ستعرفون السبب!" ، عندها قرر النبيل لوي ـ جوزيف ميشو دو لاتور التحرك. فلم يكتف بأن يجد لأنطوان عملاً جديداً عند أحد أعيان موريستيل، إنما كتب إلى الرئيس الأعلى لمدرسة غرونوبل الإكليركية الكبرى رسالة يوصي به فيها لقبول ذلك الشاب، معبراً بذلك عن طيبة قلب لامثيل لها. لكن جواب رجل الدين، مدير المؤسسة، لم يترك أمامه أي أمل، فرد عليه قائلاً: "على وصيك أن يتذكر الحديث الذي جرى بيننا. انصحه، إن كنت قادراً، بأن يلوذ في صحراء يبكي فيها طيلة ما بقي له من عمر."

ترى ما هو الخطأ الرهيب الذي ارتكبه أنطوان؟ هذا ما لن يعرفه ميشو دو لاتور أبداً. لكن رأى من المناسب أن يضع هذا الطالب السابق بصورة هذا الرفض القاسي. فرأى فيه أنطوان سبباً إضافياً ليعد نفسه مضطهداً. فهو مرفوض من قبل الأرستقراطية والمجتمع والكنيسة، إضافة إلى رفض أولالي لحبه. اتضح جنونه تماماً في رده على ميشو دو لاتور الذي كشف فيه طموحه: "من المؤسف أنني لم أحظ بهذه المهنة التي كرست حياتي للحصول عليها؛ حيث كان يمكن أن أكون كاهناً جيداً، لاسيما وأني أشعر بأنني سأبرع في زعزعة دوافع الأهواء البشرية."

أنطوان مضلل الأرواح والأجساد. أنطوان الذي راح يحلم منذ اليوم بمجد يليق به.

في شهر تموز من عام ١٨٢٧ ذهب إلى مدينة ليون واشترى مسدسين.

ولدى عودته إلى موريستيل، كان يمارس التدرب على الرمي خلال نزهاته مع تلامذته. بدا له أحد المسدسين معطلاً، فأوكل أمره إلى بيطار المنطقة الذي تأخر في إصلاحه. عيل صبر أنطوان، لأن إنجاز مشروعه الكبير لا يحتمل التأخير. انتهز فرصة غياب والد تلامذته وانسل إلى مكتبه واستولى على مسدس كان فيه.

عند فجر يوم الأحد الواقع في ٢٢ تموز، خبأ أنطوان مسدسيه تحت قميصه وسلك طريق برانغ الواقعة على بعد خمسة كيلو مترات. كان الطقس جميلاً، والريف قفراً في يوم الرب ذاك. كان الفلاحون في دسكراتهم يتزينون للذهاب إلى القداس. كانت قبة جرس كنيسة برانغ على مرمى البصر. سار أنطوان بخطى رشيقة. لم يكن في نفسه أدنى شك ولا أي تردد. ولم يشعر طيلة حياته بما يشعر به من خفة في ذلك اليوم. أخيراً سيتخلص من وساوسه ويقهر كابوسه، وينتقم. أخيراً سيعرف الناس من هو أنطوان بيرتيه.

قرعت الأجراس. وبدأ الخوارنة بولوج الكنيسة. أما أنطوان فقد توقف بعض الوقت عند إحدى شقيقاته. كان هادئاً وهو يتناول طبقاً من الحساء قبل أن يتوجه إلى الكنيسة.

هناك حشد كبير. لأنه من النادر أن يتخلف سكان برانغ عن القداس الرباني. انسل أنطوان بين جموع المصلين وألقى بنظرة إلى راعي القداس. إنه هو من ينبغي أن يكون هناك، أمام المذبح. الراعي. كان سيعرف كيف يتحدث إلى هذا القطيع، ويسترجع النعاج الضالة ويضرب على قلوب كل أولئك الخطاة... حركة أخرى أيضاً: كان أنطوان يمضي نحو الفرقة. أخيراً سيراها. كانت أولالي ميشو دو لاتور جالسة في مكانها المعتاد، تفصله عنها بضع صفوف. التهمت عيناه ضفيرة شعرها الغزير وجيدها الأنيق الذي تمنى لو وضع شفتيه فوقه. لكنه سرعان ما استدرك قائلاً "لا، ينبغي أن ينتهي الأمر. فالوقت ليس للحب إنما للانتقام. الذي ينبغي القيام به في مناسبة احتفالية"! انتظر أنطوان لحظة تناول القربان.

ركع المؤمنون. وبينما كان أحد أطفال الفرقة يلوح بجرسه، والأب ريال يتقدم حاملاً كأسه أمام الخوارنة، فجأة نهض أنطوان مشهراً بيده مسدساً صوبه نحو أولالي دو لاتور. فانزلق صوت الطلقة المدوي بين جدران الكنيسة، ثم دوى انفجار آخر كقصف الرعد. في مقدمة الحضور، أصيبت المرأة الشابة في ظهرها وسقطت في مستنقع من الدماء. فقد الجميع صوابهم لكنهم لم يتحركوا على الفور. أسقط أنطوان بيرتيه المسدس من يده، وأخرج الثاني من تحت قميصه. وضع فوهة السبطانة تحت ذقنه وضغط على الزناد ثم وقع على قفاه.

أسرع طبيب القرية نحو أنطوان الذي فشل في قتل نفسه فلم يمت. لكن ماذا عنها؟! في تلك اللحظة التي كان يتألم فيها وينزف دمه بغزارة لم تشغل رأسه سوى فكرة أن يتمنى لها الحياة.. ينبغي أن تعيش لأنه يحبها، ولأنه لم يسبق له أن أحبها كما اليوم! اختلطت الدموع بالدماء النازفة من فكه المكسور.

سرعان ما ألقي القبض على أنطوان بيرتيه بدون أية مقاومة. لكنه يريد أن يعرف، على الرغم من الألم الرهيب الذي يطحن جمجمته. فطمأنوه: السيدة ميشو دو لاتور ستعيش.

أعيدت أولالي إلى بيتها. وأسّرت إلى طبيبها الذي يعالجها ويستخرج الطلقة الأولى التي استقرت فوق المعدة بقليل بقولها:

"كنت أتوقع هذه اللحظة منذ زمن طويل"

تم تضميد الجرح، وبقي استخراج الطلقة الثانية. لكن أولالي كانت شديدة الضعف. وبدوره جاء الأب ريال ليعودها. وبينما كان يقدم لها المسحة الأخيرة، تمتمت قائلة:

"إني أسامحه"

تم استجواب أنطوان من قبل العريف جان كلود كلير، فاعترف بكل ما أرادوا أن يعترف به. ولم يطلب من كلير المزيد. لم يظهر قاضي التحقيق،

جوزيف إيلوا دوبيه، مزيداً من الفضول على الإطلاق. الملف الذي أرسله إلى المدعي العام للملك لم يكن يتضمن سوى خمس عشرة ورقة منها إفادة قصيرة للسيدة ميشو دو لاتور جاء فيها : "منذ زمن طويل، كنت أتوقع أن أكون ضحية أنطوان بيرتيه. لقد هددني شفوياً وكتابياً عدة مرات، لكني لم أحتفظ بتلك الرسائل. لقد حذرني أشخاص آخرون كثيرون من أنه كان ينوي التعرض لحياتي. لكني لم أكن أتوقع بأن يحدث هذا بمثل هذه السرعة، لاسيما وأني لم أفعل شيئاً يستحق مثل هذا الانتقام. " يظهر أن قاضي التحقيق لم يستجوب أولالي عن طبيعة علاقاتها بأنطوان. أو، إذا كان قد قام بذلك، فهو لم يشر إليه. على الأقل يفهم من هذه الإفادة أن العاشقين قد عادا للقاء بعضهما لأن "الطالب قد هدد ضحيته شفهياً عدة مرات" .

أما الزوج المجامل فلم يعد يخضع للاستجواب. لكن قد يكون من المهم أن نعلم السبب الذي جعله يهبّ لمساعدة الطالب ويوصي به عدة مرات على الرغم من أن أنطوان كان يضطهد زوجته، على حدقوله.

كانت هناك إشاعة تزعم أن لوي جوزيف[زوج أولالي] كان يتردد في شبابه على زوجة البيطار بيرتيه. وبالتالي هل يمكن أن يكون ميشو دو لاتور الأب غير الشرعي لأنطوان، لاسيما وأنه كان يتصرف دائماً معه بدماثة ؟ هناك سبب آخر هو عدم التشابه بين آخر أبناء بيرتيه وبين بقية إخوته. لكن، حتى ستاندال نفسه، لم يجرؤ على تصورهذا الأمر!

الشهود الآخرون الهامون في قضية (الآنسة كوردون وأبيها، والمربي جاكان - الذي يمكن أن يكون قد حل محل بيرتيه "بطريقتين"، كان يرد على لسان المتهم خلال محاكمته -، والرؤساء الأعلون الذين كان أنطوان يتردد عليهم) لم يستمع إليهم قاضي التحقيق أيضاً. إن كون أحد أبناء عمومة ميشو دو لاتور يشغل وظيفة مستشار في محكمة غرونوبل، ليس بالأمر الغريب على هذا النقص في معرفة ما لدى هؤلاء من أقوال.

أودع أنطوان زنزانة في سجن بورغوان. ومنعت عليه النزهات في الساحة،

بينما كان يتألم بشدة بسبب جرحه. لقد كتب مطولاً إلى المدعي العام في محكمة غرونوبل الملكية طالباً منه تخفيف شدة ظروف اعتقاله. وكانت فرصة جديدة لكي يشرح جريمته ويفسرها: "إذا افترضتم أن السيدة ميشو بريئة، فلا بد حتماً من الافتراض بأني أطلقت النار عليها من أجل التسلية فحسب، وبما أنني استمرأت اللعبة فطبقتها على نفسي (لأني لم أوفر نفسي مثلما لم أوفرها)، (...) أن تكون السيدة ميشو سيدة محترمة، وتنتمي إلى عائلة أكثر احتراماً، فليس هناك ما هو أفضل من هذا، لكن، مع ذلك، لنعترف بلا خوف من خداع أنفسنا بأن السيدة ميشو هي التي وقفت وراء تعاستي. لكني أتحدى أي إنسان يريد أن يشهد ضدي بأنه سمع على لساني أي شيء يشين السيدة المعنية. بل، وأنا في أعماق زنزانتي لم أتوقف عن الطلب إلى الله بأن يرعى بقية أيامها، وإذا كان وضعي يسمح لي بشيء من العزاء هو أن يسبغ الله عليها نعمة الشفاء التام. أما إذا كانت السيدة ميشو قد قضت من جراء إطلاقي النار عليها، سيبدو لي أن جريمتي أكبر من أن يسامحني الله عليها: لكن بفضل الله أن ميشو ليست ضحية، بل أنا ضحيتها". خلط عجيب بين المديح والكراهية والحب.

في رسالة أخرى من تلك التي لم يكف أنطوان بيرتيه عن تدبيجها إلى النائب العام، يتحدث فيها عن أولالي ميشو: "يقال أنها تسعى إلى طلب العفو عني؛ إنها مخطئة. لأن ذلك يعني أنها تلبسني بعض المزق بعد أن نزعت عني ملابس الأرجوان. " هنا يلوح سوريل [بطل الرواية] خلف أنطوان بيرتيه. وبطبيعة الحال فإن ستاندال يضع أمامنا شخصية روائية رائعة.

بدأت المحاكمة في ١٥ كانون الأول من عام ١٨٢٧، أي بعد خمسة أشهر على وقوع الحادثة، أمام محكمة الجنايات في إيزير. هرع حشد كبير من الناس أمام قصر العدل في غرونوبل. كل منهم يريد رؤية القاتل المشين، ذلك الإنسان ذو الوجه المشؤوم. لكن الدخول كان شديد الانتقائية ولم يسمح بدخول قاعة المحاكمة إلا لمن يحمل بطاقة دعوة موقعة من قبل رئيس المحكمة.

انفطرت قلوب النسوة وهن يرمقن ذلك الشاب الناحل الحزين: كان بطلاً بنظر بعض الزوجات، أما الأزواج فلم يروا فيه سوى غاو حقير وقاتل ومدنس لعش الزوجية! أما بيرتيه، فقد قام بتمثيل دوره الأخير. حينما سأله الرئيس فانتانون، وهو قاض معروف بقسوته، وصف له وقائع صبيحة يوم الأحد الواقع في ٢٢ تموز ١٨٢٧ وشرح له حالته النفسية آنذاك:

"لقد كنت خارج وعيي، أكاد لا أميز الطريق الذي طالما طرقته. وفي الكنيسة كنت أجلس في المقعد الذي يلي ذلك الذي كانت تجلس فيه السيدة ميشو، وقد تسبب قربي الشديد منها باختلاط أفكاري وتفككها. وبدا لي وجودي كله مجرد حلم. وفي لحظة ما، تحولت أفكاري كلها لتدفعني نحو الانتحار. في نهاية المطاف، صور لي خيالي أن السيدة ميشو تسلم نفسها لرجل آخر غيري، عندها استبد بي جنون الغيرة."

تفاعل الحضور مع مشاعر المتهم. لكن شهوداً كانوا حاضرين في الكنيسة ذلك اليوم قالوا عكس ذلك، وأكدوا أن بيرتيه كان هادئاً تماماً. وانطلقت إشاعة جديدة في القاعة. نودي على السيد ميشو دو لاتور ليمثل أمام قوس المحكمة فتحدث في جو من الصمت المطبق عما بذله من مساعٍ من أجل أنطوان، واختتم حديثه مؤكداً أنه منع المذكور من دخول منزله حينما علم بسلوكه. عندها نهض المتهم ليقول:

"طيلة إقامتي في برانغ، لم تنقطع علاقتي بالسيدة ميشو مراسلة أو غير ذلك مما لا أستطيع تسميته. لقد أجرمت بحقها حينما نسيت مشاعرها نحوي، وكنت أراسلها كل يوم. وغير صحيح أن زوجها منعني من دخول منزله. بل إن السيد ميشو ألزمني بزيارته!".

في هذه اللحظة، توقع الجميع أن يستمع القاضي إلى الشاهد الرئيسي، تلك الوحيدة التي تعرف الحقيقة، أي السيدة أولالي ميشو دو لا تور. لكنها خيبت أمل الجميع عندما أرسلت إلى المحكمة شهادة طبية تقول إن حالتها الصحية لا تسمح لها بالإدلاء بشهادتها. وكان ذلك آخر مهرب لامرأة تريد

قبل كل شيء أن تنسى. لكنها لم تشف أبداً، فماتت بعد ثلاث سنوات.

كان العصر يشرف على نهايته، حينما تناول الكلام النائب العام غيرنون ـ رانفيل، وقدم مرافعة بلا رحمة:

"بعد التعمق في دراسة سلوك بيرتيه توصلت إلى قناعة بأن حب هذا الرجل للسيدة ميشو لم يكن جدياً على الإطلاق. وعليه فإنكم ستسألونني عن دافعه لارتكاب الجريمة؟ هذا الدافع أعلن عنه هو بنفسه، وهو الانتقام، الانتقام لكبريائه المهان ولآماله الخائبة في رؤية أبواب المدارس الدينية كلها مغلقة في وجهه، بينما كان طموحه يقول له: "ستبلغ مرادك من خلال الكهنوتية". لم يكن يعرف سوى الحسابات، وكان مستعداً لكبح غضبه والعودة عن مشاريعه النحسة لو ساعدته عائلة ميشو بما لها من نفوذ. وقد قايض سيدة المنزل على مالها أو حياتها، لأن المال يمثل الوجاهة الكفيلة بإرضاء كبريائه!"

في القفص كان بيرتيه يبدو أكثر نحولاً وشحوباً وهشاشة. لكن ما أن أعلن الرئيس عن إعطاء الكلام لمحامي الدفاع حتى استجمع قواه وأخرج ورقتين من جيبه وراح يقرأ بصوت بارد يتناقض مع أهمية الموضوع: "إني لا أتهم العناية الإلهية، لكن حينما يتحول إنسان ذو قلب عاشق وحساس فجأة إلى مجرم مخيف فهذا يعني أن أصبع الله قد تدخلت في هذه الكوارث الدامية."

بعد هذا التحليق، راح بيرتيه يروي قصة طفولته في مصهر أبيه في برانغ. تحدث عن صحته الهشة التي منعته من السير في مهنة أبيه، وعن المدرسة الباردة التي أرسل إليها وعن شعور نما عنده يتناقض مع الحياة الدينية، ثم العودة إلى كنف عائلته حيث كان غير ذي نفع، ثم تحدث عن وصوله إلى بيت عائلة ميشو دو لاتور:

"يا ليتني سقطت ميتاً على عتبة هذا البيت! لقد أمضيت شبابي كله في المدرسة الدينية، لكن أفكاراً قدرية عن الحب وصوراً منحوسة وأخرى عن

امرأة مافتئت تتعقبني، ولم أك من أولئك القادرين على استبعاد تلك الأفكار عبر تسبيحي بالصلاة. "

شعر الحضور، هذه المرة، بصدق بيرتيه. لكن بعد فوات الأوان. قدم محاميه الأستاذ ماسونيه مرافعة تدفع عن موكله المسؤولية:

"ألا تشهد تفاصيل ظروف هذه المحاكمة على هذيان هذا التعيس؟ هلاّ رأيتم في حياتكم أحداً يتأمل القتل العمد بدم بارد، ويتحدث عنه إلى الآخرين، لا سيما ضحيته إضافة إلى أهلها وجيرانها؟.. لا، لا. الشيطان وحده من يتصرف على هذا النحو، وقوانيننا لاتعاقب الشياطين. ؟"

واختتم المحامي مرافعته بذكاء:

"إنكم لترون الناس الذين يتمكن الهيام من قلب كيانهم أشبه بالعميان الضالين الذين لا دليل يهديهم سواء السبيل. وما يسببونه من شقاء للآخرين ما هي سوى أحداث طارئة وليست جرائم!"

في الخلاصة، طالب محامي بيرتيه العفو عن موكله دون قيد أو شرط.

كان الليل قد دخل منذ فترة طويلة حينما انسحبت هيئة المحكمة والمحلفون للتداول. في تلك السنة، أي ١٨٢٧، لم يكن قانون العقوبات قد لحظ بعد الظروف المخففة. وبالتالي كان على المحلفين الإجابة عن سؤال وحيد: "هل أنطوان بيرتيه مذنب بمحاولة القتل مع السبق والإصرار؟". فإذا كان الجواب إيجابياً سيتم قطع رأس الطالب السابق، أما إذا كان سلبياً فسينال العفو.

حينما عاد المحلفون كل إلى مقعده كان الجواب يرتسم فوق وجوههم: إن بيرتيه مذنب مع سبق الإصرار والترصد. إذاً، هو الموت. أنطوان لم يرتعد. لكن شحوبه ازداد قليلا. ولم يند الحزن عليه إلا من الجمهور.

قدم أنطوان بيرتيه طعناً بالحكم عن طريق محكمة النقض، فأرسل عريضة التماس مطولة إلى الملك شارل العاشر. اقترح النائب العام/غيرنون ـ رانفيل تخفيف العقوبة، لكن الرئيس فانتادون لم ير الأمر على هذه الصورة:

"إن مصلحة المجتمع تقتضي أن نضرب بسيف القانون شخصاً أدهشته فظاعة جريمة ارتكبت وصاحبتها دعاية كبرى، حتى أن بيرتيه لم يجرؤ على إبداء أي نوع من الشك حول الظروف التي تتهمه." بعد قراءة هذا التقرير، لم يتردد شارل العاشر أبداً فرفض العفو عنه.

في ٢٢ شباط من عام ١٨٢٨، وعند الساعة الحادية عشرة صباحاً اقتيد أنطوان بيرتيه إلى منصة الإعدام التي تم نصبها في ساحة لاجونيت. النوافذ العليا المطلة على المنصة كانت للمنزل الذي ولد فيه هنري بايل، المعروف باسم ستاندال. أما أنطوان الذي اعتراه الهزال فقد كان يعوم في ردائه الأسود. في ذلك اليوم المخصص للتسوق، كان الجمهور يحث الخطا ليتحلق حول المنصة. ومرة أخرى أغمي على بعض النسوة حين رأين جمال هذا الشاب الفائق وشدة ضعفه. ما أن وصل أنطوان إلى المنصة حتى جثا على ركبة واحدة وصلى. حبس الجمع أنفاسه. وقبل أن يلمسه الجلاد انتصب بيرتيه واتجه بنفسه نحو تلك الآلة الرهيبة وقدم رقبته إلى العدالة.

"ماريوس جاكوب"، جنتلمان فوضوي

موريس لوبلان: أرسين لوبان

في شهر أيار من عام ١٨٧٤ ولد أرسين راوول لوبان ابن تيوفراست لوبان، أستاذ اللياقة البدنية والمبارزة بالسيف والملاكمة، في مدينة بلوا من أم أرستقراطية ريفية تدعى هنرييت داندريسي التي أنكرتها عائلتها بعد زواجها من أحد أبناء العامة.

بعد ولادت أرسين بقليل، أوكل أمره إلى مرضعة طيبة من فلاحات النورماندي هي السيدة فيكتوار، زوجة أحد المزارعين. لكن هذا لا يعني أن والدي أرسين قد أهملاه، فوالده تيوفراست لوبان كان ينتهز فرصة زياراته إلى ابنه ليعلمه مبادئ الملاكمة واللياقة البدنية. ولم ينس الابن هذه الدروس الثمينة. لكن الأب لم يكن مجرد معلم فحسب، بل نصاباً محترفاً هرب إلى الولايات المتحدة ومات في السجن هناك.

أما هنرييت، فقد تعبت من طيش زوجها وانفصلت عنه بشكل مبكر، ثم استعادت ابنها أرسين واصطحبته لتعيش معه في باريس وأطلقت عليه اسم عائلتها بعد أن أسكنها ابن عم لها هو دوق درو سوبيز، غرفة متواضعة في قصر صغير ضمن الطابق المعد للخدم. لم يتحمل أرسين الإهانة التي كانت تتعرض لها والدته فقام، وهو في السادسة من عمره، بسرقة حلية كان يتباهى درو سوبيز بامتلاكها، وهي عبارة عن طوق ملكي مشهور صنع من أجل ماري أنطوانيت [...]. كانت تلك السرقة أول مغانم لوبان (ولم يشك أحد على الإطلاق بأن يقوم أرسين الصغير بمثل هذا العمل الجرئ.

لقد وضعت سيرة هذا الجنتلمان ـ الحرامي في خمسين قصة ورواية،

حيث تتعدد الاختلاسات وعمليات السطو والتضليل والهروب والحركات المسرحية والفاضحة. لكن ولادة هذه الشخصية الأدبية لم تتطرق إلى سرقة الحلية الملكية الشهيرة إلا في عام ١٩٠٦ (الطوق الملكي). الحقيقة أن أرسين لوبان ظهر للمرة الأولى بريشة موريس لوبلان الذكية في قصة نشرت في أحد أعداد مجلة (جوسيه تو=أعرف كل شيء) التي أطلقها بيير لافيت في عام ١٩٠٥ . حيث طلب الناشر من صديقه لوبلان، المعروف برواياته النفسية، كتابة قصة مغامرات. أحس الروائي بالحرج لعدم تناوله لهذا النوع من الكتابة القصصية قبل ذلك. لكن بعد شهر أرسل إلى صديقه لافيت مخطوطاً يتضمن قصة كتبت بضمير المتكلم تتحدث عن مسافر فوق مركب تابع لشركة الخطوط البحرية بين مدينتي لوهافر الفرنسية ونيويورك الأمريكية. في عرض البحر، وأثناء هبوب العاصفة، يتلقى عامل البرق على المركب"برقية" جاء فيها أن اللص الشهير أرسين لوبان موجود بين المسافرين تحت اسم ر.... في هذه اللحظة تسببت العاصفة في انقطاع الاتصال، فعمّ الاضطراب في نفوس الجميع، لاسيما بعد الإبلاغ عن بعض السرقات فوق المركب. ودارت الشكوك حول كل من يبدأ اسمه بحرف الراء. لكن لم يتم الكشف عن السارق إلا بعد وصول المركب إلى مدينة الهافر حيث تم توقيفه: وهنا نعرف أن سارد القصة لم يكن سوى أرسين لوبان نفسه!

لاقت القصة نجاحاً كبيراً. وضغط بيير لافيت على صديقه لوبلان لكتابة مغامرة جديدة يقوم بها لوبان. لكن الروائي لم يتحمس لهذا الأمر أبداً وبرر ذلك بقوله: لقد أودعت البطل في السجن لكي لا تتطور القصة لاحقاً. " فرد الناشر بقوله " لابأس! دعه يهرب منه!"

وهكذا منح لوبلان الشخصية حياة ثانية. في السجن، نظم لوبان عمليات سرقة قام بها شركاؤه. وفي المرحلة الثالثة تمكن من الهرب بشكل مثير. وبعد أن تحرر لوبان، انتصر على مبدعه ولم يغادره أبداً.

كان سارقاً لكنه لم يتخل أبداً عن تهذيبه. لوبان سارق متميز، تراه يركض

فوق السطوح، ويذرع الأنفاق ويتسلق واجهات المباني بلباسه الأسود الرسمي الضيق ويعتمر قبعة التشريفات. كان مألوفاً لدى الطبقة الراقية، وملكاً في التخفي فتراه باروناً أو كونتاً أو مديراً للأمن، وكان يشرف من يسرقهم بمجرد حضوره. ومن يتعرض للسرقة من قبل لوبان كان يشعر بلذة لايمكن قبولها إلا من هذا الرجل الذواق الذي يسرق برقة، ويتعمد ترك بطاقته الاسمية بعد أن يغادر المكان أو يقوم بإرسال الورود لاحقاً إلى ضحيته...

كان موريس لوبلان أول من تأثر ببطله: "كان علي أن أجعل من أرسين لوبان شخصية مزدوجة، لص وشاب ظريف (لأن كل أبطال الروايات ظرفاء). وبالتالي كان لا بد من أن أضيف إلى قصتي عنصراً بشرياً لتكون عملياته مقبولة ويمكن غفرانها أو أن تظهر وكأنها طبيعية. فهو أولاً يقوم بالسرقة من أجل المتعة أكثر منها بدافع الجشع. إضافة إلى أنه لايسرق الظرفاء أبداً. بل غالباً ما يعبر عن التسامح. وغالباً ما تفسر مغانمه جزئياً، على أنها بمثابة تدريبات عاطفية تمنحه الفرصة لكي يعبر عن بسالة أو إخلاص أو روح الفروسية (...)

نشرت أولى مغامرات أرسين لوبان في شهر تموز من عام ١٩٠٥ . قبل أربعة أشهر من هذا التاريخ، أي في شهر آذار، مثلت عصابة رهيبة من اللصوص أمام محكمة جنايات منطقة لاسوم، مؤلفة من ثلاثة وعشرين رجلاً وامرأة بتهمة ارتكاب أكثر من مائة وخمسين عملية سرقة حصدت منها ما يعادل خمسة ملايين فرنكاً ذهبياً، وأطلق على هذه العصابة اسم "عمال الليل". وحينما دخل زعيمهم المدعو ماريوس جاكوب إلى قفص الاتهام ران الصمت على القاعة. إذاً هو هذا الشاب الأنيق ذو المعطف الأسود وياقة الفرو والقبعة المستديرة المنتفخة وربطة العنق الحمراء، هذا هو الذي كان يقود ذلك الفريق من اللصوص المنظمين بشكل مذهل وفعّال. يبدو وكأنه أستاذ أو تلميذ لكاتب العدل. وبحركات مدروسةوضع حقيبته المحشوة بالوثائق فوق ركبتيه. لكن ابتسامة ساخرة كانت تفضح تلك الوداعة الظاهرية. قبل بضعة دقائق،

عندما ترجل من السيارة ـ الزنزانة كان هناك حشد غفير بانتظاره في ساحة قصر العدل.

على الرغم من القيود، رفع جاكوب يديه عالياً وصاح بصوت قوي:

"تحيا الفوضوية"!

عندئذ انطلقت عاصفة من التصفيق.

اتضح الموضوع إذاً، فجاكوب ليس مجرد منحرف كغيره، بل هو وريث كارتوش[٥] أو ماندران. قاطع طريق طيب لايسرق، لكنه يقوم "باسترجاع المسروقات مباشرة"، لص يعيد توزيع ما غنمه على الفقراء ويمول "القضية، رجل يصوب الأقدار، وهو في نهاية المطاف لايسرق إلا الأغنياء ويرفض سفك الدماء! وابتسامته الساخرة التي تتحدى المجتمع بوقاحة، هي التي ستزدهر بعد بضعة أشهر على شفتي أرسين لوبان.

"انهض أيها المتهم!"

بقي جاكوب في مكانه مبتسماً وبدا على رئيس المحكمة ميهيكند الاضطراب، فكرر نداءه:

انهض!

لا ياسيدي فأنت جالس أليس كذلك!

انزع قبعتك حينما تخاطبني!

وبحركة من يده أشار جاكوب إلى لباس القاضي:

"لكنك متدثر بملابسك، أليس كذلك!

احمرت وجنتا القاضي من شدة الغضب فانفجر قائلاً:

"أنت هنا لتحاكَم. وعليك أن تمتثل للأعراف وتراعي الانضباط.

هذه المحاكمة ما هي سوى مهزلة! استعراض للعدالة، سأحترمك حينما تحترم العمال،

ضحك بعض من كان في قفص الاتهام وسرت تمتمات في القاعة. قام

---

(٥) [قاطع طريق اشتهر في فرنسا عند بداية القرن الثامن عشر]

أحد رجال الدرك بانتزاع قبعة جاكوب مما ضاعف الجلبة. فصاح الرئيس:

"سكوت وإلا أخليت القاعة. ثم استدار مرة أخرى نحو المتهم الرئيس:

ـ أترفض المحلفين "؟

نعم أرفضهم جميعاً لأنهم أعدائي!"

جلسة عجيبة ومتهم عجيب. في صباح اليوم التالي كتب المحرر القانوني في جريدة لورور قائلاً: "انقلبت الأمور. ليس المجتمع الذي يمثله القضاة والمحلفون هو الذي يحاكم جاكوب، زعيم اللصوص، بل زعيم اللصوص هذا هو الذي يحاكم المجتمع. الحقيقة أنه يقود القضية. فهو حاضر باستمرار في كل مشاهد الجلسات وجاهز للإجابة، وحينما تقتضي الحاجة تراه يطرح الأسئلة والأجوبة في آن معاً. يترأس ويحاكم! صحيح أن رجال الدرك كانوا معه لكن الأمر يفقد أهميته حينما يأخذ جاكوب الكلام ليستجوب الرئيس، وهذا ما يبين لنا بوضوح أن المعادلة قد تغيرت."

ولد ماريوس جاكوب في مدينة مرسيليا في ٢٩ كانون الأول من عام ١٨٧٩ . والده جوزيف ووالدته ماريكانا يعملان في مهنة الخبازة. الأم كانت تدير المتجر، أما الأب، جوزيف، فكان يشرف على العجين لكن الضجر كان يفترسه، كان يحلم بجولة في العالم ويسافر عبر البحار البعيدة، لكن أهل زوجته رفضوا تزويجه بها إلا إذا تنازل عن أحلامه المشكوك في إمكانية تحققها. ولما لم يتمكن من تحقيق مغامراته راح يستغرق في الشراب وينقل إلى ابنه الوحيد أحلامه العريضة. لم يكن ماريوس قد تجاوز بعد الحادية عشرة من عمره حينما أبحر على متن باخرة تسمى التيبت بصفة نوتي حدث (متمرن). كان الصبي قارئاً نهماً لروايات جول فيرن، لكنه اكتشف أن الحياة التي عاشها أقل إثارة مما كان يتوقعه. فكان عليه، قبل شروق الشمس أن يبدأ بصقل نحاسيات درابزين السفينة وتنظيف حجرات السطح وما إلى ذلك من أعمال تافهة. وعند المساء كان ينهار من التعب ويرتمي فوق سريره. بعد ذلك، انتقل للعمل فوق باخرة أخرى تسمى أليكس. في بحار الجنوب انكسر مركبه

إلى قسمين بسبب اصطدامه بسفينة شحن ألمانية وغرق. وصل ماريوس إلى مدينة سيدني على متن الأرمان —بيهيك، وكان في الثالثة عشرة من عمره. وبعد أن هدده اثنان من البحارة بالاغتصاب، هرب والتحق بسفينة لصيد الحيتان. وظن الصبي بأن المغامرة قد بدأت، على الرغم من قناعته بأن البحارة السكيرين، أولهم القبطان الأسود الذي يبلغ طوله المترين، كلهم يستحقون الشنق.

ما أن بلغت السفينة عرض البحر حتى أشار المراقب إلى اقتراب أحد المراكب من السفينة. فنزل البحارة إلى الأسفل ليصعدوا بعدها وفي يد كل منهم سلاحه. وما أن اقتربت الباخرة حتى تم تبادل تحيات الفرح. وفجأة اندلعت نار كثيفة وقتل كل البحارة الموجودون فوق جسر الباخرة الثانية. فترأس قبطان سفينة الشحن عملية الالتحام، وتم ذبح ما تبقى من بحارة السفينة الثانية ورميت جثثهم إلى البحر، وسلبت البضائع وأخيراً تم إحراق الباخرة المنهوبة.

ما إن لامست السفينة الصغيرة اليابسة، حتى غادرها ماريوس بعد أن هاله مارأى من أخلاق أولئك القراصنة. وقد جاء هروبه في الوقت المناسب إذ تم القبض على سفينة صيد الحيتان بعد ثمانية أيام وتم شنق أفراد الطاقم كله.

ما يزال ماريوس جاكوب يجوب البحر آملاً في تحقيق حلمه العزيز، وهو أن يصبح ضابطاً في البحرية التجارية. لكن فاقته والحمى أوهنتا قواه الشابة. فوقع مريضاً فأنزل في مرسيليا . وللمرة الأولى في حياته كان عليه مواجهة العدالة بتهمة الهروب، لكن القضاة تسامحوا معه بسبب يفاعة عمره. وهنا قرر أن يودع حياة المحيطات. بعد أن شفي ماريوس من مرضه، عمل في إحدى المطابع كمنضد أحرف متدرب. وبفضل أحد أبناء عمومته، اكتشف الحركة

الفوضوية[٦] التي لم يتردد فوراً في الانتساب إليها. وكان قد سبق له قراءة رواية فيكتور هيغو ٩٣ وشدت انتباهه العبارة التالية " هذه الطفيليات الثلاث: رجل الدين، والقاضي والجندي". وأصبح الشاب كاتباً في إحدى الصحف الفوضوية المحلية المسماة (لاجيتاتور)، أي مثير الفتن. وتظاهر مع أصدقائه أمام الكنائس ووضع مواد حارقة في صناديق الاقتراع وكتب منشورات ومقالات نارية. ذات يوم، حدث ما ينبغي حدوثه، حيث تمكن ماريوس، مثله مثل رافاكول، من صناعة قنبلة. لكن أحد الجواسيس وشى به. وفي عام ١٨٩٧ حكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر بتهمة صناعة المتفجرات.

بعد خروجه من السجن، وعد ماريوس والدته بألا يلجأ إلى الانتقام وأن يتخلى عن نشاطاته الخطيرة، لكن الأم لم تقرر النسيان. بقي ماريوس مصنفاً طيلة حياته على أنه فوضوي. فما أن يجد عملاً حتى يقوم أحد رجال الشرطة بإبلاغ رب العمل بأنه قد يشغل عنده إرهابياً خطيراً. ويسرح من عمله فوراً. حتى أمه التي انتهى بها الأمر إلى اعتناق أفكاره وقعت ضحية هذا الاضطهاد المستمر. في إحدى حملات التفتيش استولى رجال الشرطة على خاتم خطبتها، بذريعة أن هذه الحلية جميلة جدا بحيث لا يمكن أن تكون ملكاً لها، وبالتالي فلا يمكن إلا أن تكون مسروقة، وأفهمها رجال الشرطة بأنهم سيستمرون في مضايقتها حتى يقبل ابنها الشاب بالعمل كمخبر عندهم. وبما أن المجتمع قد أعلن الحرب عليه، فلم يكن أمام ماريوس من خيار آخر سوى الهجوم.

بعد أن نضجت شخصية ماريوس، أصبح يشك بفاعلية القنابل والتفجيرات والضرب. فقرر أن يهاجم مواطن ضعف الأثرياء، أي محافظ نقودهم. والغاية ليست السرقة بحد ذاتها، بل تحقيق طموحه في ما يسميه بـ" الاستعادة المباشرة"، التي ينبغي عليها، ليس استعادة الأموال التي حصل عليها

---

(٦) تيار فلسفي سياسي ظهر في القرن التاسع على أساس بعض النظريات والممارسات التي تناهض التسلط وتدعو إلى خلو المجتمع من أي نوع من أنواع الهيمنة [المترجم]

الأغنياء بدون وجه حق فحسب بل أيضاً تمويل الحركة الفوضوية (الحرية المطلقة). باختصار، يرى جاكوب أن السرقة تربط الفضيلة الإيديولوجية بمنفعة نضالية مباشرة.

بعد أن انضم إليه كل من روك وموريل، الأكبر سناً منه وساندته والدته وروز، الفتاة التي التقى بها مؤخراً، قرر ماريوس أن يجمع حوله فريقاً متعدداً ومدرباً يحرك جميع أعضائه (الذين سيبلغ عددهم الأربعين في عام ١٩٠٠) المثال نفسه. جاكوب الذي وهبه الله عبقرية القدرة على التنظيم، وضع منظومة بالغة الدقة للتواصل مع لصوص العصابة ومنهجاً للسطو. كان المقر العام في باريس، لكن مسرح العمليات كان يجري دائماً في الأرياف. أولاً يقوم أحد الكشافة برصد منازل ضحايا المستقبل من إقطاعيين وقضاة وملاكين وموثقي عقود وبورجوازيين كبار، ويحدد الكشاف البيوت التي تبدو غير مأهولة فيلصق ورقة خاصة على الباب. فإذا لم تتم إزالتها خلال أربع وعشرين ساعة فهذا يعني أن الطريق سالكة. عندها يقوم هذا الرجل بإرسال برقية مرمزة إلى جاكوب يحدد فيها نمط الأدوات التي ينبغي استخدامها لدخول المكان وعدد الأشخاص اللازمين لإنجاز العملية. في المساء نفسه، يصل أعضاء الفريق (غالباً ما يكون ماريوس بينهم) إلى المنطقة بواسطة القطار. وبعد أن يتناولوا طعام العشاء (بعد القيام بعملية السرقة) كانوا ينتظرون إطفاء آخر قناديل الغاز، ثم يعودون من حيث أتوا بغنائمهم في أول قطار صباحي. في مساء اليوم التالي، يمكن للأشخاص نفسهم القيام بعملية أخرى في أقصى مكان من فرنسا بناء على إشارة من مبعوث آخر.

بعد شهور تمكن جاكوب من تحسين منظومته. ولكي يتجنب المرور عبر مخبئي الأشياء المسروقة، حيث يكثر المخبرون، قام بشراء مشغل صغير لصهر المعادن بعد إشهار إفلاسه. وهناك يتم صهر الحلي الذهبية المسروقة وتحويلها إلى سبائك يعاد بيعها إلى المصارف. كما اكتشف أمراً جديداً لكي يبقى مواكباً لتطور صناعة الخزنات الفولاذية، وهو شراء معمل لصناعة

الأقفال، حيث يتمكن ماريوس ورجاله من دراسة آليات الخزنات الفولاذية ونماذجها بكل طمأنينة. في هذا المعمل يقومون أيضاً بصناعة الكلابات أو العتلات وعقفات الأقفال والمفاتيح العامة القادرة على فتحها.

لكن ما تميز به ماريوس وعصابته المسماة "عمال الليل" هو الجرأة وسعة الخيال. وتجدر الإشارة إلى أن ماريوس قد بدأ مشروعه بعمل مثير.

في ٣١ آذار من عام ١٨٩٩ تقدم المفتش جول بونس برفقة مفتشين آخرين إلى مكتب أحد السماسرة في مون ديبيتيه، شارع بوتي سان جاك في مدينة مرسيليا. كان معروفاً عن هذا الرجل بأنه يمنح قروضاً بمعدلات عالية ويسرف في هذا مع الناس البسطاء الذين يعانون من صعوبات مالية. أعلن المفتش بفخفخة أنه سيقوم بعملية تفتيش لاشتباهه بأن السمسار يخبئ ساعة أثناء عملية سطو قتل فيها أربعة أشخاص. بينما كان أحد المفتشين يقوم بإغلاق باب المكتب بالمفتاح، قام المفتشان الآخران بجرد محتويات الصناديق الفولاذية وكانا يسجلان كل شيء بدقة في دفتر. بعد ذلك وضعا الحلي والأشياء النفيسة في أكياس. وبعد ثلاث ساعات قاما بتكبيل يدي السمسار واقتياده إلى عربة بصحبة أحد المفتشين. أما الشرطيان الآخران فقد حملا الأكياس في عربة ثانية وركبا فيها. اهتزت العربة الأولى وهي في طريقها إلى قصر العدل. وهناك قام المفتش بتقديم السجين إلى مكتب النائب العام. أجلسه في مقعد وطلب منه عدم مغادرته وثم تركه بذريعة البحث عن أوامر. مرت ساعات عدة ولم يكترث أحد بأمر هذا الرجل المصفد بالأغلال. وحينما قرر التعيس أن يطلب بعض التفسيرات تم اكتشاف الخديعة: إذ ليس هنام مفتش اسمه بونص في مرسيليان. لكن بعد فوات الأوان: فقد كان رجال الشرطة الثلاثة بمن فيهم ماريوس جاكوب في طريقهم إلى أسبانيا يحملون غنيمتهم الخرافية التي تقدر بأكثر من أربعمائة ألف فرنك ذهبي!

لقد كانت عملية تجريبية، لكنها شكلت ضربة معلم !. ما أن عاد ماريوس من أسبانيا حتى تم توقيفه بعد أن وشى به أحد المخبرين الذين تسللوا بين

الفوضويين. كان ماريوس معرضاً لقضاء أربع سنوات في السجن. اقتيد إلى الزنزانة فتصنع الجنون، وتم استدعاء أحد الأطباء الذي شك في أن السجين يتصنع الحالة، وقطعاً للشك أمر بإرساله إلى مصح في مدينة إكسان بروفانص حيث ابتسم الحظ لماريوس، إذ كان أحد الممرضين المدعو رواييرٍ، متعاطفاً مع الحركة الفوضوية. قام الاثنان بالتخطيط لتهريب ماريوس الذي بالغ في حركاته الجنونية ليتم عزله في جناح المشاغبين وحيث يوضع في زنزانة منفردة. طبق ماريوس هذه التعليمات حرفياً. فضرب الأرض بقدميه، وأسال لعابه، وتمرغ فوق الأرض وانتهى به الأمر إلى مهاجمة هذا الشهم رواييرٍ وراح يشد على رقبته. تدخل ممرضون آخرون وسرعان ما اقتيد المجنون إلى حيث المشاغبون وأودع زنزانة مبطنة بلا نوافذ، تضيئها كوة صغيرة تفضي إلى سطحالسجن.

بعد بضعة أيام قام اثنان من عصابة جاكوب بتسلق جدار واجهة الملجأ وزحفا نحو سطح جناح المشاغبين. وبناء على المعلومات التي قدمها لهما رواييرٍ، قاما بكسر الكوة المزججة حيث يقبع قائدهم، وفردا سلماً من الحبال بدأ ماريوس بتسلقه. فجأة، تنبه أحد الحراس لصوت تكسير الزجاج وسلط مصباحه إلى فتحة باب الزنزانة، عندها صاح جاكوب وهو ينظر إلى السماء "ناولني المسدس.. شكراً هاهو معي!". أصيب الحارس بالذعر وفر هارباً لطلب النجدة. لكن جاكوب وشركاءه لم يتأخروا فقفزوا فوق الجدار وتسلقوا إحدى السيارات وفروا هاربين. استعاد ماريوس حريته وكسب في الوقت نفسه رجلاً جديداً هو رواييرٍ.

طيلة خمس سنوات ضاعف جاكوب وجماعته من "عمال الليل" السرقات والاختلاسات المتنوعة. وفي كل تجربة جديدة كان اللص ـ الفوضوي يبدي برودة دم ولا يتردد أبداً في المخاطرة بنفسه. وبدا أن الأقفال كلها كانت تحت سيطرته وكان دائماً يعثر على نقاط ضعف الأمكنة التي يستحيل الوصول إليها. في مدينة تور، دخل الكاتدرائية بعد إزالة إحدى واجهاتها الزجاجية: في

كنيسة ألوش دخل عبر السطح وتزحلق فوق شريط إحدى الثريات. وفي مناطق أخرى دخل إلى بيت ذي أبواب مصفحة بأقفال الأمان، ونفذ عبر أحد منافذ القبو ثم انتقل إلى الطابق الأرضي. أخيراً، لكي يتمكن من سرقة أحد محال المجوهرات في شارع كانكامبوا في باريس، تخيل طريقة اتضحت معالمها لاحقاً في إحدى قصص جول داسان اسمها : شجار بين الرجال، مأخوذة عن رواية لأوغست لوبورتون.

كان محل الجواهر يقع في الطابق الثاني. قام أحد أفراد العصابة باستئجار شقة تفضي إلى الطابق الثالث باسم مستعار، أي فوق المحل تماماً. تم رصد عادات صاحب المحل بدقة كبيرة. في صباح يوم أحد، ذهب الحرفي كعادته الأسبوعية في نزهة إلى الريف مع عائلته. فقام جاكوب بثقب خشب سقف الشقة الواقعة في الطابق الثالث وأدخل فيها مظلة قام بفتحها لكي تسقط فيها الأنقاض أثناء قيامه بتوسيع الثقب، وبالتالي فلاضجة توقظ الجيران في البناء. بعد هذا لم يبق عليه سوى النزول على حبل تم عقده في عدة نقاط، وفتح الصندوق الفولاذي الذي يضع فيه صاحب المحل ذهبه. كانت المحصلة في ذلك المساء خمسة كيلوغرامات من الذهب، إضافة إلى الأحجار الثمينة واللؤلؤ والنقود العينية.

كان يتم التفاوض على بيع اللؤلؤ والألماس في لندن أو في أمستردام التي غالباً ما كان يسافر إليها ماريوس بهويات مزيفة. وفيها تمكن اللص من أن يصبح خبيراً في التأمين لصالح شركة لويد الهولندية! كان ماريوس مثله مثل شبيهه أرسين، يحب التخفي والتضليل. فتراهما يستخدمان الشعر المستعار والأثواب المتنوعة. كان جاكوب يفضل الظهور بمظهر تاجر العاديات الموسر المحترم، و تاجر الأثاث المبتدئ أو على هيئة كابتن الخيالة أو يرتدي قفطان رجل الدين.

كلاهما يمارس شيئاً من التمثيل ويتعمدان التصنع. جاكوب، الذي سيصبح لاحقاً لوبان، لا يحبان أكثر من القيام بالحركات الجميلة، وكان

أرسين يبعث بالورود إلى ضحاياه، لاسيما حين تكون تلك الضحايا من النساء الجميلات. أما ماريوس فقد تخلى عن سرقة ميزن جميل في روشفور حينما اكتشف بأنه يعود للكاتب المعروف بيير لوتي لأنه كان يعتقد بأن الكاتب مفيد للمجتمع! وفي كاتدرائية تور حيث سرق أربع مسديات لأوبيسون، ترك له بطاقة فيها: "أرجو من الله تعالى أن يجد من سرقك!"

ناهز ماريوس الخامسة والعشرين من عمره. وهو على رأس عصابة رائعة كدست مغانم ضخمة. ومع هذا فقد كان يعيش مع صديقته روز حياة متواضعة ولايتناولان طعام العشاء إلا في مطاعم العمال، لأنهما كانا يؤمنان بأن النقود التي يسرقونها ليست ملكاً لهما، بل ملك الحركة التي ينتميان إليها.

في ٢١ آذار من عام ١٩٠٣، دخل جاكوب مع اثنين من مساعديه، بور وبيليسار، أحد البيوت البورجوازية غير المأهولة في أبفيل. لكن أحد الجيران الساهرين رآهما. وفي الحال ارتدى معطفاً فوق قميص النوم، وهرع نحو مخفر الشرطة. لكن حركته لم تمر على بور المكلف بالمراقبة في إحدى النوافذ. فحذر الآخرين وهو يلفظ اسم: الأب دوشين. فسأله جاكوب: "من أين ذهب"؟ فقال: إلى اليمين ثم استدار..

سار في شارع سان وولفرانج، لسوء حظه لأنه كان يسير باتجاه المخفر!"

أسرع اللصوص الثلاثة بالهرب. وما أن بلغوا مسافة آمنة، حتى بدأ جاكوب بتخفيف خطاه: "لافائدة من العجلة. فأنا أعرف رجال الشرطة هؤلاء. سيذهبون لمعاينة الكسور ثم يعودون سريعاً إلى أسرتهم، ولن يبدؤوا التحقيق إلا صباح الغد، وبالتالي أمامنا متسع من الوقت للوصول إلى محطة سان ريمي، و غدا لديناعمل ينتظرنا في منطقة بولونيا!

ترى هل أهمل ماريوس جاكوب الدفاع عن نفسه بسبب ما حققه من نجاح؟ أم لم يعد يرى في "مهنته" ما كانت توفره له من مشاعر في السابق؟. لاشك أنه الإنهاك. زد على هذا تعبه من قيادة فريق كبير عليه أن يحكم في

النزاعات بين أفراده.

دخل القطار محطة سان ريمي. وبينما كان "عمال الليل" الثلاثة بصدد شراء بطاقاتهم، فجأة برز اثنان من رجال الأمن في القاعة. تمكن باليسار من الهرب. والتحم بور وجاكوب بالشرطيين. نجح بور باخراج مسدس من جيب سترته وأطلق النار، فوقع الشرطي بريفو أرضاً بعد إصابته في قلبه، بينما استمر جاكوب في صراعه مع العريف أكيير. أخيراً تفوق جاكوب على خصمه. نهض وأخرج سلاحاً من جيبه وأطلق على الشرطي فأصابه بجرح خطير، وهرب عبر الأرياف. لكن بعد ساعات، كانت هناك دورية من ثلاثة دركيين يقودهم نائب عام الجمهورية شخصياً، فألقت القبض عليه.

بعد عامين، افتتحت محاكمة "عمال الليل" في مدينة أبفيل، ومثل أمامها ثلاثة وعشرون من أفراد العصابة، منهم ماري، والدة ماريوس، وروز صاحبته، لكن عدداً كبيراً منهم تمكنوا من الهرب في الوقت المناسب. رفض جاكوب الإفصاح عن أسماء شركائه وتعهد بتحمل المسؤولية كاملة عن الأعمال التي تدين فريقه: وحينما كان الرئيس يسأل المتهمين حول دوره في عمليات السرقة كان جاكوب ينهض في القفص ويقول "أنا المسؤول" .

ثم يضيف وهو ينظر في عيني الرئيس:" إنني أعترف بكل سرقاتي على أنها شرف لي، لا ترحمني، لأني لو كنت مكانك لما رحمتك"

في اليوم الثالث للمحاكمة، خاطب جاكوب المحلفين استهلّه بعرض لرأيه السياسي:

"أيها السادة، تعرفون الآن من أكون: أنا متمرد يعيش على ما يسرق. لا أعترف بحق أحد في محاكمتي ولا أطلب عفواً أو رحمة. كل إنسان له الحق في مأدبة الحياة. حق الحياة لا يستجدى أبدا إنما يؤخذ . أنا واثق من أنكم كنتم تودون لو أنصاع إلى قوانينكم كعامل مطواع مهترئ، إنني أصنع الثروات في مقابل أجرة بخسة. لكني كرهت أن أستسلم لبغاء العمل، وفضلت أن أكون

سارقا لا مسروقاً. وبالتالي فقد حاربت الأغنياء، سارقي خيرات الفقراء! إنني لست مع السرقة ولم ألجأ إليها إلا لكونها وسيلة لمكافحة أظلم الناس ممن يسرقون الملكية الفردية. وباعتباري فوضوياً ثورياً، فقد قمت بثورتي لكي تتحقق الفوضوية!."

من الواضح أن جاكوب قد تكفل بمحاكمته. ولم يعد القاضي ويكيهيند قادرا على المتابعة. زعيم "عمال الليل" كان رهيباً أمام القاضي مثلما هو حاله أما صندوق فولاذي يحضر نفسه لخلعه. ينادي على الشهود، ويسخر من الآخرين. إنه يقود اللعبة. وحينما كان القاضي يريد أن يشرح الكيفية التي تمت بها السرقة، كان ماريوس يقاطعه قائلاً:

"لا ياسيدي الرئيس، اسمح لي أن أقول لك بأن خبرتك قليلة في ما يتعلق بالسطو. صدقني أن تجرتي القديمة ليست مهنة يسهل على المرء تعلمها، وبالتالي على كل منا أن يهتم باختصاصه: أنت مختص بالمقصلة وأنا مختص بالسطو."

أحد الأشخاص المدعو إيثدو، وهو من سكان كومبينيه، استدعي أمام المحكمة. اتهم جاكوب بأنه سرق منه بضعة سندات. ابتسم المتهم، الذي يعرف ملفه ظهراً عن قلب، وبرهن طيلة شهادته عن ذاكرة لامثيل لها:

كم كان سعر سنداتك؟

ألف ومائتي فرنك!

لقد سرقت قبل أن أسرقك ياصاحبي المسكين، لقد كانت سنداتك بلا قيمة، ولذلك فقد قمت بإحراقها، لكني أراهن أن من باعك إياها لم يكن بالتأكيد أكثر شرفاً مني، وتراه اليوم يحمل وريدة على كمه!"

انساب الضحك في القاعة. لاحقاً تم استدعاء أحد خدام الكنيسة في ما يخص سرقة كنيسة كانت حراستها موكلة إليه. انتهز جاكوب الفرصة فوراً ليبدأ نقده اللاذع للخوارنة المتهمين بامتلاك الصناديق الفولاذية" حيث لا يجد المرء فيها سوى الأسماك المدخنة". وحينما أصر خادم الكنيسة على تعداد

الأشياء المسروقة من قبل جاكوب، يقاطعه هذا الأخير بقوله:

"عفواً، لقد نسيت شيئاً، لاشك أنك تذكر في الخزانة، تلك المنحوتات، لنقل منحوتات من نوع فراغونار!"

يختلط الأمر على حارس الكنيسة وتضج القاعة بالضحك.

شعر الرئيس أن المحاكمة تفلت من بين يديه، فانتهز فرصة حدث وقع في الجلسة ليهاجم الدفاع بعنف. اغتاظ المحامون بلا سبب. واحتدم الكلام. وقرر المدافعون كلهم مغادرة القاعة. ونهض الثلاثة وعشرون متهماً بقيادة جاكوب على الفور. إذ لا يمكنهم البقاء بلا محامين. واتجهوا جميعاً نحو المخرج بصخب عجيب وهم يصيحون:

"تحيا الفوضوية، الرئيس عفن، أنتم مجرمون.. !"

ثم راحوا ينشدون النشيد العالمي !

استمرت المسرحية، لكنها خلت من أية نكهة بغياب ممثلها الرئيس. في ٢٢ آذار، وبعد إحدى عشرة ساعة من المداولات، قدم المحلفون رأيهم: ماريوس جاكوب يستحق عقوبة السجن مع الأشغال الشاقة المؤبدة، وحكم على "عمال الليل" بأربعة عشر عاماً، وعوقب الآخرون بأحكام تتراوح بين الخمس والعشرين سنة، كما تم العفو عن ثمانية منهم. خارج المحكمة تجمهر جمع غفير أمام قصر العدل. وراحت إمارات التمرد تنذر بالخطر، لولا تدخل ثلاثة من أفراد سلاح المشاة لاحتواء المتظاهرين.

مع هذا لم يكن ماريوس جاكوب قد أنهى أمره مع العدالة. بعد أربعة أشهر، مثل مرة أخرى أمام محكمة الجنايات في مدينة أورليان. في محاكمة كانت مجرد إجراء شكلي لمعرفته بأنه سيودع سجن كايان، حيث لا أمل له بالخروج. لكن الفوضوي، راح يسلي المتفرجين كما فعل في مدينة أميان ويزعج القضاة. وهنا جرب الهروب من السجن، فحمل سجانيه على اقتياده إلى الحمام وأغلق الباب خلفه. رصد لوحة خشبية بدت له وكأنها تخفي مخرجاً، فأزال مساميرها بسرعة ولاذ في الفتحة ثم قفز إلى الأسفل، فوجد نفسه على

بعد ثلاثة أمتارمن قاعة محكمة الجنايات. !

في المساء نفسه، تم الحكم عليه مرة أخرى بالأشغال الشاقة المؤيدة. فكتب إلى والدته: "إنه أمر جيد بالنسبة للشرفاء أن يبكوا ويتألموا في هذا الوادي من الدموع، هؤلاء الواثقون من التمتع بكل بهجة المستقبل. أما أنا اللص المسكين الذي لا يرعوي، ويشار إلي على أنني فحم حجري في مرجل السيد لوسيفر، تنطوي متعتي على الاستهزاء بكل شيء، وإظهار نفسي بأنني فوق الأحداث، وأسعى لاستخدامها من أجل مصلحتي، ثم أستعجل العودة إلى السجن، لأراه بعظمته وجبنه وضعته وأهوائه وتمرده. أجد فيه أصدقاء أوفياء. رجال لاتجد مثيلاً لهم في أي مكان!"

تم ترحيل ماريوس جاكوب إلى غويانا التي وصلها في شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٦ . وكانت رحلته ضمن قفص أعد خصيصاً له. لكن ما أن وطئت قدماه كايان، حاول الفوضوي الهرب ثماني عشرة مرة. على الرغم من السجن ومختلف العقوبات التي فرضت عليه والآلام التي عاناها، إلا أنه لم يستسلم. وكان دائماً يواجه إدارة السجن وحراس المساجين المؤبدين.

بعد الحرب العالمية الأولى، قام أصدقاؤه الفوضويون الذين لم ينسوه بتنظيم حملة صحفية للإفراج عنه. في عام ١٩٢٥، أحرز انتصاره الأول حيث غادر جاكوب مدينة كايان. ولكنه سيقضي أيضاً ثلاثة أعوام في سجن رين، قبل أن يتم إخلاء سبيله نهائياً.

كان الفوضوي اللص يقترب من سنواته الخمسين، ولم يتخل عن أي من أفكاره، لكنه أصبح يطمح لحياة أكثر هدوءاً. والتحقت به والدته التي لم تتوقف عن دعمه. عمل جاكوب تاجراً متجولاً يبيع الطواقي القماشية وتحسينها وأقام بالقرب من روينّفي في منطقة الإندر. أصبح السارق السابق يتردد إلى السوق لبيع بضاعته. لكن، في عام ١٩٣٦، لم يعد يطيق هذا العمل، فسافر إلى برشلونة واختلط بالفوضويين الأسبان الذين كانوا يقاومون بشجاعة في قوات فرانكو المتمردة. وكان مستعداً للتضحية بحياته وتنظيم

شبكة تمويل بالأسلحة. لكنه عاد إلى فرنسا بعد أن أدرك أن الجبهة العمالية كانت تتفكك بعد السيطرة المتنامية للشيوعيين الستالينيين في المعسكر الجمهوري.

بلغ ماريوس الواحدة والسبعين سنة من عمره، وتوفيت أمه وزوجته، وأصبح وحيداً يعيش مع كلب عجوز. رفض الفوضوي الاستسلام للشيخوخة. فتناول ريشته ليكتب إلى أصدقائه الفوضويين: "لقد عشت حياة مليئة ملؤها الحظ والخيبة، وأظن أن القدر قد كافأني. وسأغادركم بلا يأس والبسمة فوق شفتي، والطمأنينة تسكن قلبي. ما زلتم شباباً لاتدركون معنى أن يرحل المرء موفور العافية، غير عابئ بالعاهات كلها التي تترصد الشيخوخة. العاهات كلها تتجمع هناك، مستعدة لافتراسي. شكراً. لقد عشت، وأستطيع الآن أن أموت لألحق بوالدتي وزوجتي. " و يحدد جاكوب الطبيب الذي يريد منه أن ينظر في سبب موته: ("رجل واع لم يتمكن من بعث إنسان أبداً ")، والرجل الذي سيدفنه ("محترف بارع، لايمكنني من الفرار أبداً"). بعدها قام بتنظيم حفل لأطفال قريته.

حينما حل مساء ٢٨ من شهر آب عام ١٩٥٤، حقن كلبه بإبرة صغيرة، ثم استوى فوق سريره، ودون أن يرتعد قام بملئ الإبرة من جديد بالمورفين وغرز نفسه بها ثم تمدد فوق سريره. نام ماريوس جاكوب إلى الأبد، دون أن يمكّن حتى الشيخوخة منه.

❁ ❁

سحر البورجوازية القاتل

فرانسوا موریاك ورواية: تيريز ديكيرو

اسمها تيريز. تيريز ديكيرو التي بدأ إحساسها بعدم انتمائها إلى العالم الذي تعيش فيه يزداد تدريجياً.. ترى بم كانت تفكر وهي تنظر إلى سنديانات (منطقة لاند) الكبيرة التي كانت تضاعف من فتنتها زرقة السماء و بوجودها المياس بين زوج محدود التفكير ولامبال وبين عائلته المعادية لها؟. كانت تغرق في الصمت الذي يحيط بها، وخلف هذا الجدار الذي يحاصرها.. حتى وجود ابنتها لم يكن كافياً لها، ولايثير أي شيء من الحب إزاءها. أولاً، لأنها ابنة الآخرين، وثانياً لأنها تنتمي إلى عالمهم! وليس إلى عالمها.

يوماً بعد يوم كان الضيق يلتهم حياتها. ليس من بارقة أمل، لاسيما جسدها الذي لم تنس يوم تدنس في ليلة دخلتها: تلك "القذارة التي لاتمحى" من ذاكرتها. حتى الطبيعة التي تحد أفقها كانت عدوة لها.

كيف راودتها الفكرة؟ وهل هذا مهم؟ لكن يبدو لها أن لاشيء أكثر طبيعية، طالما أن الأمر يعني النجاة بنفسها والهروب من سجنها.

كان قلب برنار يعتصر ألماً. ذات يوم تناول، عن غير قصد، جرعة من أحد الأدوية وأصابه مرض شديد. كانت تيريز تراقبه كما تراقب حشرة تغرق في مستنقع.

بعد فترة قليلة، جهزت الشابة مخططها باطمئنان: راحت تشتري جرعات أدوية بانتظام من خلال تزوير الوصفات الطبية. وكان برنار يبتلع ما تحضره تيريز له دون أدنى حذر. وأشرف على الموت لولا أن الصيدلاني اكتشف التسمم بعد أن تنبه إلى الوصفات المزورة التي كانت تقدمها تيريز إليه.

استعاد برنار ديكيرو عافيته في اللحظة الأخيرة. وتم فتح تحقيق جنائي، وألقي القبض على تيريز ثم سجنت. لكن شرف العائلة لم يتحمل المحاكمة. فأنكرت واقعة التسمم. وتم الإفراج عن تيريز لغياب المدعي، لكنها ألزمت بالعودة إلى عائلة زوجها، وبقيت مجرمة بنظر الرأي العام لأنه يرى في مجرد خروجها من مخدعها علامة على الجرم.

اشتدت عليها وطأة الوحدة وتمنت الموت، أصبحت تقضي يومها حبيسة غرفة في الطابق العلوي من منزل العائلة الفسيح. إلى أن جاء يوم أشفق فيه برنار على هذه الزوجة التي لم يفهمها فحررها، ثم اصطحبها إلى باريس حيث تركها هناك أمام نفسها وربما أمام ندمها. واعتبرت عائلة ديكيرو أن تيريز لم تعد موجودة.

كان فرانسوا مورياك في العشرين من عمره حينما دفع باب محكمة جنايات بوردو في أيار من عام ١٩٠٦ . كانت القاعة مليئة بأناس يتابعون قضية كانت تثير اهتمام مجتمع بوردو الراقي. في عام ١٩٢٧، كتب مورياك في الملاحظة التي سبقت عنوان روايته الموسومة تيريز ديكيرو: "تيريز، سيقول الكثيرون أنك غير حقيقية، لكني أعرف بأنك موجودة، أنا الذي كنت منذ سنوات أرصدك وأستوقفك في طريقي وأكتشفك. أتذكر حينما كنت مراهقاً أني لمحت في إحدى قاعات محكمة الجنايات الخانقة وجهك الأبيض الخالي من الشفاه وأنت بين أيدي محامين لا يقلون شراسة عن تلك السيدات المزينات بالأرياش". وجه بلانش هنرييت كاترين كانابي هو نفسه وجه تيريز ديكيرو.

في بداية القرن [العشرين] كان رصيف شارانتون في مدينة بوردو الفرنسية، شبيهاً إلى حد ما بشارع سان جيرمان في باريس أو بشارع البلجيكيين في ليون، حيث كانت تقيم العائلات العريقة والأكثر ثراء (بعضها كان يتباهى بانتمائه البريطاني الذي يعود إلى الفترة التي كانت فيه جزيرة غوايانا تحت حكم الإنجليز). عائلات من التجار ونخبة البورجوازية: مجتمع مغلق ومتعال وكتيم.

كانت كاترين سابوران، ابنة إحدى عائلات التجار الميسورين، في الرابعة والعشرين من عمرها حينما تزوجت من إميل كانابيه الذي يكبرها بست سنوات. كلاهما ينتمي إلى العالم نفسه. طبعاً أفضل العوالم.

بعد أن تعرض كانابيه لبعض الصعوبات المالية افتتح مكتب وساطة على رصيف شارانتون لبيع خمور بوردو. كان غارقاً في الديون، وعمله لا يدر عليه ما يكفي من الأرباح. ومع هذا لم تمنع الصعوبات المالية الزوجين من التصرف بما يليق بمرتبتهما الاجتماعية: إميل عضو في عدة جمعيات علمية أما كاترين فقد خصصت يوم الخميس لنشاطها الاجتماعي. كانت سيدة مجتمع نحيفة وطويلة، تتحدث بغنة على طريقة نساء طبقتها. لكنة تتميز بها البورجوازية المحلية! باختصار كانت امرأة مثقفة، تتعاطى قرض الشعر لدرجة أنها حققت بعض النجاحات الأدبية في الصالونات المحلية.

لم تكن ذات جمال مثير للانتباه. جبهتها عالية وأنفها مستقيم، وجهها بارز التقاطيع أبيض على الرغم من بقعة حمراء فوق وجنتيها البارزتين فوق وجه متعجرف. زد على هذا نظرتها المحمومة. زوجان من العقيق يبرق منهما الذكاء. شكلها بمجمله يعطيك انطباعاً قوياً بالكبرياء؛ كانت كاترين بشعرها الكثيف المعقوص أشبه بأميرة مصرية، كهنوتية وغامضة.

أثمر زواجها من إيميل عن ابنتين هما صولانج وتيريز. كان إميل زوجاً ساذجاً، ومملاً إلى حد ما، وصحته واهية. كان يشكو من فقر الدم وهبوط الضغط اعتاد على معالجتهما بجرعات منتظمة من قطرات الفولر، وهو عبارة عن جروع منتظم مكون من زرنيخ البوتاسيوم. ولما كان يدرك مدى تفوق كاترين عليه، فقد كان يفعل كل ما من شأنه الارتقاء به إلى مستواها إرضاء لرغباتها. لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. في تلك الشقة العجفاء الواقعة في الرقم ٥٤ من رصيف شارانتون، كان الجو خانقاً، والحياة بليدة. ولم يفلح مجيء السيدة كانابي الأم بعد موت زوجها، في إزالة هذا الضيق. كانت كاترين تختنق بين حماتها البالغة الذكاء وبين زوجها الضعيف. لكن من الصعب أن

يسجل عليها أي مأخذ، إذ كانت المرأة الشابة تقوم بواجباتها كأم وسيدة بيت على أكمل وجه، وتهيمن على شؤون الخدمة المنزلية بيد من حديد.

لحسن الطالع، انفرجت أمامها فتحة من الأمل مع وصول بيير رابو، وهو ثري حيوي مثقف كان يميل إليها خلال فترة الشباب، ولا شك أنها كانت تبادله المشاعر نفسها. لكن بيير ترك بوردو ليستقر في باريس، حيث قضى فيها ما يقرب من عشرين عاماً من الحياة اللامعة الراقية. حينما عاد إلى بوردو، في عام ١٩٠٤، بدا لكاترين أنه مازال مفعماً بعطر الحياة الباريسية الفاتن.

كان بيير أيضاً رفيق إميل في الصف. استقبلته عائلة كانابي بحرارة منذ وصوله. ووجدت كاترين في هذا الرجل الصغير الجاف والعصبي، صديقاً مجاملاً، وأكثر من هذا، محادثاً لازماً لها، لأن زوجها لم يعرف القيام بهذا الدور أبداً. شيئاً فشيئاً استطاع بيير، بما يتمتع به من ذوق وحسن تصرف، أن يدخل حياة هذين الزوجين. ترى، هل كان يقوم بدور الصديق الخدوم أم بدور الفارس الخادم؟ ليس هناك في حياة عائلة كانابي ما يشير إلى أقل انزياح لغوي أو عن تصرف غير لائق. كان إميل أول من شجع ذلك الحنان الزائد الذي يربط زوجته بالصديق العائد، سواء من باب السذاجة أم من باب المجاملة. أو ربما أحس بأن وجود رابو يهدئ من سلوك زوجة لجوجة ومعذبة إلى حد المبالغة. لم يكترث بما أثارته هذه العلاقة من أحاديث خلف الأبواب ولا بتعليقات أمه الحقودة، بل راح يفتخر بثقته المطلقة بوفاء زوجته.

كانت كاترين تقوم برحلة إلى القسم السويسري من جبال البيرينيه برفقة ابنتيها وصحبة بيير في غياب إميل. كان بيير يدفع بسخاء ثمن بطاقات القطار وفاتورة الفندق والمطعم. لكن الصديقين كانا حذرين من إثارة أية شبهة خلال هذه الأسفار. ولم يستطع أحد تقديم البرهان عما إذا كانا عاشقين أم لا، لاسيما وأن الرسائل لم تنقطع بينهما وبين الزوج الذي بقي في بوردو.

عاد بيير وكاترين إلى بوردو في الثالث من نيسان من عام ١٩٠٥، وجلس الزوجان لاحتساء الشاي. فجأة وقع إميل مريضا. ولدى تشخيص الطبيب

أفاد بأنه مصاب بنزلة وافدة معدية. سرعان ما تدهورت صحة كانابي. في البداية كان المسكين يشكو من آلام عنيفة في البطن، ثم استبدت بجسمه تشنجات. أحس بالشلل يسري في ساقيه. كان تنفسه قصيراً وتسارع نبضه. لكن لم ترتفع حرارته. كاترين، والسيدة كانابي الأم إضافة إلى الصديق الوفي بيير رابو، راحوا يتناوبون السهر عليه ويقدمون له الأدوية التي وصفها الطبيب. حين كان إميل يخرج من أزمته يذهل بتفاني زوجته ولايكف عن إزجاء الشكر لها لعنايتها به.

انتهى الأمر بطبيب العائلة إلى الاعتراف بعجزه عن العلاج وجهله بهذا المرض الذي كان ينهك مريضه. في بداية شهر آب، وبينما كان إميل في حالة ميؤوس منها، قرر الاستعانة ببعض الزملاء ذوي الخبرة في بوردو. كانت اللوحة الطبية مثيرة للدهشة: كانابي يهذي ويقع مغشياً عليه بانتظام. كان يعاني من انحباس البول، بعدها أصيب بالشلل الرباعي وفقد الإحساس باللمس. أخيراً كانت الآلام الرهيبة في طرفيه السفليين تجعله يطلق صرخات مرعبة.

في ١٣ أيار، قررت مجموعة الأطباء نقله إلى أحد المصحات رغماً عن إرادة زوجته. هنا بدأت تتسرب أولى الشكوك. و برر الدكتور فيلار إبعاد المريض عن المنزل كونه يعيش في بيئة ملوثة لاتتوفر فيها الظروف الصحية المطلوبة". ترى ما الذي عناه الطبيب ب" بيئة ملوثة"، وهو الطبيب المعالج الوثيق المعرفة بعائلة كانابي؟ أتراه ألقى في أذن مريضه، حينما يغادر منزله فوق نقالة عبارة:" اليوم الواقع في ١٣ أيار تم إنقاذك "!

السم ! هذا ما تداولته إشاعات مجتمع بوردو الراقي. ولا شك في أن الأطباء الذين تم استدعاؤهم لمعالجة كانابي لم يكونوا بعيدين عن هذه الإشاعات.

في الوقت نفسه، تذكر الصيدلاني إيمي، بعد أن أثارته هذه الشائعة، بأنه قدم مؤخراً لكاترين كانابي، بناء على وصفة طبية، عيارات كبيرة من المواد

السامة. ولكي يريح ضميره قام بوضع طبيب عائلة كانابي بصورة الأمر. وقام الشخصان بتفحص دفتر الصيدلاني. ذهل الطبيب لما رأى: في ١ أيار تم تسليم غرام واحد من مادة الديجيتالين [وهي مادة شديدة السميّة]، في ٤ أيار تم تسليم غرام واحد من الأكونيتين وخمسة سنتيمترات مكعبة من الديجيتالين، وأخيرا في ٩ أيار سلم غرام واحد من سيانير البوتاسيوم وغرام من الديجيتالين. هذه المواد كانت تستلمها إحدى الخادمات من الصيدلية. سأل طبيب العائلة عمن وصف هذه المواد السامة بهذه الكميات القادرة على قتل عدة أشخاص. أجاب الصيدلاني: إنه الدكتور غوب من منطقة لاند وهو صديق عائلة كانابي. بعد ذلك بفترة قصيرة، صرح صيدلاني آخر، وهو عم كاترين السيد فوري أنه سلم أيضاً في ٢٧ نيسان، بناء على وصفة طبية من الطبيب غوب ٣٠ غراماً من الكلوروفورم وغراماً من الأكونيتين و٥ سم مكعب من الديجيتالين.

بينما كان إميل يستعيد صحته بصعوبة تم الاتصال بالدكتور غوب من قبل زميله فصرخ فورا وأكد أنه لم يصف هذه المواد السامة لأصدقائه من عائلة كانابي. وبالتالي فإن الوصفتين اللتين قدمتا إلى الصيدليتين كانتا مزورتين. فرفع الطبيب من منطقة لاند شكوى، فتحت النيابة العامة على إثرها، تحقيقاً في الأمر. حُددت شكوك التسميم. وكلف الدكتور لاند بإجراء فحص طبي - شرعي بعد ستين يوماً من مغادرة إميل كانابيه لمنزله. وأول ما لاحظه أن المريض ما يزال ضعيفاً على الرغم من تحسن صحته. فهو نحيف وعظامه بارزة وركبتاه متورمتان بشكل غير عادي، وهي أعراض التهاب الأعصاب، وربما التهاب النخاع الشوكي. لكن الدكتور لاند استبعد الاشتباه بالتسمم بمادتي الأكونيتين والديجيتالين. ليس بسبب انقضاء أسبوعين بل لأن الشراء تم في نهاية نيسان، إي في فترة كان إميل فيها شديد المرض. من جانب آخر، كانت كميات المواد المشتراة وكأن من سعى إلى عملية التسميم قد استخدم عياراً صغيراً جداً يقدر بميليغرام لكي يجنب ضحيته عاقبة محتمة.

بقي احتمال التسمم بالزرنيخ الذي من شأنه تفسير أعراض التهاب الأعصاب! ولدى استجواب الدكتور لاند لعائلة كانابي علم في الحقيقة أن المريض كان يلتهم بشكل منتظم نقاطاً من كحول فاولر[٧] منذ عدة سنوات. يبدو أن كاترين كانابي، وهي زبونة جيدة للصيدليات، قد اشترت خلال ثلاث مرات كحول فاولر، أي مايعادل أربعين غراماً من زرنيخ البوتاسيوم، وكانت تبرر ذلك بأنه من أجل استخدامها الشخصي. وكانت تحس بالقنوط لأن مرض زوجها المسكين كان يقلقها. وسبب شرائها لهذه الكمية هو تحطم إحدى هذه الزجاجات.

أمر بإجراء فحص سُمّي وتبين أن كميات الزرنيخ التي تم العثور عليها في دم إميل وبوله لم تكن كبيرة. لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لشعر رأس المريض وذقنه وقلامات أظافره، فالمقادير التي تم استخلاصها والتي كانت تزيد عن المعتاد، يمكن أن توحي بعملية تسميم إجرامية، وهو ما لم يجزم به الخبراء: فالزرنيخ الذي تم العثور عليه قد يكون تم وصفه لغايات علاجية قبل ٣ نيسان، أي قبل بداية مرض كانابي. حتى لو بدا أن التهاب الأعصاب كان سببه، دون شك، التسمم بالزرنيخ، فإن هذا الالتهاب كان يمكن أن يكون أكثر شدة لو كانت عضوية المريض قد أضعفها مرض ما مثل تلك النزلة الوافدة المعدية، التي شخصها في البداية طبيب العائلة. وبالنتيجة، فقد صرح الخبراء "أنه في حالة العلم الراهنة، يستحيل القول ما إذا كان الزرنيخ الذي تم امتصاصه لمدة طويلة بمقادير طبية قبل ٣ نيسان ١٩٠٥، أو الزرنيخ الذي أعطي بمقادير سامة بعد هذا التاريخ، هو الذي لعب دوراً مسبباً للمرض.

---

(٧) كما سيعرف الطبيب في مابعد أن كانابي كان مصاباً بالسيفليس قبل عشرين عاماً، وهو مرض جنسي كان يعالج في تلك الفترة بأملاح الزرنيخ. كان إميل يتظاهر بأنه مصاب بفقر الدم أو بهبوط الضغط لكن الحقيقة أن مرضه بالسيفليس كان يعالج بأملاح زرنيخ البوتاسيوم الموجود في كحول فاولر؟ "سر العائلة" هذا لم يتم الحديث عنه أثناء المحاكمة.

على الرغم من هذا التشخيص السميّ، والشكوك المتعددة التي كانت تحوم حول كاترين كانابي، قرر قاضي التحقيق، بالاتفاق مع النيابة العامة حبسها وتحويلها إلى محكمة جنايات جيروند بتهمة محاولة قتل زوجها عن طريق التسميم وبجريمة التزوير.

افتتحت قضية "المُسَمِّمة" يوم الجمعة ٢٥ أيار ١٩٠٦، واستمرت أربعة أيام حضرها أهل بوردو كلهم لكي لا يفوتهم مثل هذا الحدث. استدعى قائد المنطقة جنود كتيبة المشاة ١٤٤ لتنظيم المتفرجين الذين كانوا يتزاحمون عند مدخل قصر العدل الكائن في ساحة ماجينتا.

حينما دخلت المسمِّمة المزعومة يحيط بها دركيان إلى قفص المتهمين، ران الصمت وتسمرت العيون عليها. كانت كاترين آنذاك تقترب من عامها الأربعين. شفتاها مزمومتان، وسحنتها شاحبة ترتدي ثوباً أسود ذا ياقة بيضاء بسيطة لكنها أنيقة بقبّعتها الغامقة. في القاعة سرت الخيبة كما تسري التمتمة. كان الناس يعتقدون أن كاترين ستبدو أكثر توهجاً، وأكثر شؤماً! أوليست امرأة مسممة!). لكنها بدت اليوم في قاعة المحكمة باهتة شديدة الكآبة. ترى أين تلك هي المفاتن الخفية التي استطاعت بها أن توقع ذلك الشاب الجميل بيير رابو في حبائلها؟

بدأ القاضي القاسي براديه ـ بيلاد قراءة نص الاتهام، بينما أخفت كاترين وجهها بمنديل مطرز مافتئت تجفف عينيها به بانتظام. في الصف الأول من القاعة، جلست ابنتاها صولانج ذات الخمسة عشر ربيعاً وتيريز التي تصغرها بعام واحد. فتاتان شقراوان جميلتان.

"في عام ١٨٧٨ تزوجت أيتها السيدة كاترين من السيد إميل كانابي، الذي كان يقل عنك ذكاء بكثير، لكنه كان شاباً جميلاً له العديد من الأصدقاء. إنه يحبك كثيراً، وإن قد بالغ ربما في القول بأن حياتكما الزوجية كانت سلسلة من شهور العسل، لكنه كان أفضل مدافع عنك. إنه يطالب ببراءتك!

إنه محق في ذلك، ولو قال عكس هذا فإنه سيجانب الحقيقة!

انبجس الجواب من فم كاترين. وسرت رعدة في القاعة. نظر القاضي إلى المتهمة خلال لحظة قبل أن يتابع بخشونة:

"هذا ما سنراه!"

رفع نظارته، وعاد إلى القراءة:

"هل كان صادقاً؟ أم كان يريد تجنيب أم طفلتيه حكماً بشعاً؟ لا يهم. إنه يدافع عنك ويقف في وجه أصدقائه القدامى الذين يتهمونك."

بضعة كلمات حددت منحى الجلسة. في القاعة، الجميع يدرك أن كاترين ستقاتل بأظافرها وبأسنانها، وأن الاتهام سيصيب عائلة كانابي كلها المجتمعة خلف "المسممة".

رعدة أخرى سرت بين الحضور حينما سأل الرئيس المتهمة عن أصعب الملفات، وهو علاقتها مع بيير رابو. فأجابت كاترين بكل ارتياح:

"كنا رفيقين جيدين. سعد كل منا لرؤية الآخر مرة أخرى، وعادت علاقاتنا كما كانت عليه في الماضي. لقد قرأت الدعوى سيدي الرئيس ورأيت فيها أن أسعد الناس يريدون الإيقاع بي.."

انتاب صوتها شيء من النحيب، لكن سرعان ما تمالكت نفسها:

".. هؤلاء مجبرون على القول بأنهم لم يروا في علاقاتنا ما يشتبه به!"

لكن الرئيس لم يكن ينوي البقاء عند هذا الحد، فتابع قوله:

"أنا مضطر للإلحاح، إذ لابد من البحث عن دافع الجريمة المنسوبة إليك. لقد كانت خصوصية العلاقة بينك وبين السيد رابو مطلقة، وتداخل وجودكما مع بعضه بعضاً. كان يقيم عندكم من الصباح حتى المساء، وكنتما تزوران عمته التي أقام عندها أولاً في عام ١٩٠٤. أخيراً لحق بك في بانيير دو بيغور غداة سفر زوجك.

نعم. لكن أين الغرابة في هذه العلاقة؟ فقد كان صديقاً للزوجة والزوج. كان مع السيد كانابي في الصف نفسه، وهناك صورة قدمها له زوجي تشهد على مشاعرهما المشتركة. لقد كتب زوجي على قفا هذه الصورة: "إلى صديق

فقدته مبكراً وعثرت عليه متأخراً. "

كان الحضور في القاعة يبتسمون [وكأنهم يقولون]: يا لسذاجة هذا الزوج!. عرك الرئيس جفنيه وتابع تحقيقه:

"في بانيير، صدم الخدم بمجاملتك للسيد رابو. لم تقفا عند حدود التنزه معاً، بل سافرت معه، وذهبتما إلى سويسرة، وفي الفندق سجل السيد رابو في سجله "السيد رابو وعائلته". لقد كنت متهورة.

أبداً، في الفندق كنا ننام في غرفتين تفصل بينهما غرفة ابنتي اللتين كان يبلغ عمر كل منهما الثالثة عشرة والرابعة عشرة. وكانتا دائماً بيننا. "

تنفست بارتياح. هل فهمت أن ذلك كان يعني الندم؟، ثم تابعت حديثها فوراً:

"لقد منحنا السيد كانابي موافقته لأنه كان واثقاً من شرفي و يعرف أني بلغت عمراً لم تعد المرأة فيه.. "

توقفت عبرة في حنجرتها، وتابعت بطريقة مؤلمة:

"كان يعرف أن بيير رجل شريف. كنا نسافر واثقين. ولا يفكر بأن أقص عليه رحلة كانت جميلة لا أدري لماذا تستخدم اليوم ضدي.. "

أصر الرئيس بقوله:

"لقد روى أصدقاؤك في بوردو بأنك كنت متهورة. وأنت، ماذ تقولين لو أن إحدى صديقاتك تصرفت مثلك؟

ما كنت لأحشر أنفي في هذا الموضوع! أو لقلت إنها لو أرادت سوء التصرف لما كانت بحاجة للسفر مع طفلتيها وبموافقة زوجها!"

ـ لكن زوجك كان متهوراً أيضاً

لا، لا لن أدعكم تجرمون زوجي. إني أدافع عنه ضد كل التلميحات الموجهة ضده!"

انطلق جوابا كاترين الأخيران كالصاروخ. ولا شك أن المتهمة قد سجلت نقاطاً لصالحها. في البداية لم يكن بين الحضور من لا يريد إدانتها، لكنهم

بدؤوا يعتقدون أن إصرار الرئيس الزائد يقصد التشنيع عليها. ربما فهم النائب العام لينار الانقلاب المتدرج الذي أصاب الحضور، فسارع إلى التدخل:

"لن أقول ياسيدتي أنك كنت عشيقة رابو لأني لا أملك الدليل، وبالتالي فلا أعرف عن هذا الأمر شيئاً. أظن فقط بأنك أحببتيه.

"أحس نحوه بحنان أخوي. أكرر لكم، حنانٌ لا شيء يفسده، لكن أقسم بأني لم أكن عشيقته."

حققت كاترين كانابي النصر في هذه الجولة الأولى. لكن القادم أقسى. إذ سيتم فحص الوصفات المزيفة المقدمة إلى اثنين من صيادلة بوردو بين ٢٧ نيسان و١٠ أيار من عام ١٩٠٥. وكانت التهمة أخطر لاسيما وأن خبراء الخط برهنوا على أن الوثائق المزيفة كانت مكتوبة بخط كاترين نفسها!

لم تكن المتهمة تفتقر إلى التفسير. منذ الأسئلة الأولى التي طرحها القاضي دافعت عن نفسها بأنها منذ مرض زوجها كانت تفتح الرسائل. ذات صباح من نهاية شهر نيسان، وجدت رسالة من الدكتور غوب تحمل عبارة "خاص". فتحت رسالة صديق الزوجين هذا. فوجدت أن غوب يطلب كتابة وصفة مرفقة بهذه الرسالة، وأنه سيأتي بنفسه لأخذ الدواء المحضر ظهراً. سرعان ما أمرت كاترين إحدى الخادمات بالذهاب إلى مكتب عمها فوري. في اليوم نفسه، جاءها مبعوث شاب زاعماً أنه مكلف من الدكتور غوب باستلام العلبة لعدم قدرته على الحضور. وبطبيعة الحال وافقت كاترين على طلبه وسلمته الدواء.

تقطب وجه الرئيس تعبيراً عن الشك، لكن هذا لم يمنع كاترين من الاستمرار:

"حسناً، يبدو أنني أخدعكم، والآن السادة الخبراء يقولون بأن الوصفات كانت مكتوبة بخط يدي!"

أغمضت المتهمة عيناها. وانتقل الرئيس براد ـ بالاد إلى الهجوم:

لننظر في هذه القضية العجيبة! أولاً أين الرسالة التي أرفقها الدكتور

غوب بالوصفة؟

- مزقتها. لأننا في بيتنا نمزق كل الرسائل غير المفيدة.

- ألم تعرضيها على أحد؟

- لكنها كانت رسالة خاصة.

- ولا حتى على زوجك الذي كانت موجهة إليه..

- لقد كان مريضاً، شديد المرض.

- نعم كان يوشك على الموت قبل عدة أيام. قبل العشاء تم استدعاء كاهن. وهل كنت معتادة على مثل هذه المهام الغريبة؟ ألم تفكري بأن الدكتور غوب، الذي يسكن على بعد ساعة من بوردو، لا يحتاج أبداً إلى وسيط للحصول على ما يريد من مواد سامة؟ ويمكنه الحصول عليها دون وسيط! وأنه يعرف الصيادلة!

- هذا كله يبدو لي غريباً اليوم،

- هناك غرابة أخرى: وهي عدم العثور على الوسيط!

- ليس خطأ إعطاء علامات عن شكله إلى الشرطة!

- لكن خدمك لم يروه!

- زوجي كان مريضاً، وكان يؤم بيتنا كثير من الموردين، لهذا ربما لم يلاحظوه.. "

كان دفاع كاترين كانابي يضعف. لكنها تمسكت بحكاية هذا الوسيط الخفي الذي ربما عاد عدة مرات ليأخذ المواد السامة للدكتور غوب. لا يمكن لأي عاقل تصديق هذه الحكاية. لكن جعبة المتهمة لم تفرغ بعد. بعد أن دحضت ما تفوه به كل من الرئيس والمدعي العام من كلام جارح صاحت:

"منذ ٢٧ نيسان كان يمكن أن يكون لدي ما يكفي من تلك المواد السامة لقتل ثلاثين شخصاً. ولو كان تفكيري إجرامياً، لتابعت شراءها، وتزوير الوصفات، كما لو كنت أستعجل رمي نفسي في الهاوية، أو إيجاد البراهين ضدي.

كان لما قالته كاترين أثره، وسارعت إلى استغلال ما جاء لصالحها، إذ لم يتم العثور على أي أثر للمواد السامة في بيتها إضافة إلى أن المتخصصين في السميات لم يوافقوا على فرضية التسميم سواء بمادة الأكونتين أو الديجيتالين. عندئذٍ أنهت دفاعها بنبرة المنتصر:

"إن كنت اشتريت تلك المواد برغبة مني فليس لأني أهوى جمعها" . وفي غياب الأدلة العلمية الحقيقية أشار الرئيس إلى أن زوج كاترين بدأ بالتعافي ما إن قرر الأطباء إبعاده عن منزله. أي ما إن أبعد عن زوجته! لاسيما وأنها عارضت هذا الإبعاد بشدة. لماذا؟ لأن إميل سيتخلص من مؤامراتها الإجرامية!

كانت كاترين تختنق في قفص الاتهام. كيف يجرؤون على التفكير بهذا الأمر؟

"ظننت أنهم يريدون إخضاعه لعملية جراحية. قد يكون المرء غير محب للجراحة. كنت خائفة من وضعه في نزل صحي وكانت فكرة الافتراق عنه تؤلمني.

ـ لابد أن الدكتور فيلار قد فرض هذا التفريق الذي أنقذ زوجك!

ـ لو كان يدرك مدى الألم الذي سيلحقه بنا لما أخذه إلى هناك. وها أنا أصرخ بصوت عال: إني شديدة الأسف لتصرف الدكتور فيلار. هذا الاقتلاع هو الذي أثار الناس ضدي، هذا الاقتلاع هو الذي جعل الأطباء يصدقون فرضية التسميم!"

وأردفت كاترين أنه ما إن تم إيقاف أمر العزل حتى سارعت إلى قرب سرير زوجها الحبيب. هل كانت المتهمة مقنعة؟ بالتأكيد لا. لكنها أثارت الشك. في مساء هذا اليوم الأول من المحاكمة تغير رأي الحاضرين في القاعة جزئياً: أليست هذه القضية قضية عائلية قبل أي شيء آخر؟ كثيرون من أهالي بوردو الحريصين على الأسرار العائلية، توصلوا إلى القناعة بأن القضاء لا علاقة له بهذه القضية. لقد عانت كاترين ما فيه الكفاية، وبكت كثيراً. وكان

الناس ينتظرون بفارغ الصبر شهادات المقربين من المتهمة.

كان بيير رابو أول من اقترب من المنصة. كان الانطباع رائعاً: فالشاب كان واثقاً من نفسه وقوي الشكيمة. رجل ابن عصره بحق. كانت أجوبته مختصرة ودقيقة. لم يتلعثم، حتى حينما لاحظ الرئيس بخبث أنه طالما كان للنساء سطوة عليه:

"يبدو أن السيدة كانابي كان لها تأثير كبير على عقلك.

"إذا أردت القول بأن تأثيرها هذا كان طيباً، فهو أمر لا أخفيه."

وبالدم البارد نفسه تحدث رابو عن العلاقات الودية التي كانت تربطها بإميل، رفيق طفولته. ولم يدهش الناس من قيامه بدفع مصاريف الفندق والمطعم عن عائلة كانابي؟

"حينما يسافر رجل مع امرأة، فهو الذي يدفع بشكل عام!"

كانت كاترين في قفص الاتهام تصغي إلى هذا الرجل الأنيق باهتمام. لكن نظراتهما لم تتقاطع أبداً.

غادر رابو المنصة بالوقار نفسه. وجاء دور ابنتي كاترين بعده. وباعتبارهما شاهدتي نفي، أكدتا أنهما رأتا أمهما وهي تكسر قارورة من سائل فولر. لكن حينما أعلن الرئيس أن صولانج وتيريز ستمثلان أمام المحكمة، صرخت كاترين! لا، دعوا طفلتي وشأنهما. لا تضعوهما أمام هذه المنصة حتى لو كانت شهادتاهما لمصلحتي! انتحبت المتهمة وسقطت بين أيدي رجال الدرك، وأغمي عليها. فعدل الرئيس عن استدعائهما. واكتفى محامي الدفاع، الأستاذ بييركاف بقراءة محضر شهادتي اليافعتين أمام قاضي التحقيق. بعد أن تم إنعاش كاترين باستنشاق الخل من قبل رجال الدرك، انتابتها أزمة عصبية عنيفة، فرفعت الجلسة.

في الجلسة التالية تقدمت سيدة وقورة مسنّة تضع قفازين سوداوين إلى طاولة قسم اليمين. كل شيء يدل على أن السيدة كانابي الأم كانت مربية، حتى ذلك الشريط الحريري الأسود الذي يحيط برقبتها النحيفة. حينما مثلت أمام

القاضي تبادلت نظرة سريعة مع كنتها . الجميع يعرف أن السيدة كانابي كانت تعيش مع الزوجين منذ عشر سنوات. وبالتالي كيف لا يمكنها معرفة أسرارهما كلها؟ لاسيما كيف لا يمكنها العفو، وهي التي تابعت يوماً إثر يوم تطور ذلك الألم الفظيع الذي أصاب ابنها، وعما إذا كانت كنتها مذنبة أم لا؟

شهادتها المختصرة جداً أذهلت العقول:

"أقسم بخلاصي الأبدي، وأؤكد أن زوجة ولدي لم تخنه، لأنها امرأة لا يأتيها الباطل. استقامة سلوكها وقيامها بواجباتها إزاء زوجها وأطفالها وتفانيها الدائم، أشياء لا يرقى إليها الشك. وأنا أضمن ذلك. لا يمكن إلا أن تكون كاترين ضحية تعيسة لخبث هذه المدينة السفيهة!"

التهبت القاعة فوراً. البعض شتم، أما القسم الأكبر فقد انطلق بالتصفيق. في قفص الاتهام غطت كاترين وجهها بمنديل مطرز. ثم انسحبت السيدة العجوز بمثل ما جاءت به من وقار. حينما مرت أمام القفص رفعت الكنة يديها ولوحت لها بإشارة قصيرة أشبه ما تكون بالتحية. نظرت السيدة كانابي إليها . البعض رأى في هذا التبادل تعبيراً عن الحنان، أما أغلب الناس فلم يروا فيه سوى تعبير عن الحزن.

لكن بعد قليل، حبس الحضور أنفاسه: إذ تمت دعوة إميل كانابي للشهادة. هذا "الناجي"، كما سماه الرئيس عشية اليوم السابق، تقدم ببطء وهو يتكئ على عصا كبيرة تساعده على المشي. ما أطول الطريق الذي يقود إلى المنصة ! طويل بحيث تمكن الحضور من النظر إلى تفاصيل هذا الرجل الأربعيني الأنيق. لحية شقراء حسنة التمشيط يتخللها بعض الشيب، تحيط بوجه جميل، تعابيره باهتة. تمسك إميل بالمنصة. قدم له كرسي ترك جسمه يسقط عليه. كاترين كانت تبكي بصمت.

على الفور أجاب على أسئلة الرئيس فقلل من شأن الآلام التي يعاني منها والتي كادت تقضي عليه. أما الشلل الذي يعاني منه فسببه شيء من التعب. ماذا عن كميات الزرنيخ الكبيرة التي تم العثور عليها في شعر رأسه؟ هي نتيجة

تناوله مشروب الفولر لمدة طويلة. لكن القاضي ألح بقوله:

"لكن تم العثور على كمية كبيرة منه!

لقد وصلت إلى حد الإشباع منه منذ زمن طويل. زوجتي بريئة، ولا أعتقد أبداً أنها حاولت تسميمي!"

لم يضف إميل على ما قاله أي شيء واختار، مثل أمه، أن يكون أفضل محام عن زوجته، ثم نهض معتمدا على عصاه. لكن ساقيه خانتاه فعاود الجلوس. وسرعان ما استجمع قواه واستدار نصف دورة. في القفص كانت زوجته متوترة تنتظر "نظرة، حركة.. مر كانابي، مترنح الساقين من أمامها ورأسه نحو المخرج. تمتمت كاترين:

"إميل! إميل!"

أخيراً، أدار رأسه. رسمت له إشارة من رأسها، هي الإشارة نفسها التي أرسلتها إلى حماتها قبل قليل. ارتفعت يد إميل اليسرى قليلاً ثم هوت. كان الرجل قد أدار رأسه وسار باتجاه الحاضرين يساعده أحد كتاب المحكمة. أكثر الناس فطنة سيقولون أن إشارته إلى زوجته كانت تنطوي على الانزعاج، وكأنه اضطر للاستجابة إلى إصرار زوجته.

استكملت المناقشات يوم الإثنين الواقع في ٢٨ أيار. تم الاستماع أولاً إلى الصيادلة الذين قدموا المواد السامة بناء على وصفات الدكتور غوب المزورة. ثم عاد الرئيس ليناد على المتهمة مرة أخرى:

"باسم الحقيقة، استحلفك بالله للمرة الأخيرة أن تقولي لنا ماذا فعلت بالسموم!"

انتصبت كاترين في القفص، وكان صوتها قوياً، ونبرتها حاسمة:

"وأنا أكرر لك باسم الحقيقة أيضاً بأني أعطيته للمراسل الذي طلبها مني بأمر من الدكتور غوب!"

بدا أن الرئيس براديه بيلاد قد انتابه اليأس، واتخذ دور المدعي العام حينما انطلق في خطبة طويلة تدّعي العلمية، شكك فيها بآراء خبراء السموم

الذين قرروا استحالة أن يكون كانابي قد تناول الديجيتالين والأكونيتين. ثم أدرك خطأه وخاطب كاترين:

"ليس هذا هو المهم! الأمر المؤكد أنك لم تختلقي قصة هذه الوصفات المزورة لو لم يكن بنيتك استخدام السموم!"

عندئذ انطلقت من القفص صرخة طويلة:

"يا إلهي، يا إلهي ما هذا التحامل!"

ثم وقعت كاترين كانابي مرة أخرى مغشياً عليها، فتم إخراجها ورفعت الجلسة.

في اليوم التالي الواقع في ٢٩ أيار، استهلت المناقشات بلائحة المدعي العام لينار الاتهامية. في البداية، استنكر ما رأى أنه حماية للمتهمة من قبل عائلتها وعدذلك فضيحة في هذه القضية. وفي معرض حديثه عن شهادة إميل، أكد أنه لم يتأثر بشهادة البراءة التي قدمها رجل أنيق. بل على العكس:

"إن الأخلاق والقانون يدحضان هذه الشهادة، التي ينبغي مع ذلك على رجل القانون أن ينحني أمامها. السيد كانابي لم يرد أن يقال عن أم ابنتيه بأنها أرادت تسميم زوجها. وبذل جهده لإنقاذ أمهما والدفاع عن بيته ضد المصلحة العامة. لكن ينبغي ألا تخدع العدالة بكرمه هذا."

وختم كلامه مؤكداً بقوة أن العفو هنا سيكون بمثابة فشل.

بعده جاء دور محامي الدفاع بيركاف بلحيته البيضاء ونبرته المتزنة التي لاتخلو من تأثير في أغلب الأحيان، وبدأ بالسخرية من خبراء الخط الذين نسبوا كتابة الوصفات إلى موكلته. وقال، إن عدم فائدة ملحقي العدالة هؤلاء يعادل عدم لزومهم، وبمقدار ماهم محترمون فهم معرضون للخطأ. ثم راح يرافع من أجل البراءة، وانتهى بالقول:

"المجتمع يبحث عن إدانة. لكن ما هو المجتمع إن لم يكن مجموع العائلات؟ وحينما يقول لكم رب عائلة، قدم إليكم على أنه ضحية جريمة، "أنه لايصدق هذه الجزيمة، وأن الحكم من شأنه تدمير شرفه وبيته، فهل يمكنكم

أن تعارضوه بمفهوم آخر يتعلق بمصلحته؟ وهل تستطيعون ألا تشاركوه إيمانه؟"

انتهت المداولات. تابعت كاترين لائحة الاتهام ثم المرافعة باهتمام عصبي وهي تفرك منديلها بين يديها. وحينما طلب منها الرئيس ما إذا كان لديها كلمة تضيفها، أشارت بالنفي ووقعت مغشياً عليها.

بعد ساعة ونصف، حينما عادت إلى قفص الاتهام للاستماع إلى الحكم، كانت تسير سير النائم. وجهها مدعوك، شاردة، وبدت كما لو أنها لا ترى المحكمة أو المحلفين الذين عادوا للجلوس في أماكنهم.

بدا الرئيس برادي ـ بيلاد منزعجاً. ثم أعلن منطوق الحكم بصوت جاف: "كاترين سابوران كانابي بريئة من تهمة التسميم. لكن حكم عليها بالسجن لمدة خمسة عشر شهراً ومائة فرنك غرامة مالية بتهمة التزوير واستخدامه. وبينما كان الرئيس يتلو حيثيات الحكم، كان وجه كاترين يتغير كما لو أنها ولدت من جديد، وعاد اللمعان إلى عينيها، واكتست قسماتها بتعبير متعال يعرفه كل من يعرفها قبل سجنها. وبعد أن انتهى الرئيس، دفعت يد الدركي الذي كان يريد مساعدتها على النهوض. ورفضت بعجرفة أن يسير إلى جانبها ودفعته أمامها نحو المخرج. كانت حركتها شديدة الفظاظة، وغير منتظرة لدرجة امتثال الدركي لها.

المجتمع حكم على كاترين كانابي وبرأها، لكن محاكمتها الحقيقية مازالت بانتظارها خلف أبواب عائلتها المغلقة. ما إن عادت إلى أقاربها بعد تنفيذ عقوبة السجن، حتى كان الحكم القاسي بانتظارها: الطلاق، لكن بما أن العائلات لاتطلق في شارع شارترون، فقد تم طرد المسممة ومنعت من رؤية ابنتيها! وطردت كاترين من بوردو. وأصبحت من الآن فصاعداً غير موجودة بنظر عائلة كانابي.

وجدت ملجأ لها عند إحدى أخواتها. في عام ١٩٣٠. وللمرة الأولى بعد أربع وعشرين سنة على المحاكمة، عادت إلى بوردو. لكن حقد عائلة كانابي لم

يتلاش بعد، فلم يسمح لكاترين بلقاء ابنتيها فعادت إلى منفاها. ولن تر صولانج وتيريز أبداً. توفيت كاترين في عام ١٩٥٢، أي بعد مرور سته وأربعين عاماً على براءتها. ترى هل عرفت، لحظة موتها، أن أحد شباب بوردو ذا العشرين عاماً، والذي كان ينتمي إلى مجتمعها نفسه، لم ينس أبداً ذلك" الوجه الأبيض الصغير الخالي من الشفاه" الذي لمحه ذات يوم من شهر أيار من عام ١٩٠٦ في قفص المتهمين في محكمة جنايات بوردو؟ وهل عرفت كاترين سابوران في نزاعها، إنها أصبحت بالنسبة للخليقة:

تيريز ديكيرو؟

❁ ❁

رب امرأة تخفي أخرى!

غوستاف فلوبير وروايته" مدام بوفاري"

الصيف يزحف متطاولاً. كانوا ثلاثة تضمهم حديقة كروسيه. أحدهم يقرأ بصوت عال. كان كبيراً ذا سحنة متوردة، ورأس بدأ شعره بالانحسار وشاربين كتلك التي كانت للغاليين (أجداد الفرنسيين القدامى). الاثنان الآخران كانا يصغيان وقد بدت عليهما علامات الملل. مرت أيام أربعة، بمعدل ثمان ساعات يومياً، كان غوستاف فلوبير يقرأ عليهما روايته "غواية القديس أنطوان". تثاءب ماكسيم ديكام. تجرأ لوي بوييه، الصديق الوفي وزميل المدرسة، أخيراً على القول: "من الأفضل لك ياغوستاف أن ترمي بما بين يديك إلى النار!".

سقط المخطوط من بين يدي فلوبير من شدة المفاجأة. أيحرق قديسه أنطوان! أيحرق كتاب عمره. لم يكن غوستاف قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره بعد، لكنه كان مقتنعاً بأنه وضع كتاباً فريداً، هو فاوست آخر على الطريقة الفرنسية. هل بقي مبرر للكتابة بعد أن عجز أفضل أصدقائه عن فهمه!؟ لكن فلوبير لم يستسلم. وتابع النضال الشاق للدفاع عن قديسه أنطوان.

أرخى الليل سدوله منذ زمن طويل. وعلى ضوء مصباح الزيت، استمر غوستاف في الاستدلال. لكن مع بزوغ الفجر، استسلم الشاب: "أنت محق يا صديقي. إني شديد القرب من موضوعي، ولم أعرف كيف أرى بوضوح.. " عندها، وكمن يلقي بطوافة إلى البحر، قال بوييه: "لم لاتكتب تاريخ عائلة دولامار؟ عائلة دولامار؟ يالها من فكرة غريبة. أكتب عن خبر تافه في جريدة؟.

عن خبر تافه صغير؟. عن تاريخ امرأة انتحرت بعد أن خانت زوجها؟. كان فلوبير يعرف القصة تماماً: الزوج أوجين دولامار، موظف الصحة، كان تلميذاً عند والده في كلية الطب في مدينة روان.

عاد الصديقان إلى باريس. ولم يكف فلوبير عن التفكير بعائلة دولامار. قصة امرأة غير راضية عن واقعها، يقودها الحلم بحياة أخرى إلى حتفها. لكن ترى ماذا يعرف فلوبير فعلاً عن تفكير النساء؟. ذات مرة التقى على شاطئ تروفيل بشابة فاتنة اسمها إليزا تولّه بحبها. حب عفيف ظل لم يبارحه أبداً.. ثم، هناك لويز. لويز كوليه عشيقته منذ ثلاثة أعوام. هي أيضاً تخون زوجها. كان يراها في فترات متقطعة. كان يحبها ويخافها. ولو غلبه التردد عليها لما أبقت من طاقته نأمة ولعطلت ذلك العمل الذي كان عليه إنجازه بأي ثمن. دلفين دولامار ولويز كوليه، ثم هذا الاسم الذي انبثق فجأة في خياله: بوفاري! إيما بوفاري ستحمل سمات لويز، أنوثتها ونزقها واندفاعاتها العابرة. لكنها ستعيش مأساة دلفين. اندفاعها الجنوني يحاصره. مجتمع تافه محدود لا يساعد على تجسيد أحلامها.

قريباً من مدينة روان كان في مقبرة راي الصغيرة ينتصب في الماضي حجر طويل مثلث الشكل، كتبت عليه العبارة التالية:" هنا يرقد جسد دلفين كوتورييه زوجة السيد دولامار، الطبيب الذي توفي في ٨ آذار من عام ١٨٤٨. صلوا لله من أجل راحة نفسه". إنه قبر مدام بوفاري لترى، هل ذهب غوستاف فلوبير ليتأمل هذا القبر خلال ثماني السنوات الطويلة التي كرسها لكتابة رائعته؟ أمر يستحيل تأكيده. بلدة راي لم تكن بعيدة عن بيت كرواسيه حيث كان يقيم فلوبير على ضفة نهر السين.

لكن ربما لم يكن المؤلف بحاجة إلى الانتقال إلى هناك طالما كان يبدو له أنه يعرف دلفين دولامار، وكل شيء عن ذلك الخبر الصغير، أضف إلى ذلك أنه مشبع بالجو الخانق الذي كان يلف بلدات الريف النورماندي حيث يعيش المرء دائماً تحت أعين الجيران، كما كان يعرف نقائصه.

ولدت دلفين عام ١٨٢٢ في بلينفيل - كريفون. والدها مزارع كان يريد أن يظهر أكبر من حجمه الحقيقي. وبالتالي فقد قام كوتورييه بتعليم ابنته البكر تعليماً يليق بآنسة تنتمي إلى العائلات الجيدة. فترددت على الدير وتعلمت العزف على البيانو! ومثلها مثل أيما، مثيلتها الأدبية، كانت تقضي الساعات في القراءة. كتب رومانسية أو قوطيّة Gothique حيث العشق بلا ترو، والألم يستبد بالجسد، و المرء يعيش حياة الرواية كما لا يعيشها أبداً دون شك. وعلى هذا فإن دلفين لم تخلق لتعيش الأحاسيس الصغيرة. كان لابد لها من حمّى وانفعالات وهيام. ضاق بها جوّ مزرعة أبيها بعد عودتها من الدير.

لكن كيف الهروب من الأعمال المرهقة البائسة التي تتسم بها حياة الفلاحين بالنسبة لمراهقة جميلة يتطلع الرجال كلهم إليها حينما يصادف أن تخرج للنزهة في شوارع القرية ؟ شعرها الطويل الأسود المفروق إلى عصابتين يفصل بينهما مفرق يفصح عن وجه بيضاوي، وبندق عينين ساحرتين وصوت ناعم مثير.

منذ مدة فكرت دلفين بالزواج بعد أن قدم إلى المزرعة رجل طيب اسمه أوجين دولامار ليعالج والدها كوتورييه. كان في الحادية والعشرين من عمره. يزعم أنه طبيب، بينما هو في الحقيقة موظف صحة، لأنه توقف عن الدراسة قبل حصوله على الدكتوراه في الطب لنقص في كفاءته. أوجين هذا الذي افتتح عيادته في البلدة القريبة من بلدة راي (إيونفيل، واسمها الدير في مدام بوفاري) لم يكن ولداً سيئاً. لكنه كان يفتقر إلى سعة الخيال وحسن الكلام، ويقال إنه كان مفرطاً في طيبته.

لاشك في أن أوجين سيكون منقذاً لدلفين. الرجل الذي سيسمح لها بالهرب من واقعها المتواضع. رمقته الشابة بنظرات ملحاحة. فاستولت على قلبه ووقع في غرامها. وانتهى الأمر بزواج دلفين من طبيبها وهي في السابعة عشرة من عمرها.

أصبحت آنسة بلينفيل الصغيرة سيدة. ولأنها زوجة أحد الوجهاء، فلابد

من أن تشغل مركزها بكفاءة. بداية طلبت من أوجين أن يكون لها خادمة. فقبل الطبيب الذي لايستطيع أن يرفض طلباً لزوجته الجميلة. انضمت إحدى الفلاحات الصغيرات إلى الزوجين. كخادمة. وبما أن دلفين قد تعلمت حسن التصرف في الدير فلابد أن تبدأ بتعليمه لخادمتها.

ألزمت نفسها باستقبال الزوار بشكل منتظم لكي تثبت وضعها الاجتماعي. و رأت أن الصيدلاني والكاتب بالعدل والمعلم، أناس جديرون بالتردد على صالونها. لكن بلدة راي المتواضعة كانت تفتقر إلى الخيارات كلها. وبدأت أحاديث الناس تنتشر. وجدت دلفين دولامار مدعويها عاديين لدرجة اليأس ومبتذلين بشكل مخيف. ولحسن حظها أنها ما زالت تحتفظ بكتبها لتهرب إليها وتتنشق من خلالها هواء أكثر نقاء.

أنجبت دلفين ابنتها أليس، وهي في الثامنة عشرة من عمرها. وبما أنها كانت ترى أن مشاعر الأمومة تليق بالأخريات، الفلاحات، فتيات المزرعة. لذلك عهدت بابنتها إلى مرضعة. ومرة أخرى يوافق أوجين. وحينما كانت تتناول العشاء بصحبة زوجها فقط، كانت دلفين تقول في نفسها: مسكين أوجين إنه لا يستطيع التحدث إلا عما يقوم به من أعمال. إنه يصمّ أذنيها بتلك الأمراض الأتفه من بعضها البعض. هذا دون الحديث عن تواضع موارده التي بالكاد تكفي لإرضاء تطلعاتها الاجتماعية. حينما تحين ساعة الدخول في السرير، يغط المسكين أوجين بالنوم ويبدأ بالشخير فور أن يضع رأسه فوق الوسادة. وحتى حينما كان يريد مضاجعتها كان الضجر يسيطر عليها. أين إذاً تلك التطلعات التي كانت تستدعيها بكل أمنياتها؟.

ترى كيف وضعتها المصادفة أمام لوي كامبيون؟، القصة لم تقف عند هذا الحدث. لكن هذا لايهم كثيراً! لوي هذا (رودولف بولانجيه في رواية فلوبير) يمثل تماماً نقيض المسكين أوجين. فهو إقطاعي جميل المحيا ومجامل بارع، أُشيع أنه كان يعشق ممثلة تقيم في باريس. لكن دلفين لم تهتم لتلك الإشاعة، لاعتقادها بأنها قادرة على تخليصه من تلك المرأة بسرعة. باريس. أكبر المدن

العظيمة! هناك ستعيش حينما يصحبها لوي إليها.

ألقت دلفين بنفسها على لوي. كانت هناك فيلا في منتزه المالك بالقرب من بلدة راي، تحتضن غرامياتهما السرية. وللمرة الأولى في حياتها تعيش هذه المرأة حلمها مع هذا العاشق الكريم الحصيف. فأسلمت نفسها له بشغف. وحينما كانت دلفين تخرج من مخدع لوي تقول في نفسها: مسكين أوجين. نعم، إنه لمسكين حقاً، بهيئته المقرورة وحياته البليدة كطبيب أرياف، وعماه.. لأنه غافل عما يدور حوله ولا يعرف عنه شيئاً. لكن حزن الزوج المخدوع بدأ يزداد في المساء رويداً رويداً.

"لنهرب".

التفت دلفين بعشيقها وهي مازالت تختلج. عرك لوي عينيه.

"نعم، لنهرب! خذني من هنا! أنا مستعدة للتنازل عن أي شيء من أجلك!"

تثاقلت عليه وداعبت شاربيه.

"لم لا تجيب؟"

تمتم لوي بكلمة "نعم" بغموض ولم تدرك دلفين معنى تردده. سعادتها كانت نوعاً من الفرح المجنون. وسرعان ما راحت تعد مشاريعها وتتخيل حياتهما المستقبلية في باريس.

"سأبدأ بتحضير أمتعتي منذ الغد".

لوي لم ينبس ببنت شفة.

لبست دلفين معطف السفر، ونظرت إلى نفسها للمرة الأخيرة في المرآة. كم هي جميلة! امرأة خلقت للحب.. في باريس، لاشك أن الرجال هناك سيتساقطون عند قدميها. طبعاً، لابد هناك، من التوصية على الملابس واقتناء مجلات الموضة. عينها معلقة على ساعة المدخل. ترى ماذا يفعل لوي؟ لقد تأخر كثيراً. شيئاً فشيئاً، وبينما كانت الساعة العتيقة تعد الدقائق، بدأت دلفين تفهم. لوي لن يأتي. لن يأتي أبداً. لقد هرب. إنه جبان. وانهمرت عيناها بالدموع.

استمرت حياتها في مسارها مع المسكين أوجين الذي لم تتغير رتابته. وبانتظار حب جديد لاشك عندها بقدومه، قمعت دلفين رغباتها عبر المزيد من نماذج التفصيل والأقمشة. لابد أيضاً من سداد أجور الخياطة. وكان الطبيب مستعداً لتسديد الفاتورة إذا كانت سعادة زوجته العزيزة مرهونة بها.

أخيراً، وصل رجل جديد. صحيح أنه ليس إقطاعياً، لكنه، موظف عند الكاتب بالعدل. شاب اسمه نرسيس بوليه (ليون ديبوي في رواية فلوبير). التقته دلفين خلال عشاء في فندق روان (أوبرج الأسد الذهبي في راي). المدعوان الآخران هما غيّوم جوان (الصيدلاني هوميه في الرواية) وزوجته. سرعان ما أصبحت دلفين عشيقة ذلك الشاب. وكانت لقاءاتهما محفوفة بالمخاطر. بينما كانت المرأة الشابة تراكم الديون والنزوات، كان أوجين المسكين لايجد ما يقوله: إنه مستعد لأي شيء، حتى الإفلاس، في سبيل ألا يزعج دلفين أو يفقدها. ما من شك في أن الأمر انتهى بالطبيب إلى فهم ما يدور حوله. وإن لم يكتشف هو بنفسه تعاسته، فهناك بعض النفوس الخيّرة في راي تطوعت لإخباره بما يدور حوله. كان العاشقان يتبادلان المودة. و تمكنت دلفين من إذهال الموظف الشاب. لكن نارسيس الحريص على تكوين مهنته الوظيفية وعلى عدم تلطيخ سمعته، أدرك في نهاية المطاف، أن علاقته بامرأة شديدة الهيجان من شأنه التأثير على مستقبله الوظيفيّ. فلابد إذاً من قطع علاقته بها. وللمرة الثانية تجد دلفين نفسها مهجورة. وقهرت الغاوية.. حلمها، طموحاتها انهارت مثل قصور الكرتون. لقد حكم عليها أن تبقى حتماً في راي. زوجة موظف صحة! زوجة رجل انتهت إلى حد كرهه وخراب بيته. وبلغ بها الأمر إلى حد كراهية ما في أوجين المسكين من إيجابيات. طيبته؟ إنها حماقة بحتة! حتى عماه كان مذنباً. وفجأة شعرت دلفين بأنها تختنق. كما لو أن جدران البيت المتواضع كانت تضيق الخناق عليها. لابد من الرحيل. نعم الرحيل.

الخامس من شهر آذار عام ١٨٤٨ كان يوم السوق في بلدة راي. تقاطر

الناس على البلدة من كل القرى المجاورة. وربما كان من بينهم كوتورييه والد دلفين. فجأة انتشر خبر لا يصدق في أرجاء السوق: زوجة الطبيب في أسوأ حالة صحية. وهناك من كان يهمس: يبدو أنها تناولت السم. ثم راح الثرثارون يرددون بصوت عال: كان لابد أن يقع هذا الأمر ذات يوم.. لو لم تكن هي لكان هو.!

بعد أن يئس أوجين من إنقاذ زوجته وعجزه عن القيام بذلك، أرسل بطلب أستاذه القديم أشيل كليوفاس فلوبير، والد غوستاف. لكن بعد فوات الأوان. كانت دلفين تتلوى من الألم فوق سريرها. لاحقاً، تحدثت الخادمة أوغستين أكلوك (فيليسيتيه في الرواية)، بعد أن بلغت من العمر عتياً، تحدثت باضطراب، عن تلك التي" كان لها أجمل الأصوات، كما تقول، لدرجة أنك تشتهي التقاط الكلمات التي كانت تتفوه بها":

"لم تشأ أن تفصح عن نوع السم الذي تناولته. كان الجميع يبكي. وحينما جثت ابنتها الصغيرة على ركبتيها راجية فقد اعترفت أخيراً. لقد كان ذلك أكثر إيلاماً مما جاء في القصة.."

"القصة التي نعنيها، هي رائعة فلوبير التي ظهرت لاحقاً (تحت اسم مدام بوفاري). لكن دلفين ـ إيما، لن تشهد هذا المجد الذي تحقق بعد موتها[8]. امرأة زانية، زوجة وأم سيئة، ترقد في العار، حتى لو سامحها زوجها المسكين.

دولامار لم يعش طويلاً بعد وفاة زوجته. بعد واحد وعشرين شهراً على وفاتها، لم يعد يتحمل عذاب الحزن فقام بشنق نفسه. هو أيضاً قتله الحب. وتزوجت الصغيرة أليس لاحقاً من صيدلاني في مدينة روان. فهل كان هذا الزواج ياترى انتقاماً من السيد هوميه؟ لكن الطفلة التي أنجبها هذان الزوجان، لوسي ــ أنطوانيت، وقعت من حيث لاتدري ضحية البوفارية

(٨) لقد بلغت شهرتها مبلغاً بحيث قام أحد مرممي الطرق بسرقة شاهدة قبرها وباعها بثلاثين فرنكاً لأحد الأمريكيين.

Bovarisme[٩]: حينما قام نقاد الأدب والمؤرخون بربط الخبر الصحفي عن بلدة راي برواية فلوبير، تنكر الخطيب لخطيبته، حفيدة دلفين دولامار. فتوفيت المسكينة في عام ١٩٤١ وهي عانس.

أما موظف الكاتب بالعدل، نارسيس بوليه، الذي شغلته قضية مكانته، فقد اشترى مكتباً في محافظة الواز، وتوارى في عام ١٩٠٥ وهو في حال من الغنى والاحترام. هل عرف فقط أنه في رواية فلوبير، كان اسمه ليون دوبوي؟ أما العاشق الأول، لوي كامبيون، فقد انتهى نهاية أشد مأساوية. بعد أن تحول إلى نصف مفلس، رحل إلى أمريكا. لكن هذا الغاوي كان ينتقل من خيبة لأخرى ثم عاد إلى البلاد. في عام ١٨٥٢، صرعه أحدهم بإطلاق رصاصة عليه عند تقاطع شارع درووو مع بولفار مونمارتر في باريس.

اختارت دلفين دولامار الموت وهي في السابعة والعشرين من عمرها. وستخرج إيما بوفاري من مقام البررة عما قريب. ولادة عسيرة. فلوبير لا يولد إلا في الألم. لقد تصارع الكاتب مع الكلمات، والمشاعر والموت. شخوصه يعيشون فيه، يغمرونه ويتطفلون عليه. شيئاً فشيئاً يذوب وجه دلفين الجميل. وقسمات خليلته، لويز كوليه، تحل محل سمات زوجة موظف الصحة دولامار. ليس السمات فقط، إنما طبع لويز أيضاً، تلك "الهوجاء المصنوعة من المرمر الساخن" كما يقول الشاعر موسيه. ولكي يتخلص غوستاف فلوبير من النقاد صرح قائلاً: "مدام بوفاري هي أنا". لكن مدام بوفاري هي لويز أيضاً...

كان غوستاف قد درس القانون بدون حماسة بهدف إرضاء والده، ثم قرر التفرغ للفن. في الخامسة والعشرين من عمره، عاش منزوياً في بيت كرواسيه، ويوماً بعد يوم، ومساء إثر مساء كان يسّود الصفحات. أصبح غضوباً واخشوشن طبعه، فنصحه صديقه النحات برادييه بأن يتخذ لنفسه خليلة!

---

(٩) هو عدم الرضى الرومانتيكي الذي يدفع صاحبه إلى طلب التفلّت من وضعه بتقمص شخصية مؤمثلة. واللفظة مأخوذة من مدام بوفاري بطلة رواية فلوبير (التي نتحدث عنها) - عن قاموس المنهل.

لكن أين يجد خليلة في كرواسيه؟. ربما يجدها في باريس... ومع هذا فقد أبدى فلوبير حذره، لاسيما وأنه لم يكن خبيراً في مجال الحب. كان بوفارياً دون أن يدري، إذ كان يحلم بامتلاك العشرات من النساء وأن يسبح في محيط من الحب. لكن خليلة!، مخلوقة تتطاول على عمله ككاتب، وتحوله إلى رجل كسائر الرجال!. لم يكن فلوبير راغباً في أن يصبح كغيره. لا، ليس هو من يفعل ذلك.

في تموز من عام ١٨٤٦ توفيت كارولين، أخته العزيزة وشريكته، و" جرذه العتيق" كما كان يسميها. لم يستطع غوستاف تحمل جنون الألم فسافر إلى باريس حيث صديقه براديبه. أراد أن يطلب من صديقه أن ينحت تمثالاً نصفياً لكارولين. جاءت امرأة لتتوضع أمام النحات في محترفه: شقراء طويلة، ذات عينين زرقاوين متناسبة الاكتناز. كان ثوبها المقوّر يفصح عن روعة عنق وردفين وذراعين. سرعان ما خطر ببال فلوبير أنها واحدة من لوحات روبانس. قام براديبه بتقديم أحدهما للآخر: هذا الجمال، اسمه لويز كوليه. لم يستطع الكاتب إلا أن يعرفها من خلال شهرتها. فقد كانت واحدة من الشهيرات إلى حد ما. بفضل قصائدها، وكونت لها اسماً في باريس عبر شعرها ومنشوراتها الأخرى. حينما قدم براديبه غوستاف لها قال مداعباً:

"هذا شاب لابد وأنك قادرة على أن تقدمي له بعض النصائح الأدبية المفيدة!"

نصائح، أكيد. لكن في تلك اللحظة لم يخطر الأدب على بال غوستاف. لقد بهرته لويز بكمال شكلها وبريق عينيها. لويز هي المرأة التي لم يملكها من قبل قط!

الشاعرة التي كانت تعترف بخمسة وثلاثين عاماً من العمر، كان لها في الحقيقة منه ستة وثلاثون. ولدت في مدينة إكسان بروفانس لأحد مدراء البريد. عاشت روعة الطفولة ودلال الشباب. سرعان ما ظهر ميولها نحو الشعر، لكنها عاشت اليتم مبكراً، فقررت الهرب من دائرة معجبيها الصغيرة في إكس ووضع حد لها، فاختارت لنفسها زوجاً اسمه هيبوليت كوليه. كان

موسيقياً حصل على جائزة روما، ذا طبع هادئ ومجامل وصبور على المحن. إنه الزوج المثالي. ولأنه كذلك فقد عين أستاذاً للناي في كونسرفاتوار باريس. وحققت لويز ذلك الحلم الذي عجزت دلفين دولامار عن تحقيقه: إنه الصعود إلى باريس، كما كان يقال في الأرياف. فوق هذا، يا للتشابه بين هاتين المرأتين! الحماسة نفسها، المزاج نفسه والزواج نفسه: أي الزواج ـ الذريعة، الحجة من أجل تحقيق الطموح. مكانة دلفين الاجتماعية وشهرة لويز. لا هذه ولا تلك تعير الزوج أهمية كبرى. بعد أن يقوم الزوج بدوره المبالغ في المجاملة، والمفضوح التواضع، سرعان ما يتحول إلى مثار للسخرية والخيانة.

كانت لويز تنشر الشعر والنثر وتترجم، فحققت نجاحات متباينة. ومع هذا فإن ديوانها، أزهار الجنوب Fleurs du Midi لم يحقق لها سوى شهرة متواضعة في عام ١٨٣٦ . لكنها كانت تبحث عن شهرة كبيرة. ترى، هل سمحت لها حماية الفيلسوف فيكتور كوزان، الذي سيصبح وزيراً، بانتزاع اعتراف أقرانه بها؟. بفضل هذا الرجل الذي أصبح عشيقاً لها ـ يشك في أنه والد ابنتها هنرييت ـ ، واستمرت بجعله يعتقد ذلك ـ كانت لويز تلتقط بعض الجوائز الأدبية هنا وهناك. لكنها بقيت بعيدة عن الأكاديمية الفرنسية (LaCoupole)!

كان الجو حاراً في محترف النحّات براديه خلال شهر تموز من عام ١٨٤٦ ، بينما لويز تكشف عن جسدها وتعرض جمالها وتتغنج أمام فلوبير المفتون بها . إنها الحرارة أليس كذلك؟ هذه الحرارة التي تورد وجنتيك، وتوهنك وتغرقك في أحلام لايعلم بها إلا الله. أخيراً، حينما يشاء الخجل أن نفارق بعضنا، اقترح فلوبير أن يقوم بزيارتها ذات مساء قريب في بيتها الواقع في شارع فونتين سان جورج.

للمرة الثانية في حياته، يقع فلوبير في الحب. لا، لايمكن أن تنسيه لويز، إليزا شبابه المتلاشية. لكن شعوراً لديه يقول إن الشاعرة ستذيقه طعم أكبر ملذات الأرض. أوليست هي الخليلة المثالية التي نصحه براديه باتخاذها؟.

فهي تسكن باريس وتعيش في الريف. وبالتالي سيراها وفق رغبته دون أن تنغص عليه عمله ككاتب. أضف إلى أنها متزوجة. إذا وافقت ستكون حتماً الخليلة المثالية!

ها هو المساء الذي طال انتظاره. ويشاء القدر أن يكون السيد كوليه في المدينة لتناول العشاء. لم يتسع الوقت أبداً لغوستاف كي يعبر عن دهشته. في منتصف صالونها المفروش بالحرير الأزرق، وقماش الموصل الشفاف الأبيض، بدت له لويز جوهرة في علبتها. كانت النوافذ مفتوحة والليل دافئاً، والمصباح المرمري المعلق في السقف يرسل ضوءاً نسائياً خفيفاً. تحدثا في الأدب وعثرا على مشترك بينهما في الذوق. مالت لويز نحو غوستاف، ولامس ذراعها العاري يده، وجدائلهااللولبية تناوش وجنتيه. احمر الشاب، لكنه لم يتهرب حينما قربت لويز، فجأة وبشكل طبيعي شفتيها منه.

لكن لويز لم تسلم نفسها في ذلك المساء، واتفق على موعد جديد.

في ٣٠ تموز تحتفل باريس بأيام عام ١٨٣٠[١٠]. احتفالات في الأسواق، وفرق موسيقية وحانات شعبية تحت أوراق الأشجار وألعاب نارية. انخرط غوستاف ولويز بين الحشود. لم يسبق أن كانا لوحدهما أبداً كما هما عليه اليوم على الرغم من الحشود المنشرحة حولهما. وقريباً سيصبحان عاشقين تحت المصباح المرمري في شارع فونتين - سان جورج. ومرة أخرى تفضل ذلك الطيب هيبوليت بالتغيب. وتتابعت ليال أخرى نادرة جداً. لكن على غوستاف أن يعود إلى كرواسيه حيث ينتظره عمله. عمله وأمه التي جاءت لتعيش تحت سقفه منذ ترملها. أمه... كم من مرة تذرع بالواجبات التي تفرضها عليه، والعطف الذي تستحقه لكي لايغادر كرواسيه أبداً؟ لقد كانت متطلبة كزوجة، كما يزعم الكاتب، لاتريده أن يهجر غرفة عمله لزمن طويل.

لكن الأمور لم تصل بعد إلى هذا الحد. غوستاف الذي عاش محبطاً لفترة طويلة، ولويز التي لاتطلب سوى تسليم نفسها، كانا يحبان بعضهما حتى

(١٠) الأيام الثلاثة المجيدة التي انتهت بسقوط الملك شارل العشر ومجيء لوي - فيليب.

الهيجان. بعد أيام على عودته إلى كرواسيه، كتب فلوبير رسالة إلى لويز، جاء فيها: "أعانقك، أقبلك، لقد جننت. لو كنت معي لعضضتك. بي رغبة لذلك، أنا الذي تسخر النساء من بروده، ويقال إنه غير قادر على الحب لقلة ما مارسته. نعم، أحس الآن بأني أملك شهوة حيوان بري، وغرائز حب لاحم وممزِّق.. "

إنهما يحبان بعضهما. جرعات كبيرة من الحب تجعل فرائصهما ترتعد. كل منهما، اكتشف عنف الهيام واضطرام الجسد. يعترف غوستاف بقوله: "طالما منعتني بشاعة الحب من الاستسلام إليه.. " أما لويز فتعترف أنها لم تكف عن إنشاد الحب في قصائدها، لكنها لم تشعر أبداً بمثل هذه الانفعالات. لكن الكاتبين جبلا على أن يجلسا إلى طاولة العمل حينما يفترق جسداهما.. حينما يكونا بعيدين عن بعضهما يكتبان هيامهما، ويشيدان به. كانا يتراسلان يومياً. فتحل الكلمات محل الأفعال. وصارت لويز تتحدث بنبرة مراهقة مدلهة، فتعهد إلى عشيقها بكنوزها (خف ومنديل و خصلة من شعرها)، بينما غوستاف الذي مازال تحت سيطرة النشوة فيترك العنان لنفسه: "الوداع ياروحي الحبيبة. نزلت لتوي إلى الحديقة، وقطفت لك من سياج الورود هذه الوردة التي أرسلها إليك. أضع فوقها قبلة، فضعيها فوراً فوق ثغرك، ثم أترك لك أن تحزري أين... "

لكن غوستاف سرعان ما يتماسك. هذا الهيجان يرعبه بمقدار ما ينهض به. بعد يومين فقط من مغادرته لويز، حذر خليلته وكشف عن نفسه: "منذ أن قلنا أننا نحب بعضنا، تتساءلين عن مصدر تحفظي "دائماً" لماذا؟ذلك أني أستشرف المستقبل. لأن النقيض ينتصب أمام عيني باستمرار. لم أر في حياتي طفلاً لايفكر بمآله إلى الشيخوخة، ولا بمولود لا مآل له سوى القبر. إن تأمّل امرأة عارية يجعلني أحلم بهيكلها العظميّ، وهو ما يجعلني أحزن لمشاهد الفرح وقلما أتأثر بمشاهد الحزن". ويضيف فلوبير بوضوح مقرون بالتشاؤم: "القراءة تحرك مشاعري أكثر مما تحركها التعاسة الحقيقية".

هنا يكمن كل شيء. فلوبير يحمي نفسه. لكن لويز لاتسمع شيئاً. أما ولم تعد تبالي بالماضي، فقد شغفت بحبها الجديد. أما هيبوليت، مثله مثل أوجين، فقد تلاشى في احتقارها له. ونسيت حتى فيكتور كوزان الذي لم يكتف برعايتها فحسب بل كان يوفر لها كل ماتحتاجه، ولم يبق في بالها سوى غوستاف فقط. تريده، وتطلب إليه أن يهجر صومعته في كرواسيه. كانت رسائلها أحياناً مبللة بالدموع. فلوبير يقاوم ويخترع ألف ذريعة لتأخير سفره المقبل إلى باريس.. وبين دمعتين أطلقت لويز سهماً: "أنت إذاً محروس كالفتاة!". في نهاية المطاف اتفقا على موعد في مدينة مانت الواقعة في منتصف المسافة بين كرواسيه وباريس. وبما أن غوستاف كان يعرف تماماً مواعيد القطارات فقد برمج كل شيء: "ستنطلقين من باريس الساعة التاسعة صباحاً، وستصلين إلى مانت في الساعة العاشرة وخمسين دقيقة، أما أنا فسأصلها عند الساعة الحادية عشرة وتسع عشرة دقيقة.. وسنمضي مع بعضنا خمس ساعات بكاملها. خمس ساعات من الحب في غرفة من فنادق مانت العادية. لكنها مدة قصيرة جداً بالنسبة للويز، حتى لو قبلت هذا الفتات. لكنها سارعت إلى شراء بطاقة القطار.

سيشهد فندق الوعل الكبير في مانت لاحقاً ساعات حارة أخرى ثم تصنع غوستاف الهرب من غضب أمه فتذرع بالقيام برحلة قصيرة إلى باريس. وأصبحت"ربة الفن" كما كان يسميها، تبكي من الآن فصاعداً قبل أن يهم بمغادرتها. وما أن تعود لويز إلى بيتها والرعشة تسكنها والحب يرهقها حتى تكتب إلى عشيقها الذي تقارن حماسته الشبقية بحماسة " ثور غير مروض من ثيران الصحراء الأمريكية"! وكان غوستاف يبتسم. لم هذا اللطف المتكلف كله؟أيمكن أن تكون الشاعرة مجرد قارضة شعر رديء ؟

لويز التي مازالت في حمأة الغرام، حينما لاتستطيع تسليم جسدها مثلما كانت تشتهي غالباً، كانت تعوض ذلك عبر إرسال الهدايا إلى ناسك كرواسيه. لاسيما تلك الحلية التي ورثتها عن أمها ورصعتها في مبسم سجائر. كتب على

هذه الحلية عبارة إيطالية Amor del Cor "حبيب القلب".

رسالة إثر رسالة - واحدة كل يوم - كانت تطلب لويز فيها من عشيقها موافاتها إلى باريس. وكان غوستاف يرد عليها ناصحاً إياها أن تكرس وقتها للكتابة قبل أي شيء آخر ويقول لها إن الفن وحده أفضل شيء في الحياة، لايضاهيه أي حب بشري، حتى لوكان أكثرها شهوانية. وحينما تعترض "ربة الفن" مرة أخرى، يرد عليها: "ما أغرب سلوكك من فتاة ألا يعرف المرء أبداً ماذا يقول لك أويظن بك. رسائلك تضحك في جانب منها وتبكي في الجانب الآخر. أرسلت إلي أيضاً هذا الصباح أشياء قاسية مقبولة. تريدين مني أن آلفها. لقد أصبحت غذائي اليومي. لكن ماذا لو انتهى الأمر بي إلى الاعتياد عليها! إن كثرة الضرب على المكان نفسه يؤدي إلى الجرح ثم انبجاس الدم وبعده التيبس! لذا أستحلفك بالله أو باسمي، بما أنك تحبينني، أن تحدثيني عن شيء آخر غير حديثك عن دعوتي إلى باريس. يبدو أنك مصممة على تعذيبي بهذه اللازمة."

بعد الرياح العنيفة، بدأت العاصفة تنذر بالهبوب. حتماً هذه المرأة لاتطاق. هل تريد التصرف باستقلاليته العزيزة على قلبه وتغتصب حياته؟ ربما يذهب بها الأمر حد الذهاب إليه في كرواسيه؟ غير ممكن. لابد من وضع حواجز. ويفسر فلوبير ذلك بصراحة: على لويز أن تحترم أصالتها وتقبل أن تحبه كما يريد. وإذا كان يستخدم معها هذه اللغة القاسية فذلك لأنها ذكية. لو كانت شابةلامبالية، أو غبية لتصرف معها بشكل آخر. إذ يكفيه إغداق المديح عليها وغمرها بالاحتجاجات الغرامية..

لكن لويز لم تشأ فهم هذه الفظاظة الصريحة. فتثور. الحب لايتجزأ. إنه مطلق، تملّك وهيمنة، إنه جسد وروح متلازمين. وبعيداً عن اللطافة يرد عليها فلوبير: "بالنسبة لي، الحب ليس أهم شيء في الحياة. إنك تجعلين منه طبلاً تدوزني خطا حياتك على وقع ضرباته. لا، لا، ألف مرة لا."

هل انتهى كل شيء؟ لاشك في هذا. لكن لويز لم تفهم هذا الرفض

الجاف الأخير. تصرخ، تحتج، تشتم. وبعد أن ضاق فلوبير بهذا الصخب قرر الهرب. فتوجه إلى مصر بصحبة صديقه ماكسيم ديكام. أخيراً سيتمكن البحر الأبيض المتوسط من الفصل بين العاشقين الفظيعين. فلوبير نسي أن يخبر لويز كوليه برحيله، وكان هذا بالنسبة لها غاية الإهانة..

وداعاً أيتها العواصف!. طيلة سنتين طويلتين وبتكليف رسمي من الحكومة طاف فلوبير بلاداً زارها في أحلامه: مصر ثم فلسطين ولبنان واليونان وأخيراً إيطاليا. الراقصات المصريات (العوالم) والهنديات والحوريات وغيرهن من المحظيات سحرن قلبه وجسده (وكن يتركن له أحياناً بعض الذكريات الصغيرة). في القدس كان الكاتب ينذهل أمام "الأكفال التوراتية" للفلسطينيات. رسائله المدهشة والجسورة التي كان يرسلها إلى أصدقائه لم تتضمن أية إشارة إلى "ربة الفن". لكن لويز، من ناحيتها، لم تنس. ومع أنها كانت تعزي نفسها بين ذراعي أحد البولونيين، الذي رزقت منه بمولود لم يعش طويلاً، إلا أنها حينما علمت بعودة غوستاف القريبة كتبت إليه رسالة وهو في إيطاليا. تقول فيها إنها تريد رؤيته لدى مروره في باريس، للمرة الأخيرة: "لاتجب على رسالتي، إذ لو كان جوابك طرياً قد يهزني من الأعماق ويذكرني بما لايجب أن يكون اليوم؛ وإذا كان مختصراً وبارداً(...)فإنه سيضاعف من أحزاني. إني أرغب في هذه المقابلة الأخيرة، الأخيرة في الحياة؛ فلاترفضها. وسترى كيف ستكون ناعمة وهادئة وأنها ستبعث الارتياح في نفسك أيضاً. (...) إنك تعدني، أليس كذلك؟ سأنتظرك متيقنة من حضورك. ستأتي دون أن تستشير أحداً، ودون أن تتحدث عن هذا اللقاء لأحد، لكي تستمع إلى صوت صديقة لن تراها بعدها أبداً، ودون أن يصدر عني أي شيء من شأنه إزعاجك. طالما بقي قلبي خفاقاً سيظل متعلقاً بك. لن أحدثك بشيء عن حياتي ولا عن أحزاني. إنه الفكر الذي يكتب إليك وليس الكائن. افهمني."

لم يرد فلوبير، وتمترس في كرواسيه. لكنه نسي تهور لويز. فقد تشبثت برأيها وضايقته. وعاد التراسل بين العاشقين. وحينما قدم الكاتب إلى باريس

قام بزيارتها . كان هيبوليت قد مات. وبقيت أرملته مثقلة بالديون وتحلم الآن بالزواج. وهذا يعني أنها لاتعرف فلوبير جيداً، فهو ينفر من الزواج. ثم إنه لم يعد يفكر إلا بروايته/تلك السيدة بوفاري، التي كانت تنمو في داخله وتستبد به لتنتزع منه ألف ميت. إيما! في رسائله إلى لويز كان يتحدث عنها وكأنها من لحم ودم. إنه أمر مضجر.

كان على لويز أن تكتفي بتلك الزيارات النادرة، لاسيما وقد أصبح فلوبير يعدها صديقة قديمة وليس عشيقة. كانت تستشيط غيظاً لاسيما وأنها لاتستطيع الدخول إلى ذلك الملجأ الذي لم يخترق حرمته أحد في كرواسيه، هناك حيث يقوم الكاتب بطبخ رائعته على نار هادئة، وهو ما كان يثير فضول الشاعرة. هل ياترى يمكن أن تكون إيما الغامضة قد أخذت بعضاً من سماتها؟ وراحت لويز تزيد من علاقاتها التي لم تكن تخفيها عن فلوبير أبداً: الشاعر موسيه Musset، شامفلوري Champfleury وحتى بوييه Bouilhet أقرب أصدقاء فلوبير، كلهم وقعوا في شراكها . فهل كانت تقصد إثارة غيظه؟ لاشك في ذلك. لكن الكاتب لم يكن يبالي، ولم يعد يهتم إلا بالعمل على روايته.

في عام ١٨٥٤ ، أي بعد مرور ثلاثة أعوام على عودت فلوبير من مصر، لم يعد يحتمل مبالغات لويز نهائياً، فقرر الانقطاع عن زيارتها، وروى آخر مشهد من زيارته لها : "ذات مساء وصلت إلى بيتها عند الساعة التاسعة والربع ليلاً: كانت تنتظرني، عند الساعة التاسعة. جلست قبالتها فوق الموقد . قالت: هل جئت من لاباريير (أحد أبواب باريس حيث المومسات)؛ إنك تفضل تلك النساء عليّ" . اعتذرت بكل لباقة عن تأخري غير المقصود . لكنها لم ترد سماع أي شيء. وجهت إلي ركبتي بعض الركلات وهي جالسة في مقعدها . لم أعد قادراً على الاحتمال، فقست بنظري المسافة التي تفصلني عن قطعة حطب كانت قريبة من متناول يدي، أردت رميها نحو صدغها : كان يمكن أن أقتلها ، لكني سرعان ما استحضرت في ذهني محكمة الجنايات و"رأيت" رجال الدرك والقاضي والناس وأنا فوق كرسي المتهم. نهضت وهربت. ولم أعد إليها منذ

تلك اللحظة". لكن لويز لم تتوقف عن مطاردة هذا الذي تركها، دون جدوى. وعلى الرغم من عشاقها والنقد اللاذع الذي كانت توجهه إليه في قصائدها، فإن "ربة الفن" المهانة لم تكف عن التفكير بغوستاف. لكن الآتي أعظم. في الأول من تشرين الأول عام ١٨٥٦ بدأت مجلة باريس، التي يرأس تحريرها ماكسيم ديكامب بنشر رواية مدام بوفاري. انقضت لويز على هذا العدد من المجلة. كانت الغيرة في تلهفها. تريد أن تعرف أخيراً تلك التي سرقت غوستافها. هذه المخلوقة الخيالية التي تمت التضحية بها من أجلها. في بداية الأمر بدت لها عادية، تلك الصغيرة إيما. صحيح أن هناك بعض التشابه بينها وبين تلك الشابة الإكسوازية)[11] التي كانت تحلم بـ"الصعود" إلى باريس. الاندفاعات نفسها، والانفعالات نفسها. لكن لا أهمية لذلك. لويز، خلافاً لتلك المرأة الريفيةالوقحة، نجحت في حياتها كأديبة!

عدد بعد عدد، كانت "ربة الفن" تتمحص وتحلل وتلتهم الصفحات. لم تستطع إلا أن تذهل من ذلك التشابه بين الدكتور بوفاري وبين زوجها من حيث التواضع وفقدان الطموح والمجاملة نفسها.. بل ظنت أنها قد عثرت في الحوارات بين رودولف وإيما صدى لمحادثاتها الماضية مع غوستاف، خلال الفترة التي كان مايزال فيها حبهما مشتعلاً. ومع استمرار القراءة، تعرفت على نفسها" كزوجة زانية. وعلى لويز أن تعترف بأنها عاشت نفس المشاعر والانفعالات التي عاشتها إيما. تشوشت صورة بطلة فلوبير. إنها هي، لويز، التي رسمها. حتى في عذابات الفراق. هي التي أخذ جملها ومزاجها، أي حياتها.

حلمت مثل إيما بالهروب مع عشيقها، ومثلها تألمت من شفقة فلوبير. وأثناء قراءتها لرواية (مدام بوفاري)، انقضت على رسائل غوستاف. وهنا تتعرف على رودولف:" نعم، أود لو أنك ماعرفتيني أبداً..". ما من شك في قسوة هذا الأمر. وهذه الضربة الأخيرة التي يوجهها الكاتب إليها حينما ينهي

---

(١١) نسبة إلى مدينة إكسان بروفانس حيث نشأت لويز كما مر معنا. (م)

رودولف رسالته حول قطع العلاقة ثم وهو يسعى إلى ختم الرسالة، فإن خاتم حبيب القلب قد وجد نفسه

هذا لايناسب أبداً الظرف.. آه! لايهم

بعد ذلك دخن ثلاثة غلايين ثم ذهب إلى النوم. "

حبيب القلب، كيف تجرأ؟. هذه الكتابة نفسها التي كانت منقوشة على مبسم السجائر الذي قدمته له. لم هذا العنف كله؟ لم يكن غوستاف مسروراً لأنه سخر منها، فسرق وجودها، لم يكن يحبها. لقد جعل منها كتاباً!

الغريب أن لويز كوليه لم تطالب أبداً بشرف أن تكون مصدر إلهام لعمل ضخم كهذا. لكن، هل كانت تستطيع المطالبة؟ يرى نقاد الأدب ومؤرخوه أن حياة إيما بوفاري مدينة لحياة تلك المسكينة دلفين دولامار. لقد منعت الحشمة "ربة الفن" من أن تنافس مخلوقة لاقيمة لها.

توفيت لويز في عام ١٨٦٧. ويقال أن غوستاف فلوبير شعر بحزن كبير على فراقها. لاشك أنه نسي العواصف ولم يحتفظ إلا بذكرى الأوهام الغرامية التي عاشها مع الشاعرة.

❁ ❁

فيدوك: سجين أصيل وشرطي حقيقي
بلزاك ورواية (فوتران)

سرعان ما تفرض شخصية فوتران، في رواية بلزلك، نفسها على القارئ: فهي قوية، ماكيافللية وغامضة[شريرة]. إنها تجسيد لقوة من قوى الطبيعة التي تعيش بعدة هويات؛ قادرة على التخفي ببراعة لانظير لها و تجد نفسها في أدنى درجات اللصوصية مثلما تعيش في أغنى المجتمعات. حينما تصور هونوريه دو بلزاك شخصية فوتران، التي نراها في عدة روايات من سلسلة الكوميديا الإنسانية، فقد أراد أن يخترع بطلاً أسطورياً، وجهاً جديداً نجد بعض ملامحه لدى أبطال روائيين آخرين: فشخصية فوتران التي سبقت شخصية جان فالجان، يعلن عن ولادة روكامبوب وأرسين لبان وشيري بيبي وفانتوماس. بل يهيء لشخصيات أحدث مثل هوراس غروندان المفتش والسجين السابق الذي تفتق عنه خيال الروائي جان فوتران [اسمه الحقيقي جان هيرمان [مؤلف صرخة الشعب، منشورات غراسيه]. قلت فوتران؟ كم هذا غريب!

في أعمال بلزاك، يظهر فوتران للمرة الأولى على شكل شخصية وديعة تعيش من دخلها. استأجر غرفة في الحي اللاتيني في نزل فوكيه حيث يسكن أيضاً شاب طموح (راستينياك) والأب غوريو ذلك التاجر الغني المتقاعد الذي ضحى بكل شيء من أجل سعادة ابنتيه. نحن في عام ١٨١٩ . فوتران الأربعيني كان ذا خصائص جسمانية مثيرة: وجه بدا وكأنه قد تكون على عجل، ونظرة جذابة، وشعر أصهب حاد وصدر شعور يخفي قوة عملاقة. لكن هذه القوة الحيوانية لم تكن تعلق في أذهان الناس: ففوتران رجل بشوش يحظى بثقة

مطلقة من قبل سيدة المنزل. بل هو المستأجر الوحيد الذي أعطته السيدة الطيبة مفتاحاً للأبواب كلها.

لكن الأذكياء أدركوا أن هذه الشخصية تخفي سراً رهيباً. ترى ما هي تلك الأشغال التي تضطره غالباً إلى الخروج ليلاً؟. ولم يملك هذا الرجل الهادئ مسدسين استعرضهما ذات يوم أمام الشاب راستينياك؟ فضلاً عن هذا، لم اقترح على هذا الشاب استبعاد أحد المزعجين بمبارزة بالشيش خدمة له؟

الحقيقة ـ أو في جزء منها على الأقل ـ اتضحت يوم داهمت الشرطة نزل فوكيه. وتبين أن هذا الرجل المحترم ليس سوى ترومب لامور الرهيب، السجين الهارب، واسمه الحقيقي هو جاك كولان.

كما عرف أيضاً أن المغتصب ليس جانحاً عادياً: لأنه لايعرف الجشع. فهو إن خرق القوانين، فذلك لأنه عدو لأي شكل من أشكال العدالة، وإن قتل فذلك لأن المتمرد الذي يعيش في داخله هو الذي يمسك بيده لهذا الخارج على القانون يخوض قبل أي شيء حرباً على المجتمع.

استطاع فوتران مرة أخرى الهرب من السجن، وتخفى بزي رجل دين هو الخوري كارلوس هيريرا بعد أن قتله وانتحل اسمه. وعلى طريق أنغولام التقى شاباً جذاباً هو لوسيان دو رابيمبيريه، كان يسعى إلى وضع حد لحياته. لكن الخوري المزعوم استطاع نهيه عن مشروعه وجعل منه معشوقاً له. ومن خلال محميه استطاع فوتران أن يطلق العنان لقوته، لكن ريبمبريه كان ضعيفاً خرعاً، انتهت حياته بالانتحار بعد أن خان ظهيره.

كان انتحار الشاب سبباً في تحديد مصير فوتران. حيث تخلى عن رهبنته وأقنعته، كما أقلع نهائياً عن ارتكاب الجرائم وأصبح رئيساً لجهاز الأمن بعد أن اعتاد قيود المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. لاشك أن هذه الشخصية تخفي خلفها شخصية فيدوك. ومع هذا فإن بلزاك الذي عرف شخصياً هذا الشرطي والسجين السابق، لم يؤكد هذه الصلة. لكن ألم يفصح عن هذه الصلة حينما أطلق اسم فوتران على شخصيته؟ لاسيما وأن هذا هو اللقب

الذي أطلق على طفل مشاكس هو فرانسوا فيدوك؟

لهذا اللقب، فوتران قصته: هو الاسم الذي يطلق على الخنزير البري في شمال فرنسا[١٢] حيث عاش الشاب فيدوك طفولته. كان فرانسوا قوياً كالخنزير البري وفظاً عنيفاً مثله. ولد في عام ١٧٧٥ في أراس قريباً من جرس الكنيسة من عائلة تعمل في الخبازة. الأم تخصصت في بيع الخبز والأب في تصنيعه. أما الابن فقد كان يعيش حياة ماجنة. ترى هل مرد ذلك أنه ولد ذات ليلة عاصفة وأن القابلة التي أخرجته إلى الحياة قد توقعت له حياة صاخبة؟

في الخامسة عشرة من عمره، أصبح جسورا يبحث لنفسه عن مكانة في المجتمع، حتى لو كان الضرب سبيلاً لذلك. كان فخوراً بقوته الجسدية ويتردد باستمرار على صالات الأسلحة وسرعان ماذاعت شهرته كمبارز لايشق له غبار. أما عيناه الزرقاوان، فقد سحرتا أكثر الشابات في أراس! لكي يكون مقبولاً في النوادي الليلية والخمارات، لابد له من النقود لفوجد ضالته في صندوق مخبز الوالدين، إلى أن اكتشف الأب ذات يوم من يقوم بتلك الاختلاسات المتكررة. كان التفسير حاداً والعقاب فريداً: حيث تم إرسال فرانسوا إلى سجن بوديه لمدة عشرة أيام. وكان ذلك أول عهده بالسجن ولن يكون الأخير. بينما كانت عاصفة الثورة تزمجر فوق فرنسا وفي أراس بلد المواطن روبسبيير، وما أن خرج الولد من الحجز حتى عاد إلى ما كان عليه.

تورط مع شخص سيء يسمى بوايان، ابن رقيب في شرطة المدينة. ذات مساء قاما، بتواطؤ مع شخص سيء ثالث بترتيب أمر إبعاد خبازة الدكان العائلي ووضعوا أيديهم على كل ما كان الصندوق يحويه من نقود. بعد تقاسم الغنيمة اتخذ فرانسوا طريق مدينة ليل، حالماً بآفاق كبيرة وبفضاءات لم تحط عليها قدم إنسان. ولم لاتكون أمريكا؟. انتقل من مدينة دنكرك إلى كاليه بحثاً عن مركب متجه إلى العالم الجديد. لكن محاولاته باءت بالفشل. فانطلق نحو

---

(١٢) Vautre أو vautrait كلمة تعود إلى اللغة الفرنسية القديمة تدل على كلب الصيد الذي يستخدم لصيد الخنزير البري. والفعل يعني: اصطاد بمساعدة كلب السيد.

أوستاند. وهناك تعرف على رفيق وثق به وتناول الشراب معه حتى السكر. عند الفجر استيقظ فرانسوا ليجد نفسه في منتصف الميناء فوق ربطة حبال، وقد سرق منه قسم من ملابسه، والنقود التي سرقها من صندوق والديه اختفت أيضاً بطبيعة الحال.

هنا بدأت حياة الضياع والمغامرات. انضم الولد إلى مجموعة من العارضين الجوالين. تدثر بجلد نمر ولعب دور "متوحش البحار الجنوبية" وهو دورسهل لكنه لم يدم أبداً: فقد تشاجر مع رب عمله لأنه رفض أن يأكل اللحم النيء ويتصنع كسر الحجارة بأسنانه، وتبادل معه اللكمات ثم أعاد إليه جلد النمر.

لكن سرعان ما وجد فرانسوا عملاً في فرقة مسرح عرائس جوال، وكان يقوم بكل ما يطلب إليه لاسيما إغراء زوجة المدير. ذات مساء فاجأ المدير زوجته وعشيقها وهما يمارسان الجنس أثناء أحد العروض. مشاجرة جديدة، فقد فيدوك على أثرها عمله وعاد المتشرد إلى الطرقات. التقى بمشعوذين آخرين أصبح تارة مساعداً لهم وطوراً باروناً عليهم. لكن التعب أخذ منه مأخذاً فعاد إلى أراس بعد عام على هروبه يستجدي إحدى عماته لتطلب له الصفح من أمه. وبعد أن أعلن فرانسوا توبته ارتمى عند قدمي والديه.

في آذار من عام ١٧٩١ ـ حيث لم يبلغ فيدوك السابعة عشرة من عمره ـ تطوع الشاب في الفرقة الملكية التي كانت تتخذ من مسقط رأسه موقعاً لها. فضاعف فيها المبارزات وكل ما من شأنه إثارة الانتباه. في فالمي (حيث رقي إلى رتبة عريف) وبعدها في مدينة جيماب كان يقاتل ببسالة. لكن ما أن ينتهي القتال، فإنه سرعان ما يترك العنان لمزاجه المقاتل: كان يستفز الآخرين للمبارزة بسبب امرأة، أو تهكم أو بلا سبب، وكان ينتصر دائماً تاركاً خصومه في المشافي أو في المقابر.

طرد من الجيش، وعاد إلى أراس في عام١٧٩٤ ، لكن قضية غرامية انتهت نهاية صعبة أودت به مرة أخرى إلى السجن. كان الوضع خطيراً: كان الرعب

في أوجه في تلك المرحلة. أشار الحاكم المحلي بإعدام فيدوك لاسيما وأن سمعته السيئة لايمكنها تليين موقف الحاكم. لكن العناية الإلهية كانت إلى جانب هذا الوغد، واتخذت شكل شابة ليست جميلة جداً لكنها كانت مغرمة به هي آن ـ ماري ابنة أحد يعاقبة مدينة أراس النافذين وضعت أمامه صفقة: إما أن يتزوجها أو يذهب إلى المقصلة، فلم يتردد فيدوك كثيراً فوافق على الزواج منها، لكن ما أن تم الزفاف حتى اتخذ طريق الهرب مجدداً.

عاد فرانسوا إلى الخدمة العسكرية لكنه هرب منها وراح يجمع المغامرة العاطفية إثر الأخرى. وبما أنه منفي فقد سافر باسم مزور هو روسو. تارة تراه قاطع طريق حقيقياً وطوراً كابتن فرقة خيالة مزوراً، واستفاد من الفوضى المتنامية ليضاعف أسفاره دون حسيب أو رقيب. لكن، ذات مساء، تم استدعاؤه من قبل درك بروكسل فاعتقل لعدم امتلاكه أوراقاً تثبت شخصيته. اقترح عليه أن يقتاد إلى مدينة ليل التي يدعي أنه من أهلها خلال الرحلة، وعند التوقف في إحدى الاستراحات تمكن فرانسوا من إيقاع حراسه في السكر الشديد. وخلال الليل حول أغطية الفراش إلى حبل استخدمه للهرب من الغرفة. وكانت تلك أول سلسلة مغامراته في الهرب وهو في التاسعة عشرة من عمره.

انضم الهارب إلى عصابة من الأشرار تعيث فساداً في شمال فرنسا وبلجيكا: كانت المجموعة الشريرة المسماة بـ" سائقي الليل" متخصصة بنهب مزارع المنطقة مستخدمة أبشع الوسائل من أجل الحصول على مدخرات الفلاحين. ترى هل فقد هذا الشاب أي حس أخلاقي؟ في مذكراته، يزعم أنه كان ضحية القدر. ولاحقته قوى الأمن بسبب سذاجته، وحكم عليه بالخروج على القانون.

في عام ١٧٩٥، وفي إحدى الحفلات الراقصة في مدينة ليل تعلق بفتاة خفيفة اسمها كارولين، وتعاهدا على الحب. لكن في اليوم التالي فاجأ فيدوك جميلته وهي تتناول العشاء مع أحد الضباط فغلى الدم في عروقه، وانقض

على الضابط وأوسعه ضرباً، فهب لطلب النجدة فسارع رجال الدرك إلى التدخل واعتقل الشاب. وهو الاعتقال الذي سيقرر مصيره.

حكم على فيدوك بالسجن لمدة ثلاثة أشهر لاستخدامه وسائل عنف وتم حجزه في برج سان بيير. وفيه حظي بإقامة مريحة نسبية باعتبار أنه يستطيع أن يستقبل فيه فرانسين (بعد أن سامحها) وبإمكانه الوصول إلى صالة المعتقل العامة. ولسوء حظه، احتك به ذات يوم اثنان من المعتقلين هما غروار وهيربو. طالبين منه مساعدتهما في إطلاق سراح حراث مسكين، يدعى بواتل، سرق عشرة ليرات تقريباً من أجل أن يكفي أود أطفاله الكثر. قام السجناء الثلاثة بتزوير أمر لإطلاق سراحه. وتم الإفراج عن الفلاح. لكن الخدعةاكتشفت. وبعد إعادة بواتل اعترف على من أحسن إليه. اقتنع فيدوك بأنه ارتكب خطأ. وهي جريمة عقوبتها الأشغال الشاقة. فلابد له إذاً من الهرب قبل الحكم عليه.

كانت فرانسين تحمل إليه، في كل زيارة، مختلف مكونات بزة مفتش السجون في كمها. في اليوم الذي حضر فيه مفتش حقيقي إلى السجن ارتدى فيدوك زيه الذي جهزه. وبينما كان الضابط يقوم بزيارة أحد أقسام السجن تمكن السجين من دفع الحراس إلى فتح أبواب السجن أمامه.

صحيح أنه الآن طليق، لكن الشرطة لم تكف عن البحث عنه، فلجأ الهارب إلى هولندا حيث انضم إلى عصابة من مهربي الكحول. بعد ثلاثة أشهر عاد إلى مدينة ليل بسبب شوقه إلى فرانسين. وفي أحد النوادي الليلية تم التعرف عليه واعتقل من جديد. لكنه تمكن من الهرب مرة أخرى. شهدت الشهور اللاحقة اعتقالاً يليه هروب وهكذا. بقي فيدوك جريئاً، وتزداد شعبيته بين نزلاء السجون الذين جعلوا منه بطلاً لهم. لم يكن أحد يضاهيه في التخفي والتصنع وإخفاء المبارد في شعره الكثيف أو في مكان ما من أعضائه التناسلية. ترى هل كان ملك الهروب؟ أكيد. لكن يحق لنا الشك في حقيقة بعض إنجازاته التي لانعرفها إلا كما رواها فيدوك في مذكراته.

في الثالث من العام الخامس (وفق التقويم الجمهوري) الموافق ٢٨ كانون الأول من عام ١٧٩٦ تم توقيفه من جديد. ومثل الجانح أمام محكمة مدينة دواي التي حكمت عليه بالأعمال الشاقة لمدة ثماني سنوات. بعد ثلاثة أشهر، اقتيد مع ثلاث عشرة من رفاقه إلى سجن بيستر بإشراف خمسة من رجال الدرك وعشرة جنود بانتظار تنفيذ الحكم بالأشغال الشاقة. كان كل سجينين منهم مصفدين بغلٍّ واحد ويحمل كل منهما قلة وزنها سبعة كيلو غرامات. لكن هذا لم يمنعهم من التمرد خلال مرورهم بغابة كومبيين. عندها أطلق الجنود عليهم النار فأردوا اثنين منهم قتلى.

في بيستر، حيث سيمضي ثلاثة أشهر طويلة قبل تحويله إلى مدينة بريست، كان ملك الهروب موضع حكم مسبق إيجابي. فقبل به أرستقراطيو الجريمة، حيث التقى هناك مختلف فئات القاتلين المحترفين، تعلم فيدوك منهم القراءة في روزنامة النشل. وهو ما سيتذكره لاحقاً.

حدد موعد الانتقال إلى معتقل بريست في ٢٠ كانون الأول ١٧٩٧. جمع المحكوم عليهم في ساحة الحديد بعد حلق رؤوسهم وعوارضهم وألبسوا الزي المكون من طاقية وقبعة حمراوين وبنطال أصفر غامق. بعدها صفدوا بالأغلال وربط كل اثنين إلى بعضهما البعض. وطوقت أعناقهم بأغلال وصلت بسلسلة حديدية. كان المسير إلى منطقة بروتانيا طويلاً ومرهقاً. في بون دو لوزن التي تشكل مستودعاً للمعتقل. قبل الوصول إلى بريست حاول فرانسوا الهرب، لكن عرقوبه انكسر بعد قفزه من أعلى الجدار وتم القبض عليه فوراً.

داخل سور ميناء بريست اكتشف فيدوك أهوال المعتقل. كان عليه، مثله مثل الستمائة الآخرين من رفقائه، أن ينام مصفداً فوق واحد من الثمانية وعشرين مقعداً التي وضعت بتصرف المحكومين. في النهار عمل شاق تحت رقابة حراس بنادقهم جاهزة للإطلاق. في هذه المرة كان فرانسوا أكثر تصميماً من أي وقت مضى على الهرب في أقرب فرصة ممكنة من هذا الجحيم.

سمح له مبرده الذي لا يفارقه أبداً، والذي لم يتمكن الحراس من اكتشافه على الرغم من كل إجراءات التفتيش، مكنه من قطع الحديد. وقام جار له بتأمين ثياب بحار رثة. ذات صباح، قبل أن يذهب فيدوك إلى العمل، أخفى ملابسه تحت قبعته. وتذرع بقضاء حاجة مستعجلة. ابتعد عن رفقائه واختفى عن الأنظار. وحينما أطلقت المدفعية ثلاث طلقات للإشارة إلى هروب أحد المعتقلين كان قد غادر بريست.

على طريق فان التقى بدركيين طلبا منه أوراقه الثبوتية. هنا ألقى آخر ورقة لديه حيث انتحل هوية بحار هارب من الخدمة، اقتيد إلى سجن سان مالو بانتظار المثول أمام مجلس بحري، فتمارض بعد أن شرب عصير التبغ. بعد أن نقل إلى المشفى تمكن من غواية راهبة قوية فأعارته جوارب وثوباً وطاقية مقرنة ثم هرب.

بعد فترة عاد إلى أراس ووجد ملجأ له في بيت أحد الكهنة بين مجموعة من المزارعين الفقراء بعد أن خدعوا بثوبه. لكن انتهى الأمر بالتخلص من هذا الزي المريك والورع ووجد له عملاً لدى أحد تجار الثيران الذي كان يقود قطيعه باتجاه باريس. وهو عمل مسالم أبعده عن فضول الدرك والجنود الذين يلاحقون الثوار وشركاءهم.

وصل فرانسوا أخيراً إلى أراس. استقبلت الأم ابنها الضال وخبأته. علم فرانسوا عرضاً أن زوجته آن ماري كانت حاملاً من أحد محامي المدينة. ولما كان فيدوك معروفاً جداً في أراس فلا يمكنه البقاء طويلاً عند والدته. فوجد لنفسه ملجأ مؤقتاً في أمبيركور لدى راهب سابق أصبح معلم مدرسة. وقام السجين الهارب بمساعدة مضيفه بمتعة كبيرة لاسيما وأن بعض تلميذاته كن شديدات الجمال. لكن درساً خاصاً كان يعطيه في مستودع الحصيد كلفه عقاباً شديداً من قبل أربعة شبان من أهل القرية. تخلى فرانسوا عن هوايته في التدريس وهرب إلى بلجيكا ثم هولندا. بعد ليلة سكر في أحد مواخير مدينة روتردام استفاق من غيبوبته وهو على متن مركب شراعي حربي

هولندي حيث تم تجنيده رغماً عنه.

في أول فرصة سانحة قام فرانسوا بالهرب. وعاد إلى البحر، لكن برغبته هذه المرة حيث عمل على متن سفينة قراصنة فرنسية تسمى باساس. تم التعاقد معه على أن يكون قائداً للسلاح، حيث قضى ستة الأشهر الأولى من عام ١٧٩٩ . لكن دورية كانت في ميناء أوستاند تقوم بالتحقق من أوراق الطاقم عادت لتضعه بين مخالب العدالة. في بداية الصيف عاد إلى بيسيتر والقيد الذي يقوده إلى معتقل طولون.

كدس المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في مركب بلا صوارٍ يستخدم كسجن عائم. أفرد فيدوك، المعتاد على الهروب، في القاعة رقم ٣ الخاصة بالمجرمين الكبار حيث يصفد المعتقلون بقيد مزدوج. وللوقاية من أية محاولة هروب فقد فرض على المعتقلين عدم مغادرة المركب، خلافاً للآخرين الذين كانوا ينزلون إلى اليابسة كل يوم للعمل في مصنع الأسلحة. وبالتالي كان الهروب مستحيلاً، إلا إذا تمكن أحدهم من الحصول على إذن بالذهاب إلى "التعب"، أي النزول إلى مصنع الأسلحة.

ذات يوم، وبينما كان مفوض السجون يقوم بزيارة إلى القاعة الثالثة ارتمى فيدوك عند قدميه أمام دهشة المساجين الآخرين، وتوسل إليه قائلاً: " إنني ولد شريف حكم علي بسبب خطأ لم أرتكبه. لم أعد قادراً على العيش مع أولئك المجرمين! سيقتلونني!"

كان فيدوك شديد الإقناع لدرجة أن المفوض قبل بنزع أغلاله وإرساله إلى "التعب". بعد ثلاثة أيام، أي في ٦ آذار ١٨٠٠، عاد إلى سابقته في بريست وتمكن من الهرب بعد أن اندس بين حشد كان يرافق إحدى الجنازات، بحضور الحراس.

توقف فرانسوا في مدينة ليون. شاءت المصادفة أو شاء القدر (القدر الذي طالما استحضره في الدفاع عن نفسه، والذي سيصبح حامل راية السجين الأسطوري غاستون لورو، شيري - بيبي) أن يسكن في نزل شارع

توماسان الذي يضم كل قطاع الطرق في المنطقة. تم التعرف على فيدوك ونال الإعجاب وأقيم احتفال على شرفه. لقد بلغت شهرته مبلغاً لدرجة تقديم النقود له وخليلة وملابس تليق به. فهل يصبح ملك الهروب ملكاً على حثالة مدينة ليون أيضاً؟ للمرة الأولى في حياته ينفر فرانسوا من هذا الأمر. في طولون ربما لم يكذب حينما ارتمى فوق قدمي المفوض: فقد أصبح اللصوص يثيرون الرعب في نفسه! وصار فيدوك يتوق إلى حياة شريفة ورفض العرش الذي اقترح عليه. لكن ذلك انعكس عليه سلباً لأن أولئك الذين كانوا مستعدين لانتخابه زعيماً لهم هم من وشوا به. تم توقيف فرانسوا في روان ورمي به في الزنزانة قبل ترحيله إلى طولون. لكن فيدوك يعرف أنه يقف على مفترق طرق في حياته. بعد أن تنكر لأصحابه القدامى أصبح من المستحيل أن يعود إلى السجن حيث سيكون موضع حقد اللصوص الرهيب. فخاطر بالكتابة إلى ديبوا، مفوض الشرطة العام في ليون طالباً لقاءه والتحدث إليه.

كانت شهرة فيدوك قد وصلت أيضاً إلى أسماع المفوض ديبوا. فاقتيد مصفداً يحرسه دركيان أمام المفوض. وهنا اقترح عليه صفقة جسورة: حريته مقابل القبض على القتلة واللصوص الأساسيين الذين يعيثون فساداً في ليون! كان المفوض متشككاً. كيف له أن يثق بكلام فيدوك هذا؟ عندها اقترح فيدوك على الضابط رهاناً عجيباً:

"هل ستشك بصدق نيتي، لو هربت خلال عودتي إلى السجن وعدت إليك لتقبض علي؟ فأجابه: بالتأكيد كلا.. فقال: إذاً ستراني!"

غادر فيدوك دار المحافظة يرافقه دركيان، وقبل أن يصل السجن بقليل صرع مرافقيه وتخلص من قيده. بعد لحظات كان أحد الكتبه يعلن قدومه للمفوض ديبوا. ونفذ الهارب ما وعد به حيث تم القبض على القتلة واللصوص في ليون، واتضحت قضايا قديمة كانت تشغل بال الشرطة منذ أشهر وسنوات. أما من جهة فيدوك، الذي تم التكتم على دوره في هذه التوقيفات بشكل حذر فقد حصل على جواز مرور واتجه إلى باريس وبعدها إلى أراس

حيث لم ترفض أمه إيواءه مرة أخرى.

لكن فرانسوا لم ينه بعد أموره مع العدالة وصار لزاماً عليه أن يعيش بهوية مزورة تعود إلى سجين نمساوي (كان عددهم يبلغ آنذاك الأربعة آلاف في مدينة أراس) فسمح له العمل في المدينة. انسل فيدوك بسهولة إلى جلد هذه الشخصية الجديدة بعد أن أتقن لكنتها الجرمانية واتخذ زيها. تمكن من غواية شابة تدير محلاً لتجارة الخرداوات، واستقر في المحل وفي سرير تلك الجميلة. قضيا معاً أحد عشر شهراً من الهدوء والحب. وشكلت هذه الفترة واحة في حياته البائسة والمغامرة. لكن ذات يوم، وفي وقت العشاء لمح فرانسوا خلف الزجاج ثلاثة رجال من الدرك، فلم يشك السجين الهارب لحظة في أنهم جاؤوا لاعتقاله، وتأكد أن أحداً قد بلغ عنه. فصعد فوراً إلى الطابق العلوي للمنزل وانسل إلى السطح وقفز إلى سطح المنزل المجاور ثم نزل من سلم خارجي. في الشارع تجاسر على مخاطبة رجال الدرك الذين يحرسون مدخل محل تجارة الخرداوات:

"عليكم أن تدخلوا أيضاً، إذ تم القبض على الرجل لكنه يزعج العريف في الداخل!"

مرة أخرى تمكن فيدوك من الهرب. بعد عدة أسابيع على هذا الحادث نراه في مدينة روان حيث لحقت به جميلته التاجرة وأمه أيضاً التي راحت من الآن فصاعداً تهتم بشؤون المنزل. اتخذ فرانسوا لنفسه اسم بلونديل، وحصل على أوراق مزورة وقام ببيع الملابس الداخلية في أسواق الجوار. وسرعان ما ازدهرت تجارته، وعاش حياة بورجوازية. لكن، بعد المأساة، جاءت المسرحية الهزلية: بعد أن عاد إلى المنزل مبكراً من إحدى جولاته وجد تاجرته بين ذراعي رجل. لقد خدع كأي بورجوازي.

وبدلاً من الاستسلام للغضب وإثارة اهتمام رجال الدرك اختار أن يترك الخائنة. رحل إلى فيساي برفقة والدته الوفية حيث وجد هناك تجارة جديدة. لكن التعاسة كانت تلاحقه. فقد تعرف عليه أحد أبناء أراس الذين سبق له

وأن تبادل الضرب معه. فبلغ عنه حيث تم اعتقاله وأودع سجن دويه، في المكان نفسه الذي حكم فيه عليه بالأشغال الشاقة. فعادت الأمور من حيث بدأت، مع فارق أن عمر فرانسوا قد زاد عشر سنين تقريباً.

ويدفع من المفوض الإمبراطوري قام السجين السابق المتمرد بتقديم طلب للعفو. مرت الأشهر وتأخرت العدالة في دراسة قضيته. مما جعله يصرف النظر عن هذا الأمر. ذات مساء بينما كان فيدوك يتناول العشاء مع بواب السجن قفز من النافذة وغاص في مياه النهر المجاور للسجن. وكان هذا هو هروبه الأخير.

أصبح تاجراً متجولاً يجوب الطرقات. وفي طريقه التقى شابة بديعة اسمها آنيت، أصبحت في ما بعد زوجة العمر. استقر الزوجان في باريس في شارع فوبور سان مارتان. بعدها التحقت السيدة مارتان الأم بالزوجين. فرانسوا، الموهوب في مجال التجارة، راح يمارس مهنة تجارة الخياطة. مرة أخرى يتذوق هذا المنفي طعم السعادة. لكن بعد مضي ثمانية أشهر، تمكن اثنان ممن هربوا من السجن من العثور عليه، فأصبح فيدوك يعيش تحت خطر الإبلاغ عنه، فصار لزاماً عليه الخضوع لشروطهما: طلب منه اللصان النقود أو تقديم مؤشرات على بعض الأماكن التي يمكنهما سرقتها. كان فيدوك يعرف أن هذا الابتزاز لن ينتهي لذا استسلم فرانسوا كما فعل سابقاً في مدينة ليون واتصل بالشرطة.

الرجل الذي قبل أن يستقبله يدعى هنري. وكان قائداً للفرع الثاني في قيادة الشرطة. فأفضى فيدوك له ما لديه من معلومات. وذكر الشرطي بفعالية ما قام به في مدينة ليون حينما اختار المفوض دينوا أن يثق به، قائلاً له:

"إذا تركتموني طليقاً، أعدكم بأني سأكشف لكم عن كثير من اللصوص! فأجابه الضابط" قل ما لديك ثم سنرى بعدها"، رد فيدوك بقوله: "هذا مستحيل يا سيدي، إذ لو تم القبض علي وأعدت إلى السجن وعرفوا أنني

تعاملت مع الشرطة فهذا يعني موتي. " فرد الضابط: "إذاً دعنا من الحديث في هذا الأمر".

ومع ذلك فقد كان فيدوك حراً في مغادرة مقر الشرطة لكن البحث عنه سيبقى مستمراً. اضطر فيدوك للعيش متخفياً وبالتحايل. إلى أن طرق رجال الشرطة باب أحد مزوري النقود الذي كان فيدوك قد التجأ إليه. حاول فيدوك الهرب للمرة الأخيرة. تسلق السطح واختبأ خلف إحدى المداخن حيث ألقى رجال الدرك القبض عليه.

بعد أن وقع السجين السابق في الفخ، طلب رؤية السيد هنري ودافع عن قضيته دون جدوى. وكما هو حال فوتران، بطل بلزاك، فقد طلب الحديث إلى المدعي العام السيد دو غرانفيل، قائلاً "أن يطير المرء بين مضربين، أحدهما يدعى السجن والآخر الشرطة، فهي حياة يكون النصر فيها كداً لانهاية له، حيث بدت لي الطمأنينة أمراً مستحيلاً. "

وبالتالي فقد اختار فيدوك موقعه بين السجن والبوليس. لكن ترى هل يستمع إليه أحد؟ ديبوا، المفوض السابق في مدينة ليون سمي كونتاً من قبل الإمبراطور وأصبح مرة أخرى قائداً لشرطة باريس. وقدم له هنري اقتراح الهارب. ديبوا لم ينس الخدمات التي قدمها فيدوك إليه، فكان جوابه الفوري "اختبروه!"

تم نقل فرانسوا إلى سجن لافورس ليكون مخبراً. وخلال سنتين، قام بالتجسس على زملائه المعتقلين، وأوضح أموراً لم تكن محلولة، وحذر من القتلة. وكانت آنيت التي تقوم بزيارته بشكل منتظم، تقوم بدور الوسيط مع قيادة الشرطة.

النجاحات المتكررة التي حققها فيدوك أدت إلى إطلاق سراحه في عام ١٨١١ . لكنه كان إعتاقاً ملفقاً، تحت ستار الهروب. تمكن السجين السابق من استغلال أصدقائه القدامى لبعض الوقت. وكمخبر سري، راح يخالط أعلى قيادات العصابات ويطارد المجرمين. وبعد فترة وجيزة سمحت له القيادات

العليا بنزع القناع، بعد أن عينته رئيساً لكتيبة الأمن التي تم استحداثها له خصيصاً بناء على طلبه! يا لتغيرات القدر المدهشة! بعد أن تسلم قيادة هذه الوحدة، قام هذا السجين السابق باستحداث الشرطة القضائية وجهاز الأمن الوطني. وبالتالي فقد أنشأ جهازاً حقيقياً للشرطة في بلد وفي ظل سلطة يتحرك فيها القتلة عملياً بلا عقاب.

قام فرانسوا فيدوك مدعوماً بتجربته، بتجنيد مطلوبين للعدالة يعرفهم من السجون التي ألقي فيها سابقاً. فأخلص هؤلاء شكلاً وروحاً إلى قائدهم الجديد. وهم غورو، ديكوستار (المسمى بالوكيل)، فلورانتان، وكوكو لاكور الذي بدأت مهنته كجانح في سن الحادية عشرة، والذي ارتكب عبر السنين، كل ما يتصوره الإنسان من جرائم وجنح ممكنة. بعد أن أصبح فيدوك قائداً لمجموعة من اللصوص والقتلة السابقين الذين تحولوا إلى رجال شرطة قام بتحري المنطقة الباريسية. وباعتباره رجلاً عملياً لم يكن يجلس في مكتبه إلا في ماندر. استخدم كل الأقنعة المختلفة ليبذل جهده ولم يتردد في القيام شخصياً ببعض عمليات الاعتقال. النجاح الذي حققه وشهرته سارعا في زيادة عدد كتيبة الأمن التي يقودها، وعمل بسهولة تحت عدة أنظمة: الإمبراطورية، مرحلة التجديد، المائة يوم، ومرة أخرى في فترة التجديد.

جاء الملك شارل العاشر بعد لويس الثامن عشر وحافظ فيدوك على موقعه. أصبح فيدوك شخصية عصرية، وراوية دؤوباً وتحول إلى قوة تتنازعها أفضل الصالونات.

ومع هذا فقد قدم في عام ١٨٢٧ استقالته (وهو في الثانية والخمسين من العمر). هل تعب؟ لا لم يكن هذا هو السبب، بل مجيء شاب محير يغار منه كمساعد لقائد الشرطة ديلفو.

أصبح فيدوك حراً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فاستقر في قصر صغير في منطقة سان ماندية القريبة من باريس، حيث بدأ كتابة مذكراته التي حققت منذ عام ١٨٢٨ شهرة واسعة. مما دفع قائد كتيبة الأمن السابق إلى

ميدان الأعمال. واخترع ورقاً لا يمكن تزويره. وفي المعمل الذي أنشأه، لم يكن يعمل سوى المعتقلين السابقين الذين دفعوا ثمن أخطائهم. هذه التجربة الاجتماعية ألهمت فيكتور هوغو ليتصور شخصية الأب مادلان (جان فالجان) وهو بدوره مخترع استخدم أيضاً منبوذين سابقين، وكان دائماً على استعداد للتخفيف عن آلام معاصريه.

في الأول من شهر تموز عام ١٨٢٨ أقيم احتفال عام للتصديق على الأوراق التي منحها له لويس الثامن عشر قبل عشرة أعوام. ولم يعد فرانسوا قلقاً من ملاحقة العدالة له بسبب جنحه السابقة.

في عام ١٨٣٨ استدعته سلطة تموز الملكية لخدمة الشرطة. فقبل فيدوك استعادة لقبه كقائد للأمن بشيء لا يخلو من الرغبة. بعد عام، قامت جماهير باريس بالعصيان ضد النظام الجديد. أثناء مراسم دفن الجنرال لامارك، قام فيدوك بدوره بكل أمانة وبطاقة لاترحم حينما كان عليه نزع الحواجز الواحد بعد الآخر. ولاشك في أنه ساهم في إنقاذ لوي ـ فيليب. لكن هذا الوفاء للسلطة الملكية جعلته موضع تهكم الجمهوريين وتصويره بشكل ساخر. وهناك قضية السرقة التي اخترعها من أجل زيادة الاعتبار لنفسه، كانت تهدد باندلاع فضيحة. بعد أن تجاوزه الأمر، فضل فيدوك الاستقالة في تشرين الثاني من عام ١٨٣٢.

بعد تقاعده، قام بإنشاء مكتب خاص به. وهو أمر جديد! فهذا فيدوك يصبح تحرياً خاصاً. لم يعد يهتم بمطاردة القتلة واللصوص، إنما بمن يسميهم "رجال الأعمال faiseurs"، وحيتان المال، والنصابين والمحتالين الآخرين الذين يزدهرون في مجتمع أصبحت كلمة السر فيه "اغتن". وسرعان ما زاد عدد زبائن مكتبه عن العشرين ألف زبون، والتجار وأصحاب المصارف. فأصبح هناك من ينتظر أمام مكتبه وصار له مدينون في الأوساط كلها.

هذا النجاح الذي لايماري فيه أحداً شكل نوعاً من التغطية على نشاط الشرطة الرسمي التي لم تنس ماضي هذا المحكوم عليه بالأشغال الشاقة.

وهنا بدأ الصراع. في عام ١٨٣٧ قام زملاؤه القدامى، بذريعة ما بتفتيش مكاتبه واستولوا على العديد من الملفات. واقتيد إلى سجن سانت -بيلاجي، لكن سرعان ما أطلق سراحه واستفاد من قرار بعدم وجود مبرر لإقامة الدعوى ضده. لكنها لم تكن سوى جولة مؤجلة. بعد خمس سنوات، عاد رجال الشرطة لاستباحة مكتبه من جديد، واتهم فيدوك بتوقيف أحدهم وحبسه "باسم القانون" وهو ما لايحق له القيام به. تم اعتقاله في سجن "الكنسييرجوري" بينما قام رجال الشرطة بوضع اليد على الآلاف من ملفاته.

في ٣ أيار من عام ١٨٤٣ حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات. لكن المداولات التي بينت أن التهمة لاتستند إلى أي دليل ملموس دفعت بفيدوك للاستئناف. في ٢٢ تموز قامت المحكمة الملكية بتبرئته. انتصر الشرطي السابق، لكنه بات يعرف أن ماضيه أصبح كالكرة الحديدية التي يجرها المحكومون بالأشغال الشاقة في أقدامهم لا يمكن نسيانه أبداً. كان محكوماً بالأشغال الشاقة وسيبقى كذلك. ما أن تم الإفراج عنه حتى طلبت منه قيادة شرطة باريس مغادرة المدينة ومنعته من الإقامة فيها! لكنه لم يرضخ. على الرغم من بلوغه الثمانية والستين سنة فقد قرر الدفاع عن نفسه، وجمع حوله العديد من أصدقائه ونجح في دفع قائد الشرطة، السيد ديللسير، إلى التراجع عن قراره.

خلال تقاعده، كان فيدوك يكتب ويروي تحقيقاته ويجمع ذكرياته. وعاشر بلزاك وهوغو وديما ولامارتين، وعدداً كبيراً من الكتاب المعجبين بمغامراته. وحينما قامت ثورة ١٨٤٨ اختار أن يقف إلى جانب لامارتين، أحد قادة الجمهوريين والمرشح العاثر الحظ إلى رئاسة الجمهورية. وهو التزام كلفه دخول السجن مرة أخرى بعد انتصار جماعة النظام. استمر الاعتقال ثلاثة أشهركانت هي الأخيرة.

بدأ فيدوك يدخل رويداً رويداً في عالم النسيان. تكور الجسم الضخم وتساقط شعر الرأس والتهمت التجاعيد قناع الأسد. حينما كان يخرج للنزهة

بين لوماريه ووبوانكور، في الحي الذي يقطنه لتسخين جسمه تحت شمس باريس، كان بعض المسنين الباريسيين يتعرفون إليه. الضجر كان له بالمرصاد تلاه الموت. في ١١ آذار من عام ١٨٥٧ أرسل رسالة إلى صديقه، المحامي لودرو يقول فيها: "إن الأسد العجوز قد أصيب في قدمه وقلبه، لايستطيع الخروج من عرينه الذي يئن فيه بعد أن فقد القدرة على الألم." بعد ثلاثة أشهرمن إصابته بالشلل وافته المنية عن عمر يناهز الثانية والثمانين عاماً محاطاً بآخر أصدقائه وغادر المحكوم السابق أصفاده إلى الأبد.

فيدوك، السجين الأصيل والشرطي الحقيقي، جاء لينصهر طبيعياً في شخصية فوتران التي ابتدعها بلزاك. لاسيما وأن الكاتب التقى قائد الأمن عدة مرات بشكل شخصي. لكن بلزاك اقتبس صفات من شخصيات أخرى حقيقية مثل بيير كوايار، وهو سجين سابق أصبح ضابطاً، وتمكن من دخول أفضل مجتمعات عصر التجديد تحت اسم كونت سانت هيلين. هذه المحطة سمحت له بإعطاء العصابة التي كان يرأسها المؤشرات الكفيلة بالقيام بأفضل السرقات. وهناك شخصية أخرى استلهمها بلزاك هي شخصية أنتيك كوليه، الذي تراه تارة راهباً وطوراً أسقفاً أو مفوض شرطة أو محسناً محباً للخير، لكنه دائماً محتال.

يبقى أن فيدوك، الذي صدر الجزء الأول من مذكراته في عام، ١٨٢٨ هو الذي أغنى خيال مؤلف (الكوميديا الإنسانية). فوتران لم يأخذ منه (بطل رواية بلزاك) البراعة فحسب بل بنيته الجسدية الرائعة أيضاً. بفضل هذا النقل الجسدي، تحول فيدوك، رغماً عنه، إلى نموذج من نماذج الأدب.

دراسة في التربية الطبيعية
دانييل ديفو وروايته (روبينسون كروزويه)

شاع اسم روبينسون على ألسنة الناس. وهو اسم يعني كائناً مهجورا في مكان قفر، لا يدين في بقائه إلا لشجاعته ومهارته فقط. والروبينسونية، هي قصة تحكي مغامرات رجل بعيد عن الحضارة، يستفيد من الموارد الطبيعية درءاً لخطر الموت عنه.

الكاتب الانكليزي دانييل ديفو نشر روايته الشهيرة (روبينسون كروزويه) في عام ١٧١٩ . عنوان الرواية الأصلي هو: (حياة روبينسون كروزويه بحار يورك، ومغامراته العجيبة والمدهشة)، وهي أول رواية شعبية في الأزمنة الحديثة تحكي قصة شاب متعطش لخوض المغامرات. هرب روبينسون من بيت والده وركب البحر. بعد عدة مغامرات: غرق وأسر من قبل قرصان بربري ثم هرب من بين يديه. حط رحاله في البرازيل حيث أقام مزارعاً. لكن هذه الحياة الهادئة جداً لم تهدئ شغف روبنسون بالمغامرة، فأصبح يتاجر بالعبيد. لكن المركب الذي استأجره غرق بالقرب من مصب orenoque. كان هذا الشاب الإنكليزي الناجي الوحيدالذي استطاع بلوغ أحد الشواطئ، بعد أن جمع من حطام السفينة ما يحتاج إليه من أسلحة ومعدات، وسرعان ما أدرك أنه وحيد فوق جزيرة مقفرة.

وببراعة قام الناجي بتنظيم شؤون حياة العزلة التي وجد نفسه فيها. راح يصطاد في البر والبحر وينسق الحدائق ويبني ويخيط ويدجن الحيوانات البرية ويقارع الوحدة والجنون، فأصبحت حياته مدرسة الطبيعة الحقيقية. لقد تغلب على هذه الطبيعة المتوحشة وحولها إلى فردوس رسمه ديفو في لوحة

لاتنسى: رجل ملتح تغطي جسده جلود الماعز، ويعتمر قبعة عالية مدببة، ومظلة واسعة تقيه حر الشمس، يحمل بندقية بيد وجعبة بالأخرى، وفوق خصره فأس وسكين وعلبة من البارود.

ذات يوم، حل فوق جزيرته مجموعة من أكلة لحوم البشر، بينهم سجين كانوا على وشك التهامه، فهب إلى نجدة هذا المتوحش المسكين وخلّصه من قبضتهم. ومنذ تلك اللحظة راح ذلك المتوحش يعيش بصحبة فاندرودي (جمعة) الوفي الذي لولاه لانتهت حياته مأكولاً، فعلمه الديانة المسيحية وقام بتهذيبه.

بعد مضي ثمانية وعشرين عاماً وشهرين وتسعة عشر يوماً على نجاة روبينسون، رأى أخيراً أشرعة سفينة في الأفق فاقتربت منه، وصحبه قبطانها ليستعين به للقضاء على تمرد وقع فوق سفينته. أبحر كريوزيه إلى إنكلترا حيث انتهت حياة هذا المغامر بالزواج وإنجاب ثلاثة أطفال.

هذه القصة ليست من نسج خيال ديفو. هذا الكاتب والناقد البريطاني اللامع الذي بلغ الستين من عمره، بعد أن عاش حياة متقلبة لم تخل من السجن، كان يعاني من صعوبات مادية. ولم ينجح في إيجاد المال اللازم لتزويج بناته الثلاث. ذات يوم قرأ قصة رحلة منشورة عن بحار جسور يدعى الكابتن روجرز. استرعت انتباه الكاتب فقرة من القصة يروي فيها البحار كيفية إنقاذه لرجل اسمه ألكساندر سيلكيرك عاش سنوات عديدة فوق إحدى جزر المحيط الهادي المقفرة. فأصبح موضوعاً رائعاً لرواية! وعلى الفور استقل ديفو عربة نحو إيرلنداecosse حيث تمكن من اللقاء بسيلكريك، الذي حط رحاله بعد رحلتين، في القرية التي تقيم فيها عائلته. وهناك تمكن الكاتب من دفع البحار إلى الكلام مطولاً، فقص عليه مغامرته المليئة بالأحداث. ديفو، الذي لم يغادر إنكلترا في حياته، بهر بهذه القصة الغريبة والعجيبة. ودون كل ما استمع إليه.

بعد عودته إلى لندن، أصبح واثقاً من الإمساك بموضوعه، وتحول ألكساندر سيلكريك إلى روبينسون كريوزيه، وهو اسم أحد رفاق طفولة

الكاتب. وما أن نشرت الرواية حتى حققت نجاحاً واسعاً لدرجة إعادة طباعتها عدة مرات. لكن مغامرات سيلكريك، روبينسون الحقيقي، ربما تكون أكثر غرابة من مغامرات بطل رواية ديفو!

لارغو، قرية إيرلندية تابعة لمنطقة فايف الواقعة على خليج فورث الرائع حيث ولد ألكساندر في عام ١٦٧٦، وهو الولد السابع والأخير لدباغ حذاء اسمه جون سيلكريغ، وهو إنسان ورع متقشف ربى عائلته على احترام الدين والطاعة. لكن الشاب ألكساندر لم يلتزم بهذه التربية فكان مشاكساً لايعبأ كثيراً بالنظام. وعلى الرغم من حماية أمه له سراً، فقد دخل الابن في صراع مع أبيه. كان سيلكريغ يريد أن يجعل من آخر العنقود دباغاً مثله، غير أن أحلامه كانت ترنو إلى الآفاق البعيدة. كان يرود شاطئ البحر ويتأمل المراكب لساعات طويلة. وأحياناً يطوف سراً بين البحارة وهم يحتسون (الراتافيا) أو الجن في حانة (ليون روج) الغارقة في الظلمة والدخان. كان الطفل يصغي لساعات إلى قصص جاك بولتون العجيبة، صاحب الحانة، وهو قرصان سابق طالما أبحر تحت إمرة القبطان الرهيب مورغان. مذهولاً كان يستمع إلى هذه القصص التي لا تتحدث إلا عن القصف والتحام السفن ببعضها وعن المعارك بالسيوف والغنائم الخرافية.

لم يستطع ألكساندر مقاومة نداء الإبحار.. في الثامنة عشرة من عمره كان صلب العود جسوراً، يعرف كيف يستخدم قبضتيه بشكل رائع. لم يعد قادراً على تحمل العفن في مدبغة والده. عند نهاية شهر آب من عام ١٦٩٥ هرب من قريته لارغو وبلغ الضفة الأخرى من نهر فورث وحط رحاله في لندن، لايشغله سوى هدف واحد هو الإبحار.

ومن الآن فصاعداً راح الناس ينادونه باسم ألكساندر سيلكريك، وهو اسم جبل يقع في بلده الأصلي. ولكي لا يتم تجنيده بالقوة سرعان ما وجد عملاً له كبحار على متن سفينة شراعية اسمها (غولد هوب) محملة بمنسوجات وأشياء أخرى مصنّعة في طريقها إلى جامايكا، لتحمل في عودتها

أصباغ النيلة والبهارات ومنتوجات أخرى ثمينة من جزر الأنتيل.

تعلم ألكساندر مهنة البحار القاسية ونال رضا رؤسائه الكامل. كانت جزر الكاريبي على مرمى النظر. جزر فردوسية تلوح في الأفق يحيط بها بحر فيروزي اللون. بعد أن اجتازت (غولد هوب) جزيرة السلحفاة الشهيرة والمخيفة، دخلت في ما يسمى بممر الريح الواقع بين كوبا وسان دومينغو. فجأة انبجس مركب مجهول المصدر، واتجه نحو السفينة الإنكليزية. كان أسرع منها بكثير، وظهر للعيان علمها الأسود المرسوم عليه رأس ميت يرفرف على صاري المؤخرة. إنها سفينة قرصنة. حاولت السفينة الشراعية تجنب مركب القراصنة عبثاً. وتم صدم السفينة. حاول البحارة الدفاع عن أنفسهم بما لديهم من قوة اليائسين. وقاتل ألكساندر قتال شيطان جميل. لكنه تلقى ضربة فأس على رأسه وضعت حداً لمقاومته، فوقع منهاراً.

لم ينج من المعركة سوى خمسة عشر بحاراً إنكليزياً من بينهم ألكساندر سيلكريك الذي لقب بعدها ب" ذي الرأس الحجري" . اقتادهم القراصنة الفرنسيون بعد انتشالهم إلى جزيرة السلحفاة. وهناك تم بيع السجناء. وقد جرت العادة أن يعمل ما يسمون بـ"المتطوعين" لفترة ثلاثة أعوام كعبيد لدى سادتهم الجدد فيتصرفون بحياتهم وموتهم كما يحلو لهم. الرجل الذي اشترى ألكساندر، يلقب بـ"الريح الواقفة"، وهو مغامر فرنسي يترأس فريقاً من الصيادين في الجزء الجنوبي من جزيرة سان دومينغو الكبيرة المجاورة حيث تحولت الثيران الكثيرة الأولى التي جلبها كريستوف كولومبس ذات يوم إلى حيوانات برية. وكانت لحومها وجلودها وشحومها تباع لمن يتوقف عند جزيرة السلحفاة.

استسلم ألكساندر لتعلم مهنته الجديدة. فكان يقطّع صيده (من خنازير أو ثيران برية)، ويدخّن اللحم فوق حصيرة معدنية يسميها الهنود بارياكوا، (وهي أصل الكلمة الفرنسية باربيكيو)، ويدبغ الجلود متذكراً بشيء من الحنين دكان والده. إضافة إلى هذا، كان يمارس الصيد من وقت لآخر. كان

الرجال الذين ترافقهم الكلاب، يعملون جماعات لأنهم غالباً ما يصطدمون بالأسبانيين الذين يحتلون الجزء الشمالي من الجزيرة ويشنون عليهم حرباً لاترحم. وكانت النباتات الاستوائية كثيفة يصعب الوصول إليها . وكان الصيادون يقيمون في الأدغال لفترات طويلة، ويبنون فيها ملاجئ مؤقتة هي عبارة عن أكواخ من الأغصان يقومون فيها بتقطيع اللحوم وتدخينها. بعدها ينقلون الغنائم فوق ظهورهم إلى الشاطئ.

مر عامان "وصاحب الرأس الحجري" مايزال عبداً. خلال واحدة من جولات الصيد، قام سيده بإطلاق رصاصة على ثور فلم يصبه إلا بجرح. فهجم الثور عليه وهو لم يحشُ بندقيته بعد، فسقط بين أقدام الثور، لكن ألكساندر، والقيد بيده أسرع وقطع عرقوبي الثور وأنقذ بذلك سيده. واعترافاً من هذا السيد الملقب "بالريح الواقفة" بالجميل، أعتق ألكساندر. وأصبح يصطاد لحسابه بعد أن تزود ببندقية وألف ليبرة من التبغ.

سرعان ما اكتسب مدخن لحوم الحيوانات الجديد شهرة كبيرة بين (إخوة الشاطئ) الذين يقومون بالقرصنة في بحر الكاريبي لاسيما ضد السفن الاسبانية المحملة بالذهب. "الرأس الحجري" اشترى "متطوعين" بدوره وربى سرباً من كلاب الصيد، وكان يصطاد بالسلاح الأبيض في أغلب الأحيان لكي يوفر البارود والطلقات. ومن وقت لآخر كان ينفق ما كسبه في حانات جزيرة السلحفاة. في هذا المجتمع المشبوه والخطير كان يشرب ويقامر ويزعج نساء الهوى المحليات. أحياناً، بل في أغلب الأحيان، كان يتشاجر مع الآخرين. وبعد أن ينضب ماله، كان يعود إلى الأدغال حيث يتواجه مع (الانسيروس) الأسبان. خلال واحدة من تلك المواجهات نجح في التغلب على العديد من هؤلاء الرجال. وشاع خبر انتصاره في حانات جزيرة السلحفاة. لكنه اشتاق إلى البحر حيث مغامرته الحقيقية. حينما اقترح عليه القرصان غابرييل لوباسك اصطحابه على متن سفينته لم يتردد "الرأس الحجري" لحظة. بعد أن استعاد اسمه (ألكساندر سيلكريك)، شارك في عدة حملات ضد الممتلكات الأسبانية في

منطقة الكاريبي. وفرض نفسه على رفاقه من خلال جرأته وبسالته. لكن شهرته الجديدة دفعت السلطات الأسبانية إلى السعي للتخلص منه.

خلال الحملة الأخيرة على شاطئ كولومبيا الحالية حدثت المأساة. وقتل غابرييل لوباسك على أيدي هنود برافوس، وأصيب سيلكريك نفسه بجروح. لكنه استطاع جمع رفاقه من جديد وأبحر عائداً إلى جزيرة السلحفاة ليضمد جراحه.

كان ألكساندر في عامه الخامس والعشرين حين بدأ الحنين إلى الوطن يشغل تفكيره، وقرر العودة. ذات مساء من شهر نيسان ١٧٠١، مثل أمام والده في لارغو. ولم يتعرف الحذاء مباشرة على ابنه الشاب الأنيق الذي يضع ربطة عنق وأقراطاً ذهبية. على الرغم من المطاعن السابقة فقد كان اللقاء حاراً، لاسيما وأن ألكساندر قد حمل معه هدايا للجميع مثل الشالات والبهارات والأصداف والعصافير الزاهية المقشّشة. واحتفل إخوته وولداه بقدومه. ودامت نشوة هذه العودة بضعة أيام لكنها سرعان ما تلاشت. ألكساندر الذي عاش ما عاشه من مغامرت لايمكنه العيش في جو القرية الإيرلندية المحدود والمحافظ. وصار يتضايق لأتفه الأمور وتدفعه إلى واحدة من تلك المشاجرات التي ساهمت في تكوين شهرته في جزيرة السلحفاة.

بقي ألكساندر سيلكريك يعاني من الضجر طيلة الشتاء، حيث لم يكن أي مركب ليغامر في مثل هذا الفصل السيء. لكن ما أن حلت الأيام الجميلة حتى وجد المغامر نفسه في لندن بحثاً عن عمل.

الرجل اسمه دانييل دامبييه. ثعلب البحار الخمسيني هذا، الذي نشر قصة مغامراته في كتاب اسمه: رحلة حول العالم، يعد من أشهر القراصنة الإنكليز. وقد حصل على رسالة توصية من الأمير جورج[١٣]، أول لورد في

(١٣) في تلك الفترة لم يكن القرصان خارجاً على القانون، بل كان يزود برسالة توصية تسمح له بالسعي وراء السفن التجارية المعادية، وإذا تم القبض عليه لم يكن ليشنق بل يعامل وفقاً لقوانين الحرب.

الأميرالية. رسالة التوصية المتميزة هذه تسمح له بمهاجمة السفن الأسبانية والفرنسية ونهبها. وقع دامبييه عقداً مع أحد مجهزي السفن، فعهد إليه بسفينتين هما سفينة سان جورج، المزودة بستة وعشرين مدفعاً وسفينة سانك ـ بورت وفيها تسعون برميلاً وست عشر مدفعاً وثلاثة وستين رجلا. وينص العقد على تموين السفينتين خلال تسعة أشهر. هذا كل شيء! فالمتعهد يخاطر بسفنه وبحارته وبحياتهم، وبالتالي فإن أجورهم تدفع من المغانم التي يحققونها. ولايحظون لا بغنيمة ولا بأرباح.

قام دامبييه بتشغيل سيلكريك كقائد إبحار، وأصبح أحد ضابطين في سفينة (سانك بورت) التي يقودها القبطان بيكرينغ. رسم مخطط الرحلة الذي يقضي بالسير في نهر لابلاتا حتى بيونس أيروس لمباغتة السفن الأسبانية المحملة بالذهب، والمعتادة على الرسو في هذا الميناء قبل عبور الأطلسي. وفي حال الفشل، كان دامبييه يخطط لاجتياز رأس هورن المخيف والوصول إلى شواطئ البيرو ليستولي على السفن الأسبانية أو نهب المؤسسات الموجودة على الشاطئ.

لسوء الحظ، تم تأجيل موعد الانطلاق. وحينما رمت كل من السفينتين سان جورج وسانك بور مرساتيهما في ميناء مادير في ٢٥ أيلول عام ١٧٠٣، وهي مرحلتهما الأولى، علم دامبييه أن المراكب الأسبانية قد وصلت بلا عناء إلى سانتا كروز في تيناريف الواقعة في جزر الكناري. قرر القرصان التخلي عن التوجه إلى لابلاتا. وبعد عشرة أيام تزودت السفينان بالأغذية الطازجة وبالماء من ميناء (بورتو برايا) الواقع في جزر الرأس الأخضر. وهنا وقع حادثان.

الحادث الأول: اختلف دامبييه مع ضابطه الأول، فأنزله مع صناديقه إلى الشاطئ، ثم عادت السفينتان إلى عرض البحر. لكن القضية أدت إلى انقسام عميق بين طاقم البحارة وأصبحت الثقة بقائدهم موضع شك.

وبدأ العبور الطويل الذي أصيب خلاله بعض البحارة بالحمى. في نهاية

شهر تشرين الثاني تم إنزال عشرين بحاراً فوق الشواطئ البرازيلية. وبما أن ألكساندر سيلكريك يملك خبرة كبيرة في تدخين اللحوم، فقد بنى خياماً من أغصان الأشجار لحماية المرضى والمحتضرين. لكن القدر يعود ليضرب ضربته مرة أخرى، إذ وقع قبطان السفينة (سانك بور)، المدعو بيكرينغ مريضاً بدوره. فعهدت القيادة إلى الضابط الأول سترادينغ وكان بحاراً طيباً لكن فظاظته بلا حدود. وأصبح سيلكريك الآمر الثاني. وراح جو البحارة يتلبد شيئاً فشيئاً، إذ اعتبر الكثيرون أن الحملة قد فشلت، حتى ألكساندر نفسه فكر بمغادرة السفينة ما أن تسنح له الفرصة بذلك.

قبل أن تغادر السفينتان مرساهما اندلع شجار آخر على متن السان جورج، وقرر ثمانية بحارة، منهم الضابط دامبييه مغادرتها إلى اليابسة. سيلكريك، الذي يعرف المنطقة والمناخ حذرهم قائلاً بأنهم سيواجهون طبيعة معادية وحيوانات مفترسة وهنوداً بعضهم من أكلة لحوم البشر، الذين أسروا قبل عدة سنوات، قرصاناً فرنسياً اسمه لولونوا، فقطعوه وغلوه بالماء ثم أكلوه! لكن أحداً لم يسمع ورفض المتمردون العودة إلى السفينة.

بعد نقاشات عدة وخامية تقرر التوجه نحو الجنوب ثم إلى المحيط الهادي والصعود نحو جزر خوان فيرناديز الواقعة على مسافة مائة عقدة بحرية من شاطئ فالباريزو.

في ٨ كانون الأول من عام ١٧٠٣، أبحرت السفينتان في نهاية المطاف. وبعد عدة أسابيع، مرتا بالقرب من جزر الفوكلاند، وكان كاب هورن بانتظارهما. هبت عاصفة عنيفة واهتزت السفينتان بعنف ولم تعد الواحدة ترى الأخرى. اتجهت السفينة سانك بور وحدها نحو أرخبيل خوان فيرنانديز. من فوق السفينة اكتشف ألكساندر سيلكريك، في ١٠ شباط ١٧٠٤ في الأفق جزيرة سانتا كلارا الرئيسية، وهي عبارة عن جبل يشبه الأمواج وقممه غارقة في الغيوم. كان شكلها مثلثياً، وعراً وغير مضياف. لكن حينما اقترب المركب لاحظ سيلكريك أن المرتفعات مغطاة بغابات تتخللها سيول وشلالات. ووجدت

السانك بور مرسى رائعاً في الجهة الشمالية الشرقية في خليج كامبرلاند.

وفي الحال شرع الطاقم بإصلاح حالة المركب الذي تضرر كثيراً من جراء العاصفة. في الوقت نفسه سعى البحارة إلى البحث عن الأغذية حيث كان الشاطئ يعج بالفقمات وأسود البحر والسلاحف. أما في الداخل فكان الماعز والخنازير المنحدرة من حيوانات استوردها القراصنة الذين كانوا يعيشون فوق الجزيرة ذات يوم. كان الجو ساخناً محببا يزخر بالنباتات والكثير من الأشجار المثمرة.

بعد ثلاثة أيام، كانت السفينة سان جورج تحط بدرها قريباً من خوان فيرنانديز. لكن الجو كان ما يزال كريهاً بين البحارة. لاسيما وأن قبطانها سترادينغ لا يكف عن طلب المزيد من السخرة. واندلعت بداية تمرد ووضع ثلثا البحارة أكياسهم فوق الأرض. وبدأت النقاشات التي لانهاية لها وتقرر أنه بدون هؤلاء البحارة لن يتمكن دامبييه من نهب المؤسسات الأسبانية الموجودة على الشاطئ!. انتهز سيلكريك هذه الفرصة ليقوم بزيارة الجزيرة. سحرته الطبيعة العذراء، واكتشف السيول والغابة والعصافير ولم يلحظ وجود أي حيوان مفترس. تسلق أعلى قمم الجزيرة، بيك يونك، الذي يبلغ ارتفاعه مائة متر تقريباً. ومن فوق هذا العلو الشامخ رأى منظراً رائعاً وجزر الأرخبيل الأخرى: جزيرتا (ماس أتييرا) و(ماس أفويرا) كانتا كالحصاتين المنبثقتين من أعماق المحيط. راح ألكساندر يحلم، بعد أن بهره المكان. وتساءل:لم لا يستقر في خوان فيرنانديز؟ وما هي المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها. وكان واثقاً أنه سيجد فيها ما يأكله. ثم إن نوعية مرسى خليج كومبلاند يدل بالتأكيد أن سفناً كثيرة يمكن أن تأوي إليه. وبالتالي يمكنه العودة إلى الحضارة حينما يشاء لدى مرور أحد المراكب.

لكن سرعان ما أفاق من حلمه. فما أن حطت قدماه فوق الرمال حتى رأى شراعاً يلوح في الأفق. أهي غنيمة ممكنة ياترى؟ أسرع البحارة جميعاً إلى السانك بور والسان جورج. وبدأت المطاردة التي أستمرت طيلة اليوم. في المساء

تبين أن المركب الذي يتسع لأربعمائة برميل كان فرنسياً، فتم اللحاق به، ومن خلال فتحاته تم اكتشاف أنه مزود بأكثر من ثلاثين مدفعاً. بدأت المعركة، واستمر التقاصف المدفعي سبع ساعات ووقع العديد من القتلى والجرحى من الجانبين. اضطرت السفينة الفرنسية إلى الاستسلام لعدم توفر الرجال القادرين على الاهتمام بما فيها من قطع، وعندها هبت الريح، فاستغلت السفينة هذه الفرصة وعادت إلى عرض البحر. سفينة سان جورج التي أصيبت أشرعتها لم تتمكن من اللحاق بها. أما سفينة سانك بور، التي وقعت ضحية مناورة خاطئة فقد رقدت في مكانها ولم تعد قادرة على الاستمرار بالمطاردة.

قام الإنكليز بإصلاح سفينتهم واتجهوا نحو الشمال. في ١٤ آذار من عام ١٧٠٤ تجاوزوا جزيرو كابريابو. بعد أسبوع التقت السفينتان في مياه ليما. قام القبطانان بطي القلوع حتى لا يراهما الأسبان. وحينما ظهرت السفينتان الفرنسيتان، تشاور دامبييه وسترادينغ حول كيفية الهجوم. طال اجتماعهما قليلا: فاستغل الفرنسيان الفرصة ليجدا لهما ملجأ فوق الشاطئ! احتجت الطواقم الإنكليزية مرة أخرى وراحوا يكيلون الاتهامات إلى قبطانيهما. ولحسن حظ القرصانين، وصلت سفينة أسبانية بعد يومين إلى مياه الشاطئ، وتم أسرها بسهولة، ونقل حمولتها المكونة من دانتيل فلاندر والحرير والعسل والبهارات، إلى سفينتي القراصنة.

في اليوم التالي، تمت مهاجمة زورق آخر محمل بصباغ النيلة والقرمزيات. في اليومين التاليين فكر دامبييه بمهاجمة مدينة سانتا ماريا حيث يقوم الأسبان بتحميل ذهب المناجم القريبة من الشاطئ، لكنه فشل في ذلك. وعلا ضجيج التمرد من جديد، لكنه هدأ بعد أن استولى الإنكليز على شحنة إحدى السفن التي دفعها حظها العاثر إلى لرسو بالقرب من رأس غاراشينا. تم الاستيلاء على شحنة من مشروب الراتافيا الكحولي. سكر طاقما السفينتين وكان سيلكريك يراقب بقرف مشاهد السكر هذه. ولم تعد تشغله سوى فكرة

واحدة هي ترك هؤلاء الرجال الخطيرين المستعدين للتمرد تحت أقل الذرائع.

في منتصف أيار ١٧٠٤ انتهى الأمر بالقبطانين إلى الانفصال عن بعضهما وأصبح البحارة أحراراً في اختيار هذا القبطان أو ذاك. بقي سيلكريك فوق السانك بور لعدم ثقته بالقبطان دامبييه الذي رحل على متن السان جورج.

بعد أن أصبح سترادينغ سيد السفينة الأوحد قرر التجوال على طول الشاطئ المكسيكي، و راح يتنقل بين الجزر بحثاً عن فريسة ممكنة. لكن لم تظهر أية سفينة معادية. بعد أن أصابه اليأس، عاد بالقراصنة نحو جزيرة خوان فيرنانديز لإصلاح بعض ما أصاب السفينة وللتزود ببعض الأغذية الطازجة.

في عدة مناسبات اصطدم سترادينغ، الذي لم يكن يواجه أية احتجاجات، بضابطه ستيرليك. إضافة إلى أنه، حينما كانت السفينة سانك بور تتهيأ للعودة إلى البحر في نهاية شهر أيلول، أعلن ألكساندر بأنه اتخذ قراره بالبقاء فوق الجزيرة. تم إنزال صندوقه وحاجياته فوق مركب صغير، وجلس إلى جانب البحّار، بينما كانت سفينة سانك بور تنشر أشرعتها.

توقف المركب فوق الرمال وأنزل الصندوق وعاد البحار أدراجه باتجاه السفينة. وفجأة أدرك ستيرليك وحدته المطلقة التي سيعيشها من الآن فصاعداً. إنه الجنون. وقع في حيرة عابرة. رمى بنفسه إلى الماء وسبح نحو السانك بور ونادى من بعيد على سترادينغ.

"توقفوا! الشفقة، أفضل العودة معكم.."

رمقه سترادينغ باحتقار:

"تأخرت ياصغيري جداً! لم يكن عليك التمرد على قبطانك! أردت أن تعيش في جزيرة قفر، لك ما أردت ! هذا هو المكان الملائم لمتمرد من نوعك !"

هبط الليل وكان ألكساندر جالساً على الرمل فوق صندوقه يلعن نفسه. وبزغ الفجر بينما هو في الحالة نفسها، حتى أنه لم يخلد إلى النوم.

مرت عدة أيام وهو مذهول يتغذى على القواقع. كانت تتنازعه الرغبة في

صعود الجبل ليرى عما إذا كان هناك شراع في الأفق من جهة، والخوف من الابتعاد عن الخليج فيفوته رسو سفينة عابرة من جهة أخرى. احمرت عيناه لكثرة ما كان يحدق في الأفق. كم من مرة فتح صندوقه ليتناول مسدسه. هل ينتحر وينتهي من هذه الحياة؟ قرب السبطانة من صدغه ولقم المسدس. لكنه توقف في اللحظة الأخيرة. سمع خلفه صفيراً مألوفاً لشحرور كان يسرق الحياة بكل بساطة.

في اليوم السادس تماسك سيلكريك. وما أن تغلبت إرادة الحياة. حتى قام بأول عمل هو حزّ جذع شجرة أملس، ورسم ست علامات تدل على الأيام الست الأولى. وأدرك بغريزته أنه لاينبغي عليه فقدان الإحساس بالزمن درءاً للانهيار والجنون.

بعد ذلك قام المتوحد بجرد ممتلكاته. كان صندوقه يحتوي على قميص احتياطي، وعدة للنوم، وقصعة من الفخار، وبندقية ذات فتيل، ومسدس وطلقات وحفنة من البارود ورمح وسكين وبلطة صغيرة وإبريق من الحديد المطروق، وميداليات دينية قدمتها له والدته وإنجيل وجنيهين وأدوات للملاحة. التجهيزات قليلة، لكنه، على الأقل يملك بعض الأشياء التي تمكنه من بدء حياته الجديدة. ولحسن الحظ فإن تجربته في تدخين اللحوم ستفيده كثيراً.

أولاً اختار مكاناً يقيم فيه كوخاً بناه من أخشاب شجر الفلفل.. ولعدم وجود المسامير، قام بصناعة الأوتاد، واستخدم النباتات المتسلقة الشديدة المرونة لكي يربط العصي الكبيرة ببعضها. أما السقف فقد صنعه من الأعشاب الجافة. وفيما بعد قام بتغطيته بجلود الماعز.

في داخل الكوخ، جهّز مكاناً للنوم. وضع إنجيله وكتبه فوق رف بدائي. علق البندقية فوق إحدى العوارض، وثبت الميداليات الدينية على الجدران، وركن الصندوق في إحدى الزوايا. وأمام المدخل وضع "روزنامته" حيث كان يحفر كل يوم فُرضةً أو حزاً، وفرضة خاصة للإشارة إلى أيام الآحاد وتغيرات

الشهر. وبعد فترة قام ببناء كوخ آخر يدخر فيه مؤونته.

كان همه الدائم هو الطعام. ما أن تغلبت رغبة الحياة، حتى قام ألكساندر، قبل أي شيء، بالبحث في الرمال عن بيوض السلاحف، ثم تمكن من ذبح أحد أسود البحر الصغيرة. واستطاع إشعال النار باستخدام عصاتين جافتين من أخشاب شجر الفلفل، وهي تقنية تعلمها من هنود سان دومينغو. لكن الملح كان ينقصه: وهنا عزم سيلكريك على تبخير شيء من ماء البحر.

كان يعرف ضرورة تنويع غذائه. بعد أن تجاوز خوفه من التأخر عن احتمال دخول مركب إلى الخليج، خاطر بالدخول إلى أعماق الجزيرة. بعد أن أخفى أشياءه حمل سكينه ودخل في مجرى أحد السيول، فاكتشف أولاً البقلة، وعلى مسافة أبعد عثر على أشجار النخيل والغار والسفرجل والكباد، كما عثر على فجل صقلية الذي يشبه البقدونس، والطرخون والإنيام (نبات معمر تؤكل درناته النشوية). فجأة انتابه الرعب: عليه أن يعود بأقصى سرعة إلى الشاطئ علّ قارباً يحط فوقه، فركض حتى كاد أن يلفظ أنفاسه، وأخيراً بلغ الرمال. ليس هناك أي مركب. فتهالك فوق الرمل واستغرق في النحيب.

خلال ثمانية عشر شهراً، كما سيروي لاحقاً، كان يعيش هذا الهاجس، ولم يقرر أبداً الابتعاد عن الشاطئ لفترة طويلة.

مر زمن طويل كان المتوحد خلاله يشغل نهاراته بتصنيع بعض الأدوات: فصنع صنانير من العظام، وخطافات من الخشب الصلب لصيد الأسماك وشبكة صيد من ألياف اللحاء، وفرناً من الصلصال.. وبعد أن عثر على دائرة حديدية لأحد البراميل فوق الشاطئ قام بصناعة قيد، وتحول المسمار القديم إلى إبرة للخياطة. وكان ألكساندر يشعل النار في كل أنواع الخشب: كان خياله يأمر وبراعته الاستثنائية تتكفل بالباقي. لكن الصيد كان يشكل جل اهتمامه: فكان يقتل الماعز والخنازير البرية والقطط بالسلاح الأبيض من أجل توفير ذخائره. بعدها يقوم بتدخين صيده ليحتفظ به أطول مدة ممكنة.

بعد أن تمكن من القبض على بعض الجداء، قرر أن يقوم بتربيتها فوجد

نفسه، مع مرور الزمن، على رأس قطيع صغير مدجن تماماً، ألحق به بعض القطط التي جذبتها بقايا الأسماك. ولم يتورع عن اصطياد الجرذان التي تكثر في الجزيرة وتهدد المخزون الغذائي لمدخن اللحوم القديم.

مرور الأيام والشهور زرع في نفس سيلكريك نوعاً من الطمأنينة الداخلية. فثابر على قراءة إنجيله، وراح ينشد المزامير ويتأمل ويصلي. أيقظت الوحدة الإيمان في قلب هذا القرصان. كان هذا كله بالنسبة له طريقة يبرهن من خلالها على أنه لم يغادر الجماعة البشرية تماماً.

أحياناً كان يقول لنفسه بأنه سينهي أيامه فوق هذه الجزيرة، جزيرته! ويتجرأ على اكتشاف جوانبها الأبعد، والأعلى دائماً. طال شعر لحيته، واستبدل بأسماله جلود الماعز التي قام بخياطتها إلى بعضها البعض كيفما اتفق. كان يمشي حافي القدمين، أما غذاؤه فكان صحياً، لذلك كانت صحته رائعة وعضلاته مفتولة كالجذور. وتشكّل لدى سيلكريك الانطباع بأن جسده قد توحد مع الطبيعة، فعرف أصواتها وروائحها وألوانها، كما لو كان ابناً أو عشيقاً لهذه الأرض التي باركتها الآلهة.

لذلك كان عقله مشدوداً إلى شيء واحد هو البقاء! وبالتالي استخدام كل المصادر المتاحة له لتحسين شروط حياته تدريجياً لكي يقدم كل يوم مزيداً من حسن العيش. بخطوات عملاقة أعاد لوحده اختراع تاريخ تقدم البشرية. هذا البدائي المتروك في عالم معاد له عرف، بقوة العبقرية أن يصبح كائناً متحضراً دجن قوى الطبيعة لمصلحته.

ذات صباح، وبينما كان عائداً من غزوة استمرت يومين قادته حتى الشاطئ الغربي، تسمر سيلكريك فوق مرتفع صغير يطل على ممتلكاته: هناك قارب يرسو في الخليج! اضطرب قلبه كثيراً. هاهم البشر أخيراً..

انزلق فوق النباتات الكثيفة نزولاً نحو الشاطئ. وقبل أن يظهر نفسه راقب هذا القارب ذا الصاريين الذي يمكنه أن يتسع لبراميله الثلاثمائة. لم يكن القارب يحمل أي علم وكانت قلوعه مطوية. فاعتقد أن البحارة قد نزلوا

إلى اليابسة للتزود بالماء. تردد ألكساندر قبل أن يعلن عن وجوده. لاحظ أن هذا المركب لايشبه الصناعات الإنكليزية. اقترب قليلاً. رأى قارباً تم جره إلى الشاطئ. وفجأة رآهم. إنهم رجال! الأوائل منذ شهور عديدة! لكن مجموعة أخرى انبثقت من الناحية الأخرى، عرف فيهم الأسبان القد رأوه، وأطلقوا النار باتجاهه. هرب سيلكريك بكل ما أوتي من قوة نحو الغابة. وبعد مائتي متر أصبح مكشوفاً. انطلق الرجال في ملاحقته. أطلقوا النار عليه مرة ثانية. لكن لم يصب لأنه كان يركض بشكل متعرج. وعلى الرغم من أنه أصبح في حماية الأشجار، إلا أنه لم يكف عن الركض، ثم تسلق شجرة عالية واختبأ بين أغصانها، وبقي طيلة النهار مختبئاً. وفي الليل بلغ الجبل حيث لايمكن لأحد العثور عليه. فالطبيعة بيته.

في الصباح لاحظ أن المركب قد أقلع وأبحر نحو الغرب. فعاد ألكساندر إلى مخيمه، حيث رأى أن الأسبان قد قتلوا بعض الماعز وقطته المفضلة.

رأى سيلكريك في ما بعد مراكب أخري تمخر عباب مياه خوان فيرنانيز، بل رسى اثنان منها في الخليج، هما سفينتان أسبانيتان. لكنه لم يظهر نفسه من باب الحذر.

الصيد، هو الصيد دائماً، ليستمتع إذا برؤية نفسه أقوى من الطريدة، وغالباً ما كان يفلت طرائده من الشباك. ذات مساء، كان في الجزء الشمالي الغربي من جزيرته، وهو الجزء الأكثر وحشية ووعورة أيضاً. رأى عنزة برية. لم ينتبه الحيوان لوجوده. قفز الرجل ورمى نفسه على الطريدة، لكن حفرة خفية بين الأدغال انفتحت تحت قدميه فوقع ومعه العنزة في جرف ارتفاعه أكثر من عشرين متراً. وفقد القرصان وعيه.

استيقظ بعد أربع وعشرين ساعة. أي من أعضائه لم يكن مكسوراً. لكنه كان يجد صعوبة كبرى في التنفس. ربما كسر أحد أضلاعه. ولشدة عطشه، تمكن من جر نفسه إلى حافة أحد الجداول، روى ظمأه طويلاً ثم غسل جراحه. وبعد استراحة طويلة انخرط في طريق العودة إلى كوخه. وحينما بلغه

تهاوى منهاراً.. في محاولة أخيرة، نادى على إحدى عنزاته. فلبى الحيوان النداء. رضع سيلكريك من ثديها ثم نام. لاشك في أن حليب الحيوان قد أنقذ حياته.

بعد عشرة أيام، استعاد عافيته تقريباً. إنه الربيع يقبل في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. ربيعه الثالث!لم تكن الطبيعة جميلة بمقدار ما هي عليه اليوم، ولم يشعر ألكساندر أبداً، كما يشعر اليوم، بالسعادة في قدرته على المشي والقفز ومداعبة قططه وترتيل مزاميره لمجد الله! وبدا له الآن أنه عاش في هذه الجزيرة طيلة حياته.

في ٣١ كانون الثاني من عام ١٧٠٩، بينما كان سيلكريك عائداً من الصيد إلى مخيمه، لمح سفينتين في مياه الشاطئ الشمالي الغربي. حتما إنهما تتجهان إلى خليج كامبرلاند. بدا له شبح السفينتين مألوفاً. لاشك أنهما سفينتان إنكليزيتان! جن ألكساندر من الفرح، وجهز كمية كبيرة من الحطب بغية إشعالها عند نهاية النهار. وظل طيلة الليل يغذي الجمر ويذبح بعض الماعز لكي يستقبل زواره بما يستحقونه من الضيافة.

عند الفجر، لاحظ سيلكريك خائباً أن السفينتين لم تكونا قرب الشاطئ بل ابتعدتا عن الجزيرة.

وبشكل عصبي ربط أحد قمصانه العتيقة إلى طرف عصا طويلة ونزل حتى بلغ رمال الشاطئ. حرك علمه الصغير طويلاً أملاً منه في شد انتباه البحارة. لكن الصباح انقضى دون أن يحدث أي شيء. لاشك أن السفينتين ستعودان إلى البحر. ومع هذا، ظن سيلكريك عند الظهر أن قارباً وضع في الماء إلى جانب إحدى كبرى السفينتين. بعد قليل، حدثت الأعجوبة، كان هناك زورق يعوم نحو الشاطئ. استطاع أن يميز بوضوح الرجال الموجودين فوقه: ستة بحارة يجدفون وضابطان واقفان في مؤخرة الزورق. لباسهما إنكليزي! قام ألكساندر بحركات ملحوظة باتجاههم. لدى وصول القارب إلى مسافة بضعة أذرع من الشاطئ، سأل أحد الضابطين عن أفضل مكان للرسو.

سيلكريك كان يقفز من صخرة إلى أخرى وأشار إلى جون صغير رملي يمكن للقارب أن يبلغ الرمال دون أضرار.

وصل القارب الصغير إلى الشاطئ. كان الدمع يغطي وجنتي سيلكريك حينما قفز إلى الزورق ورمى نفسه فوق أعناق البحارة المدهوشين. كان انفعاله شديداً لدرجة أنه عجز عن التلفظ بأية كلمة. أما البحارة فكانوا ينظرون إلى نصف المتوحش هذا بذهول، فقد كان ملتحياً أشعث الشعر غريب اللباس، يعانقهم وهو يذرف الدمع الحار. أخيراً قطع أحد الضابطين هذا الدفق العاطفي سائلاً:

- "هل أنت إنكليزي؟"

- لا، إيرلندي

- أنت وحيد هنا؟

- نعم، منذ أربعة أعوام وأربعة أشهر!"

لم يتمكن البحارة الإنكليز من إخفاء دهشتهم. كيف تمكن من العيش وحيداً؟ وهنا بدأ سيلكريك برواية قصته. تكلم ببطء وهو يشوه اللغة الإنكليزية باحثاً عن الكلمات على الرغم من المزامير التي كان يتلوها والصلوات التي كان يرددها كل يوم بصوت عال. والأسوء من هذ أنه وجد صعوبة في فهم ما يريد زواره قوله له. كان لا بد من عدة أشهر لكي يستعيد استخدام الكلام تماماً. ومع هذا فقد فهم ألكساندر جوهر ما قاله الضابط إن سبب عدم وضع مركب في البحر قبل ذلك فلأن الإنكليز حينما رأوا النار التي أوقدها خافوا أن يقعوا ضحية فخ نصبه لهم الفرنسيون أو الأسبان.

وعلم سيلكريك أن السفينتين —دوك و دوشيز اللتين يقودهما على التوالي القبطانان روجرز وكاونتري ـ قد غادرتا إنكلترا قبل خمسة أشهر لتسبقا الإفرنسيين والأسبان. كان الطاقم مكوناً من ثلاثمائة وثلاث وثلاثين بحاراً يقودهم قرصان شهير هو ويليام دامبييه!. ارتعدت فرائص سيلكريك: فهو لم يحتفظ بأي ذكرى طيبة عن قبطانه السابق. ولا يرغب أبداً في أن يوضع تحت

امرته مرة ثانية. بل يفضل البقاء في الجزيرة على هذا، لكن الضابط الإنكليزي طمأنه بأن دامبييه ليس سوى مجرد بحار!

اقتيد ألكساندر على متن السفينة دوك. كان شكله الغريب يثير فضول البحارة. وقدمت له الملابس الداخلية والقمصان وحذاء. قص شعر رأسه وحلق ذقنه. واستعاد سيلكريك وجهه البشري، لكن الحذاء كان يجرحه فيمشي بصعوبة. عودته إلى المدنية مازالت تحتاج إلى تعليم طويل.

فوق السفينة التقى دامبييه. وعلى غير المتوقع كان بشوشاً معه وامتدح قدراته كبحار لاسيما وأن القبطان روجرز قد أوكل إلى سيلكريك قيادة الطاقم. بقيت السفينتان راسيتين في خليج كامبرلاند خمسة عشر يوماً، وهو الوقت اللازم لتجديد احتياجات السفينة من مؤن.

تقرر الرحيل في ١٢ شباط. أخيراً أدرك سيلكريك بأنه سيغادر جزيرته والطمأنينة التي أصبحت جزءاً منه. فقام بتحرير عنزاته وقططه. احتفظ فقط بهر اسمه سانداي (هل هو فاندرودي في رواية ديفو؟). وتم تحميل صندوقه وبندقيته على متن السفينة. كانت السفينتان على أهبة رفع قلوعهما. كان سيلكريك مضطرباً وهو يضم صانداي إلى صدره وينظر إلى جزيرة خوان فيرنانديز بغاباتها الكثيفة وجبلها المغطى بالغيوم، وشواطئها الرملية الناعمة. أغمض عينيه، وسالت دمعة فوق خده المدبوغ بينما كانت قرقعة المراسي ترتفع.

في شهر كانون الأول عبرت السفينتان رأس الرجاء الصالح، وكان القبطان يريد العودة إلى إنكلترا سريعاً. لكن الطاقم المرهق لم يشأ التعرض لخطر مصادفة سيئة. وتقرر انتظار وصول أسطول هولندي ضخم عائد إلى أوروبا. فكان لابد من انتظار ثلاثة أشهر. وتحمل روجرز وسيلكريك هذا الانتظار على مضض. أخيراً، في نيسان، ظهر الهولنديون. وأبحر الأسطولان معاً حتى بلغا إنكلترا. حينما وضع البحارة أقدامهم على اليابسة في ١٤ تشرين الأول من عام ١٧١١ بعد هذه الرحلة الطويلة حول العالم، كانت قد مرت ثمان سنوات

وشهر وثلاثة أيام منذ اللحظة التي أبحر فيها سيلكريك على متن السفينة سانك بور. لكن القرصان تحول إلى إنسان آخر. سنوات العزلة الأربع التي عاشها تركت أثرها عليه طيلة حياته. فبدت له ضجة المدينة وازدحامها غريبين عنه، فيلوذ أغلب الأحيان بالصمت. وكان لابد من إلحاح القبطان روجرز (الذي نشر بنفسه المصائب التي عاشها سيلكريك في كتاب ضم مذكراته) لكي يفصح ألكساندر ببعض ذكرياته إلى ناشر إنكليزي اسمه ريتشارد ستيل ونشرت القصة في مجلة the Englishman. في تعليقاته أشار ستيل أن سيلكريك يبدو منفصلاً بشكل عجيب عن الأشياء العادية وربما يأسف لعودته إلى عالم البشر.

في ربيع ١٧١٢، قرر ألكساندر العودة إلى بيته. وظهر الابن السخي مرة ثانية. لكنه سرعان ما ضاق بفضول أهله وجيرانه. فأفضى إلى أمه قوله: " لقد تحولت إلى مدني بري أو متوحش!". لكي يتجنب أسئلة أقربائه التي لا محيد عنها، وجد ملجأ له في واد منعزل عله يعثر فيه على شيء من جزيرته؟.

بعد أشهر من عودته، قام دانييل ديفو (كاتب رواية روبينسون كريوزيه) بزيارته. واستطاع ببراعة أن يقهر امتناع القرصان عن الحديث. وهكذا بدأ سيلكريك يروي قصته تدريجياً على مسمع من ديفو المتحمس لما يسمع.

كان عمر ألكساندر آنذاك ثلاثة وثلاثين عاماً. لم يكن يعرف من النساء سوى معانقات قصيرة لبعض بنات البحارة. وبينما كان يقوم بإحدى نزهاته، التقى صبية جميلة اسمها صوفي بروس، لها من العمر ثمانية عشر ربيعاً. وللمرة الأولى في حياته وقع سيلكريك عاشقاً. ذات يوم قام العاشقان بالفرار. ومرة أخرى اختفى ألكساندر دون أن يبلغ أحداً، تاركاً خلفه حتى ذكريات جزيرة خوان فيرنانديز.

في عام ١٧٢٤، أي بعد أربعة أعوام على النجاح الباهر الذي حققته رواية روبينسون كريوزيه. قدمت امرأة سمراء أنيقة إلى قرية لارغو. كان والدا ألكساندر قد توفيا. المرأة المجهولة التي تؤكد أنها تدعى فرانس كانديس، تريد

مقابلة أحد أخوة سيلكريك، المدعو جون، وتخبره بأنها أرملة ألكساندر الذي إلى البحر بعد أن انضم إلى سفينة وايموث بصفة ضابط فارق الحياة. أما صوفيا بروس، زوجته الأولى، فقد توفيت في لندن بعد فترة قصيرة على وصولهما إلى العاصمة. وقدمت فرانس كانديس عدة أوراق، وشهادة زواج ووصية ألكساندر. أمام هذه الإثباتات، قدم أخوة سيلكريك لتلك المرأة الشابة حصتها من الميراث الأبوي الذي يخص زوجها. وغادرت فرانس لارغو ولم تعد إليها أبداً.

في الذاكرة الجمعية، مسحت رواية (روبينسون كريوزيه) ألكساندر سيلكريك. لكن ذكراه لم تختف تماماً. في متحف أدنبرة، يمكن للزائر أن يتأمل بقايا أشياء تعود للقرصان، منها اصيص من الصلصال الرملي، فيه كسر صغير يعتقد أن ألكساندر قد أصلحه بالقار حينما كان في جزيرته. وهو الاصيص الذي كان موجوداً في صندوق الناجي من الغرق.

وفي مكان أبعد كثيراً، إذا كنتم تملكون الشجاعة لقطع ثلاثمائة ألف عقدة بحرية، في الشواطئ الغربية لتشيلي ستكتشفون جبلاً مثلثي الشكل، مقفراً تقريباً يبدو وكأنه ينبجس من المحيط، اسمه: سانتا كلارايطيب للجغرافيين والبحارة أن يطلقوا عليه جزيرة روبينسون كريزويه. لكن إذا دفعكم الفضول إلى الاقتراب من إحدى جزر الأرخبيل الثلاث، فإن أقدامكم ستلامس أرض إيسلا أليخاندرا سيلكريك، التي كان اسمها في الماضي ماس أفويرا!

❁ ❁

دم في الأدغال

بروسبير ميريميه ورواية (كولومبا)

طويلة بيضاء، عيناها زرقاوتان غامقتان، ولأسنانها لمعان الخزف، اسمها: كولومبا ديلاريبيا. كانت هذه الفتاة تخفي شبابها وجمالها تحت ثياب الحداد. سوداء كنسوة كورسيكا القاطنات في قرى جبل، يعشن في ظل الأبنية الحجرية المعلقة بالصخر. أبنية يصعب الاستيلاء عليها صعوبة بلوغ القلاع. سوداء كالانتقام تملأها صيحات النساء وولولاتهن التي يملأ صداها غرفة الموتى.

مضى عامان على كولومبا وهي تتدثر ثياب الحداد. الحداد على أبيها، الذي ربما قتله أحد أبناء عائلة باريتشيني المعادية. وما أن وصل أخوهاأورسو، الضابط في جيش نابليون إلى قريته بييترانيرا بعد معركة واترلو، . حتى دعته كولومبا للدفاع عن كرامته، ووجوب الانتقام لوالدهما! لأن الدم يستدعي الدم.

أورسو الذي غادر جزيرته شاباً، لم يقتنع تماماً بذرائع أخته. فإقامته الطويلة في أوروبا بددت قناعته بعقلية الانتقام، لاسيما وأنه كان يشك بيقين أخته بأن والدهما قد قتل على يد أحد أفراد عائلة باريتشيني. إذ أن تحقيق الدرك برأ الأعداء التاريخيين لعائلة ديلا ريبيا. وشيئاً فشيئاً ضعفت مقاومة أورسو أمام إصرار كولومبا. وعلى الرغم من تدخل قائد شرطة أجاكسيو الذي حاول إصلاح ذات البين بين العائلتين، فقد قرر أورسو الانتقام لأبيه.

لكن عائلة باريتشيني سبقته ونصبت له فخاً. بينما كان الضابط السابق يتنزه في الريف، أطلق أخوان من العائلة المعادية النار عليه وجرحوه. تمكن أورسو من الصمود وقتل المعتدين. لجأ إلى أدغال بلازو فيرديه، كما يسميها

قطاع الطرق، هرباً من رجال الدرك.

قامت كولومبا، ترافقها شابة إنكليزية هي الآنسة نيفيل، باللحاق بأورسو. كان القاتل جريحا وحالته تستدعي العلاج. قامت الشابتان بنقله على ظهر حصان إلى بيت العائلة بييترانيرا بمساعدة أحد قطاع الطرق. لكن المجموعة فوجئت برماة الجيش فتم اعتقالها

أسرع قائد الشرطة بإطلاق سراح المجموعة. أما أورسو الذي برأه التحقيق حول الجريمة المزدوجة بحق الأخوين باريتشيني فقد كان يتعافى ببطء. بعد تعافيه تزوج من الآنسة نيفيل وغادر الجزيرة ثم لحقت به كولومبا. وبينما كان والد الميتين يغرق في الجنون، كانت الشابة القاسية ذات النظرة الحادة تغني: "إني أحتاج اليد التي أطلقت، والعين التي سددت، والقلب الذي فكر.."

في باريس، سمع بروسبير ميريميه الناس يتحدثون عن كولومبا للمرة الأولى. كولومبا الحقيقية، أي كولومبا كارابيللي. قابل الكاتب أخوها القنص إينياس كارابيللي، الذي يبدو أنه قد حدثه عن أخته الرهيبة....

في عام ١٨٣٩، توجه ميريميه، مفتش الأوابد التاريخية، إلى كورسيكا. وبطبيعة الحال، ذهب أثناء رحلته لزيارة عائلة كارابيللي المقيمة في قرية فوزانو (فوزا) في جنوب الجزيرة بالقرب من سارتين.

قامت فرقة حقيقية من الخيالة باستقبال الموظف الرفيع. وكان الرعاة المسلحون يحيطون بفارسة هامة، ترتدي ثوباً من الحرير الأسود الثمين، ويغطي رأسها منديل (ميزارو) ربط طرفاه عند أسفل الذقن. وفوق سرجها بندقية دمشقية الفولاذ. تلك هي التي ستصبح بطلة القصة. كولومبا إذاً، سيدة متقدمة بالعمر (ولدت عام ١٧٦٥). لكنها، كما يكتب ميريميه إلى أحد أصدقائه، "كانت بارعة في صناعة الطلقات وإرسالها إلى تعيس الحظ الذي لايعجبها". ويضيف الكاتب إن كولومبا كارابيللي كانت شاعرة موهوبة اشتهرت بارتجالها الشعر في الجنازات (فوسيري).

إذاً ستلبس كولومبا بطلة الرواية شخصية هذه المرأة العجوز الشرسة. لكنها ستتخذ سمات ابنتها كاترين ذات الجمال الشامخ الذي بهر ميريميه وربما تكون قد رفضت الزواج منه: "جميلة كالحب ذات شعر طويل يبلغ الأرض، في فيها اثنتان وثلاثون لؤلؤة، وقوامها يصل إلى خمسة أقدام وثلاث بوصات. " أما قرية كولومبا فسيصبح اسمها بييترانيرا (القريبة من باستيا)، لأن ميريميه، وهو يروي قصته، كان يخشى من إحياء العداوات التي مازالت حية في فوزانو.

أولاً هناك البيت الذي هو عبارة عن برج عاجي تعلوه فتحات لرمي الحجارة أو السوائل الحارقة على المهاجمين، وله سقف وحيد مائل. جدرانه الحجرية سميكة، ونوافذه مجرد كوى مفتوحة نحو البحر وتطل على خليج فالينكو. منظر عظيم يوحي بالاحترام. برج عائلة كارابيللي هو جزء من سلسلة من الأبنية التي كانت تزنر كورسيكا إبان حكم الجنويين (من مدينة جنوة الإيطالية). آنذاك، ما إن يظهر مركب قادم من شمال أفريقيا على الشاطئ حتى كانت توقد النيران في القمة وينتشر الإنذار من برج إلى آخر.

كولومبا كارابيللي التي تنحدر من عائلة تحكمها عقلية الأب، ولدت في هذا البيت الصارم. أخوتها الثلاث، كغيرهم من أهالي كورسيكا، ذهبوا ليجربوا المغامرة فوق القارة الأوربية. إيناس أصبح قنصاً أيطاليا، وسيمون تطوع في الجيش الإنكليزي ووصل إلى رتبة عقيد. أما أورسو، فقد عمل في جيش نابليون وحصل على رتبة مقدم. وبالتالي فقد بقيت كولومبا وحيدة مع شقيقاتها الأربع حيث سرعان ما تفوقت عليهن لأنها لم تكن فتاة عادية. كل من في القرية يعرف أنها ساحرة إلى حد ما. فهي لم تكن خبيرة بفك السحر فحسب بل يقال أيضاً أن لها علاقة وطيدة بقوى غيبية تعرف مصائبها الليلية.

كانت كولومبا تعرف أنه بعد الغروب يمكن أحيانا مشاهدة مواكب جنائزية غريبة لابد من الابتعاد عنها فوراً لأنها عبارة عن مواكب من الأشباح

القادمة لتحتفي مقدماً بوفاة ميت قادم. لكن هذه الأشباح تطوف أيضاً المازاريات تترصد أولئك الذين تحولوا إلى حيوانات طيلة ليلة واحدة، إما لسوء طالعهم أو لقلة حذرهم. كولومبا ترى ما لايراه الآخرون. وتعرف أنه من الخطورة بمكان عبور بعض السيول في وقت الظهيرة، كما تتقن فن معالجة الرجال والحيوانات. صحيح أنها تؤمن بالخرافة لكنها مؤمنة إلى حد التصوف: فوق ثديها الريل كتفية الرهبان وخنجر لايفارقها أبداً.

طالما كانت الصداقات في فوزانو متعددة منذ قديم الزمان. عائلات الحارة السفلى، مثل عائلة كارابيللي حليفة عائلتي بارتولي وبيرنارديني، وهما عائلتان معاديتان تقليدياً لعائلة دورزانو، وعائلة باولي اللتين تسكنان الحي الأعلى، أحياناً تقع بينهما معارك مخططة. كان الرعاة والخدم يحاربون طوعاً إلى جانب سادتهم. وتصل لعلعة الرصاص في بعض الأحيان إلى الأدغال. ولكي يحافظ المرء على حياته لابد وأن يكون حذراً من وجود وتد مزروع في منتصف الطريق أو من كمين ما. عندها لابد من العودة. صفارة، أو صديق مختبئ يحذر من وجود خطر وأنه لابد من تغيير الاتجاه. كولومبا الجموحة تعرف أكثر من غيرها أسرار الأدغال ومنعطفاتها. على الرغم من خطورة الليالي المدلهمة فهي لا تخشى المخاطرة في غشيانها ليلاً حيث تمزق أشواك العرعر والآس وأعواد البرق أثوابها الحريرية.

الصداقة إذا دائمة بين حارتي فوزانو. لكن عجائز القرية يحددن أصل عادة الأخذ بالثأر في قصة الجميلة شيارا التي كانت من الجمال بحيث عشقها شباب القرية. لكن شيارا كانت تفضل شباب الحارة السفلى. في ساحة الكنيسة، ذات أربعاء من الأسبوع المقدس، كان أحد أبناء عائلة باولي برفقة رفيقين له من الحارة العليا، يلتقي بأحد أبناء عائلة كارابيللي التي يقال أن هناك تناغماً بينه وبين الجميلة شيارا. تواجه الشابان بنظراتهما. سأل بولي "عدوه" قائلاً:

- إن طريقتك في النظر إلي لا تعجبني"!

- ألست شاباً جميلاً؟

- إنك وقح!

كان باولي قد استل مسدسه من حزامه وأطلق النار على كارابيللي الذي تجنب الطلقة ولاذ بالفرار، انطلق باولي ورفاقه خلفه بينما كان رجال القرية المضطربون يتسلحون.

تم اللحاق بالشاب كارابيللي في أحد الأزقة، فطعنه باولي بخنجره. لكن كان هناك رجل آخر يعدو نحو المعتدي، فاستدار نحوه وأمسك برقبته وألقاه أرضاً، وتهيأ لطعنه حينما انطلقت صرخة ألم:

"ابني، ابني أبق على حياته!"

امرأة باكية وقفت بين الرجلين، وجثت على ركبتيها تتوسل باولي فترك ضحيته ودفعه نحو أمه، قائلاً لها: هاهو سأهبه للقديسة مريم:!

هكذا، كما تقول حوليات فوزانو، بدأت عادة الثأر الذي ستشارك فيه كولومبا لاحقاً بشكل دام.

أورسو الجندي عاد ليعيش في قريته. ذات صيف لحق به أخواه إينياس وسيمون. كولومبا التي كانت زعيمة العائلة – زوجة بارتولي والذي لاتأتي القصة على ذكره إلا لماماً ـ هي التي تقود رعاة الإنام والأبقار ـ أخبرتهم أن عليهم العودة إلى منطقة ميزولا حيث سيتم اقتسام القطعان. عند فجر اليوم التالي، غادر الأخوة الثلاثة بصحبة شقيقتهم، وهم بكامل أسلحتهم، بيت العائلة يسبقهم أحد الكلاب.

عند بزوغ أشعة الشمس الأولى، والندى يطلق عطر نباتات الغابة، لاح القطيع الموجود في ميزولا أمام الأنظار. فجأة برز رجل راكضاً فوق الطريق، وخاطب كولومبا لاهثاً:

"خصومك ينتظرونك بالقرب من هنا"!

- كم عددهم؟

- على الأقل اثنا عشر رجلاً.

- سيجدون من يتحدث إليهم.

كان الكلب يزمجر، فأسكتته كولومبا بالضغط على خطمه بيديها. ثم استدارت نحو إخوتها الثلاث قائلة: "اذهبوا إلى الحظيرة واتركوا لي بنادقكم.

وأنت، سألها أورسو.

- أنا، سأبقى!

- لكن لايمكننا تركك وحيدة !، صاح الكولونيل.

- لاتقلق بشأني! فلدي خطتي. إن بقيتم فقد أفشل".

مع هذا فقد ألح الكولونيل الذي لم يستطع اتخاذ القرار بترك أخته لوحدها. وهنا انفجرت كولومبا قائلة: "إنكم لاتعرفون الغابة! هل تريدون أن تقتلوا كالجداء؟"

هز إينياس كتفيه. وقال أورسو "دعوها تتصرف"!

توجه ثلاثتهم نحو الحظيرة بينما أبقت كولومبا الراعي معها.

"أنت، ابق معي لتذخير البنادق!". تمركزت كولومبا بين صخرتين، متخفية خلف شجيرة بطم. وبقي الراعي بالقرب من الكلب. وتيقنت أن إخوتها الثلاث قد بلغوا الحظيرة. ندّت حركة من بين الأشجار. أشارت كولومبا بيدها إلى الصبي فأطلق الكلب. إلى جانبها كانت البنادق مذخرة. فقفز الكلب باتجاه مصدر الحركة. فأطلقت كولومبا فوراً من بندقيتها طلقة أولى. ثم اشتعلت نيران لاحدود لها. كان الراعي يجد صعوبة في متابعة إيقاع الإطلاق، لكن المرأة الشابة التي لايثنيها شيء استمرت في الإطلاق بشكل مستقيم إلى الأمام، وهي تصيح على جماعة وهمية من محازبيها لكي تجعل خصومها يعتقدون بأنهم إزاء مجموعة قوية. كان التصدي غير دقيق طالما أن كولومبا بقيت مختفية.

بعد قليل توقف إطلاق النار. وترك الأعداء مواقعهم بعد أن ضللتهم لعبة المرأة الشابة.

هذا الاشتباك أعاد إذكاء الحقد الذي كان كالجمر في كل بيت من بيوت

فوزانو. وكان الخطر يحيط بالجميع. والموت قد يقع في أي وقت.

على الرغم من هذا الواقع، لم يتمكن كل من إينياس وأورسو وسيمون من مقاومة متعة الذهاب إلى الصيد. قبل شروق الشمس، سلكوا طريق هضبة الزيتون ثم نزلوا إلى الوادي الصغير. في داخل البيت ـ القلعة، كانت كولومبا قلقة تذرع الأرض بخطاها جيئة وذهاباً. دوت أصوات طلقات في الأسفل. أصاخت المرأة الشابة السمع. ما زال الإطلاق مستمراً. هل ياترى اكتشف إخوتها مجموعة من الحجل الأحمر؟ أو قطيعاً من الخنازير البرية؟. تجددت أصوات الانفجارات. لا، إنه صيد لإنسان! وضعت كولومبا حزاماً من الطلقات حول خصرها وتناولت بندقيتها ثم خرجت. ركضت وثوبها يتطاير في الهواء. كان تبادل إطلاق النار يزداد حدة. رأت جثة كلب في عرض الطريق:إنه قصاص الأثر الذي تملكه عائلة كارابيللي! الأخوة إذاً في خطر. تابعت كولومبا عدوها وتسلقت ربوة صخرية واستشرفت المنظر. كان إخوتها محاصرين معززين في وسط شجيرات البطم. طالما بقي معهم ذخيرة فإنهم سيتمكنون من التصدي. لكن بعد هذا سيقعون تحت رحمة المعتدين. ليس هناك سوى حل واحد: هو شد انتباه الأعداء في اتجاه آخر. إنهم يبحثون عنها، تلك المرأة المعتدة بنفسها، الساحرة المكروهة والتي تمثل روح عائلة كارابيللي.

انتصبت كولومبا كتمثال عتيق. أمسكت ببندقيتها ووجهت السبطانة نحو السماء. ثم ضغطت على الزناد. عند هذه الطلقة اتجهت الأنظار كلها نحو تلك التي تتحداهم. فصوبت البنادق نحو كولومبا. فرقعة حقيقية. قفزت المرأة الصلبة فوق الصخرة. وبدأت المطاردة.

انزلقت الهاربة تحت الشوكيات، وركضت بكل ما أوتيت من قوة، تاركة خلفها أشباراً من أثوابها فوق الأشواك المشعثة. أحياناً كانت تئز إحدى الطلقات بالقرب من أذنيها. كانت تدور وتعود وتقطع طريقها ثم تعود إليه، لأن الغابة كانت من أكبر حلفائها. لم تعد كولومبا تشعر بوخزات الأشواك فوق جسدها العاري. خفت الطلقات شيئاً فشيئاً. وبعد أن تشوش الرهط كف عن

تعقب طريدته.

بقيت كولومبا طيلة النهار وبعض الليل مختبئة في الغابة، وحينما عادت إلى القرية كانت فوزانو قد استسلمت للنوم منذ فترة طويلة.

في الصباح كان ثوبها المقطع معلقاً فوق كوة من كوى بيت العائلة يرفرف مع الهواء القادم من البحر مثل علم منصور.

كولومبا تسهر حين ينام الآخرون. أحياناً تذهب خلال الليل لمد محازبيها من قطاع الطرق بما يحتاجونه من عتاد: بندقية بحمالة، وخرج مثقل بالخبز والخمر فوق ظهرها، كانت تذرع دروب الغابة غير المرئية. لكن أعداءها لم يتخلوا أبداً عن المراقبة. عند منعطف أحد الطرق قفز كلب ضخم عليها. تجنبت كولومبا الفكين الرهيبين، وضربت حنجرة هذا الوحش بخنجرها، فخر الحيوان صريعاً فوق الدرب. قرفصت المرأة الشابة، إذ لابد وأن يكون أعداؤها قريبين منها. وسيبحثون عن كلبهم. كانت الريح تئن في شجيرات الغابة. سمعت كولومبا صوت حفيف أغصان فأطلقت النار باتجاه الضجة. ندت صرخة تجمد الدم في العروق ثم تبعتها فرقعة أغصان تتقصف. لقد أصابت هدفها. لكن الرجل لم يكن وحيداً، فتقدم الآخرون باتجاهها. أطلقت كولومبا النار وهي تصيح "النجدة، النجدة، أسرعوا!"

مرة أخرى تمكنت تلك المحتالة من الانتصار. خشي الأعداء الوقوع في الفخ فقرروا القتال تراجعياً، تاركين جثة صديقهم وكلبهم الذي تركت كولومبا خنجرها في عنقه إما تعبيراً عن التحدي أو إرسال رسالة ما.

"الدم يستدعي الدم"، والحقد عصيٌ على الإخماد. كولومبا ربة الانتقام، لن تلقي السلاح حتى تخمد أنفاس آخر عدو لها. أمام هذا العنف الكبير، لم يعد خوري القرية قادراً على الصمت، فكتب إلى أسقف أجاكسيو طالباً منه التدخل، فأرسل غبطته إلى كولومبا كارابيللي يدعوها لزيارته في أسقفيته.

وبما أن المرأة الشابة كانت كاثوليكية مؤمنة فقد امتثلت للدعوة وسلكت أكثر دروب الجبال وعورة والتي تصل أقصى جنوب الجزيرة بأجاكسيو. وما أن

وصلت المدينة حتى توجهت إلى حيث دعاها الأسقف الذي سارع إلى استقبالها. تلك الشخصية العذبة قدمت مرافعة من أجل اللجوء إلى السلام ونصحت كولومبا بأن يكون للصلاة الأولوية على البندقية. على الرغم من كل الاحترام الذي تكنه للأسقف، فإن هذه المتمردة لم تنخدع بالكلام وقالت له:

"إن طول الطريق والرحلة الشاقة التي قمت بها تشهد بالاحترام وبالإعجاب العميق اللذين أكنهما لشخصكم ياسيدي وللوظائف التي تشغلونها. كنت أعرف قبل أن أغادر فوزانو ما تريده مني. إنك تطلب مني المستحيل! يصعب علي ألا أمتثل لرغباتكم؛ لكني أقدر أن حزبي لم يحقق ما يكفي من الانتصار لكي أمد يدي إلى أعدائي. ولا أخفيكم أنه راغب في الاستمرار حتى إنهاء الطرف الآخر. وأنا أدعمه بكل ما أوتيت من قوة مع معرفتي بأن الله يحرم الانتقام؛ لكن الانتقام ياسيدي، هو هوىً أكثر حدة وتسلطاً من الأهواء الأخرى، وهو متجذر في أخلاقنا لدرجة عدم قدرتنا على التخلي عنه. تقول لي " إنك لاتصلين بالقدر الكافي". بلى ياسيدي إنني أصلي. وأحفظ صلوات الكنيسة ظهراً عن قلب. لكني أجد أن أجمل الصلوات أيضاً هي الانتقام الجميل."

تقول الرواية أن الأسقف، أمام هذا الخطاب، لم يعرف كيف يرد، وغطى وجهه بيديه تعبيراً عن الهزيمة.

عادت كولومبا كارابيللي إلى قريتها فوزانو. لاشك أن ابن العمدة قد علم بزيارتها إلى الأسقفية فذهب إلى بيت كارابيللي. لما رأته إحدى الخادمات انتابها الهلع ـ لأن العمدة ينتمي إلى العائلة المعادية — فصعدت السلم مسرعة لتعلم كولومبا. فسألتها هذه الأخيرة بلا مبالاة:

ـ "هل يحمل سلاحاً؟

ـ كلا، على ما يبدو.

ـ إذاً أدخليه!

حينما دخل الشاب الغرفة، كانت كولومبا جالسة في إحدى زوايا الموقد

تطرز باطمئنان. تفرست فيه: كان أعجر أي كثير العقد، ومتماسكاً. فقالت كولومبا في نفسها: إنه كورسيكي حقيقي.

- "ماذا تريد مني ؟

- السلام!

عركت كولومبا حاجبيها. لكن ابن العمدة تابع قوله باندفاع:

- " نعم، السلام! أعرف أنك لو قلت كلمة واحدة لأطاعك محازبوك! هذا السلام، يريده جميع من في القرية.

- من أرسلك؟ أهو والدك ؟

- لا، جئت بمبادرة من تلقاء نفسي. جردي قومك من سلاحهم، وأنا أتكفل بجماعتنا!"

ارتجفت عين كولومبا الزرقاء. وبدا التهكم واضحاً في نظرتها.

- "لست سوى حالم! لن أجرد جماعتي من أسلحتهم أبداً!

- هل فقدت الرحمة والطيبة إذاً؟

- إنني رحيمة وطيبة إزاء من تجري دمائي في عروقهم أو إزاء الأوفياء لي!

- وهل أنت متأكدة إلى هذا الحد؟"

عند هذه الكلمات نهضت كولومبا فجأة. فتراجع ابن العمدة رغماً عنه.

- "لاتخش شيئاً! طالما أنك في بيتي فأنت أقدس عندي من أطفالي. لكن احذر حينما تصبح خارج هذا البيت!

غادر الشاب الحجرة. نزل السلم الحجري المظلم ودفع الباب الخشبي المسمر الثقيل. بهرته الشمس التي كانت تلهب ساحة الكنيسة. وضع يده فوق عينيه وارتقى الطلعة التي تؤدي إلى الحارة العليا. انطلقت رصاصة. فمات حتى قبل أن يصل جسمه الأرض وجرت ساقية من الدم القرمزي بين حجارة الساحة.

قتلته كولومبا. لكن أحداً لم يرها وهي تطلق النار، ولا يمكن لأحد من سكان الحارة السفلى أن يوجه إليها الاتهام. كما لن يجرؤ أحد على اتهامها

لاحقاً بعد ارتكاب جريمة أخرى. في ذلك اليوم كانت المرأة الشابة جالسة بالقرب من أحد النوافذ وهي ترضع آخر أطفالها، فرانسوا. فجأة لمحت رجلاً مسلحاً يطوف حول جدار الحقل قريباً من مقبرة عائلة بارتولي، حلفاء عائلة كارابيللي. ماالذي يفعله هنا؟ وماذا يريد؟ وحينما استدار نحوها عرفت أنه من العائلة المعادية. في الحال سحبت بندقيتها المركونة قرب النافذة، وقفت ودون أن تضع طفلها، أسندت أخمص البندقية إلى وركها، وأطلقت بيد صلبة دون أن تسدد على هدفها. الرضعة لم تنته! الصغير فرانسوا مايزال جائعاً.

كبر فرانسوا كارابيللي. ورث عن أمه طبعها الحماسي والحربي.. وكان يحسن استعمال الخنجر بمقدار ما يحسن استعمال الأسلحة النارية. لم تتوقف نيران الانتقام في فوزانو مع مرور السنين. لاسيما وقد اختلطت بالمشاجرات الانتخابية. حينما نجح بارتولي، زوج كولومبا في تولي منصب العمدة على حساب عائلة دورازي، قدم له هؤلاء الخاتم البلدي ومفاتيح بيت البلدية في تابوت.

في صباح ما قبل اليوم الأخير من عام ١٨٣٤، كان فرانسوا كارابيللي وأحد أبناء عمومته، الملقب بمانسو، يغادر القرية وكانا يحلمان سراً بمقارعة عائلة دورازو، ويأملان ملاقاتهم بالقرب من تونيشيلا، وهو عبارة عن حقل قريب من غابة ألسيتو المطل على وادي باراتشي. كلاهما كان مسلحاً ببندقية ومسدس وخنجر.

وصلا إلى تونيشيلا. لكن ترى ما الذي حدث بعد ذلك؟ حوليات تلك الفترة تختلف في رواياتها، تبعاً لعائلة كارابيللي أو عائلة دورازي. رواية الطرف الأول تقول أن الثانية نصبت لهم كميناً. وهو بطبيعة الحال ماتنكره الثانية. بل هناك اختلاف على عدد كل من الطرفين. على أية حال، فإن تبادلاً لإطلاق النار قد بدأ فوراً. وقع اثنان من عائلة دورازي، وأصيب مانسو بجرح خطير. وبينما كان فرانسوا منحنياً فوق جسم ابن عمه أصابه طلق بدوره أيضاً. ركض جان بول، وهو أحد أبناء عائلة دورازي، للإجهاز عليه. ابن كولومبا نام

مستلقياً على ظهره المدمى فوق الأعشاب الجافة. وحينما وصل عدوه لم يرمش له جفن. صوب جان بول مسدسه نحوه، لأن فرانسوا استفزه على ما يبدو. لكن ذراع دورازو سقطت، إذ لايجوز أن تضرب خصماً واقعاً على الأرض. فعاد أدراجه.. وقال جان بول في نفسه، إذا نجا منها، فهنيئاً له. لكن فرانسوا كارابيللي مات بعد فترة وجيزة.

كانت أجراس فوزانو تقرع بعنف. أمضت كولومبا الليل كله في السهر على جثة ابنها الحبيب. لم تكن تبكي ولا تتأوه بل تؤلف أكثر المرثيات التي أنشدتها تأثيراً. فاقشعرت أبدان كل من سمعها. لأن كولومبا كانت تنشد بدمها.

تم دفن فرانسوا. واستراح في مصلى صغير بني في منتصف حديقة منزل كارابيللي. مذبح مبيض بالجير، وصليب وشمعدانان. النافذة الوحيدة تتيح النظر إلى الوادي وخليج فالينكو. هنا كانت كولومبا تحبس نفسها في أغلب الأحيان. ولم يكن أحد يجرؤ على قطع تأملاتها. أحياناً كانت تنشر فوق الأرض الملابس المبقعة بالدم التي كان فرانسو يرتديها يوم مقتله. كانت تجثو فوق جثته وترتل مرثيتها الرهيبة التي كانت تثير الرعب في نفوس سكان بيت كارابيللي.

بعد أسبوع على تبادل إطلاق النار، تم اغتيال أحد رعاة عائلة دورازو. وعاد الثأر من جديد. لم تكن يد كولومبا ترتجف حينما كانت تقدم الموت إلى أعدائها.

ألقى رجال الدرك القبض على جان بول دورازو. وبعد اتهامه بالقتل تمت تبرئته من قبل قضاة باستيا حينما لاحظوا أن الشاب ورفاقه قد تم الاعتداء عليهم فقاموا بالدفاع عن أنفسهم. كانت كولومبا تصيح من شدة اليأس. كيف تؤمن بعدالة البشر؟ ليس هناك عدالة سوى عدالة الانتقام.

لكن التعب بدأ يصيب نساء قرية فوزانو ورجالها. فقد سال الكثير من الدم والدموع. فطلبوا مساعدة أسقف أجاكسيو، غبطة الأسقف كازانيللي ديستيرا، وحاكم الجزيرة البارون لالمان. وتم فرض السلام. أما كولومبا فقد

اضطرت للانصياع بعد عزلها وتنازل جماعتها عن حقوقهم. بعد أن حرمت المرأة من انتقامها، راحت تطوف الغابة فوق حصانها وبندقيتها لاتفارقها أبدا وهي متلفعة بالسواد. غالباً ما كانت تحط رحالها في تونيشيلا، حيث هناك نصب يذكرها بالمكان الذي سقط فيه فرانسوا كارابيللي.. كانت تعود إلى القرية ليلاً لكي تهرب من أنظار الثرثارين. لم تعد كولومبا تبحث عن الشفقة ولا عن العزاء. إنها تريد البقاء وحيدة مع تعاستها وعارها لأنها لم تتمكن من الانتقام لابنها. كان ظلها الأسود يثير الرعدة في أطراف بعض المارة النادرين. وكان الأطفال يرسمون إشارة الصليب عندما كانت تنبثق في الليل.

في عام ١٨٦١، أي بعد سبعة وعشرين عاماً على موت فرانسوا، وهن جسم المرأة العجوز فجأة. وصارعت الموت خلال خمسة عشر يوماً وهي جالسة بالقرب من إحدى النوافذ.

تقول حكمة كورسيكية: "حيث تسدد العين، الرصاص يقتل". قبل أن تواتيها المنية في الساعة الخامسة مساء رفضت للمرة الأخيرة الصفح عن أعدائها.

تم دفن كولومبا كارابيللي في مصلى البيت العائلي بالقرب من ابنها.

هناك مرثية تتردد في فوزانو تقول:

"رأيت الدم فوق الصخور وفي الجداول. الغربان وحدها تصيح جذلانة بين الريحان

لكن الأرامل والأطفال يبكون على أطراف البيوت المقفرة".

❁ ❁

قصة امرأة مُفسِدة
إميل زولا ورواية (نانا)

هي ابنة البؤس الأسود الذي كان يخيم على الأحياء الباريسية الشعبية خلال القرن التاسع عشر، حيث يتوافد العمال لنسيان ضيق حالهم إلى تلك "الخمارات المريبة"، والمقاهي التي تقدم شراب الأبسنت القاتل.

الأب الحقيقي لآنا يدعى أوغيست لانتييه الذي هجر أمها بعد أن أغواها. وهي جيرفيز الغسالة الشابة الجميلة. ابتليت بالعرج نتيجة وراثة كحولية طويلة. على الرغم من الأطفال الذين أنجبتهم من لانتييه، فقد تمكنت المرأة الشابة من الزواج بعامل شريف اسمه كوبو. ، لكنه أصيب بدوره بحادث عمل وحكم عليه بالكف عن العمل بشكل مؤقت، فغرق في شرب الكحول، وأصبح رفيق جلسات سكر لانتييه، وهي فرصة استعاد من خلالها حظوة جيرفيز الضعيفة. فانتهى الأمر بالغسالة الساقطة إلى امتهان الدعارة. أما آنا، التي كان الجميع يسمونها نانا، فقد هربت من بيت العائلة.

كانت نانا مخلوقة رائعة، قررت الانتقام من الحياة ومن الرجال. فأصبحت تفترس الذكور والنفوس بكل الوسائل، مجسّدة بهذا المرأة الخالدة التي تستخدم جسدها سلاحاً وحيداً لتحقيق انتصاراتها.

في بداية هذه الرواية التاسعة من سلسلة (روغون ماكار) التاريخية للروائي الكبير إميل زولا، امتهنت نانا الغناء والتمثيل في برامج المنوعات. كان أوبريت (فينوس الشقراء) مقيتاً وصوت الممثلة نشازاً إضافة إلى تمثيلها السيء. لكن هذا كله لم يكن مهماً! فجمالها يضارع كل المواهب. ولم تكن عيون المشاهدين تنظر إلا إلى جسدها. انطلقت نانا، وكان أول من رعاها،

شتاينر المصري في غير المستقيم. لكنها سرعان ما تركته لتقع بين ذراعي الممثل فونتان، غير أن تجربتها معه كانت أليمة: فقد كان الممثل شرساً يضربها ضرباً مبرحاً مما أدى إلى قطع العلاقة بينهما. وهكذا سقطت آخر أوهام نانا وآمنت بأن لا وجود للحب، وأن الرغبة أهم منه. تلك الرغبة الوحشية التي كانت تقرأها في عيون الرجال الذين ما إن يرونها حتى يشتهونها في الحال.

وبالتالي فقد اختارت نانا سلوك الإغراء بوعي منها، فحولته إلى فن، إلى دين. كاهنة الجنس هذه، تركت جسدها بين أيدي الرجال، لكنها لم تكن تسلم نفسها بالكامل، وقررت أن تدمرهم تماماً بدم بارد لمصلحتها. ضحيتها الأولى كان الرجل الأنيق فاندوفر، المغرم بالملذات. بعده لافالواز، وهو رجل مدع وغبي. بعد ذلك جاء دور الكابتن هيغون الذي تعلق بها لدرجة أنه سرق أخاه ليستمر في الولوج إلى سرير تلك المومس. كان الرجال كالفراشات يحرقون أنفسهم بلمس جسدها المشتعل. انتحارات، ومآس رافقت صعودها. الكونت موفا، حاجب الإمبراطور نابليون الثالث، وقع بدوره في أحابيلها. لقد كان شخصية مغرورة ومتزمتة، هذا الأرستقراطي الذي يمثل المجتمع غير الأخلاقي والانتهازي الذي ميز الإمبراطورية الثانية، المغرم بالمال، كان ضحية ممتازة. من خلال إهانته وخيانته وطلب الهدايا الفاخرة، وعبر الطلب إليه بأن يبني لها قصراً خاصاً باذخاً، فقد كانت ابنة عامة الشعب تنتقم لنفسها ولأبناء طبقتها. كانت أداة للإفساد، فدمرت عائلات، وحيوات وثروات. وكانت تجد في كل هذا سعادة مرة: "لم يعد هناك احترام، انتهى عهد الاحترام! القذارة تحت والقذارة فوق، إنها القذارة ونظيراتها دائماً!" وأحياناً كانت، وكأنها تشعر بتبكيت الضمير، تسلم جسدها مجاناً لعشيق عزيز عليها. بحجة وحيدة هي كونه فقيراً.

لكن نانا، وهي تدمر الآخرين، انتهت إلى تدمير نفسها. فماتت في غرفة فندق قذرة. جسدها، هذا الجسد الرائع الذي طالما جن به الرجال، أصابه

الجدري الأسود فراح يتفسخ. في الخارج كان الشارع يعج بالجلبة حيث أعلنت الحرب على بروسيا. وعما قريب ستندثر الإمبراطورية ومعها عالم البذخ والرذيلة. لكن تحت هذه الجيفة التي ستوارى التراب كيف للمرء أن ينسى ذلك الجمال الخالد الذي وصفه زولا على النحو التالي: " كانت نانا شعراء يحول الزغب الأصهب جسدها إلى جسد من المخمل؛ بينما في عجزها وفخذيها اللذين يشبها فخذي الفارسة، وفي الانتفاخات اللحمية المحفورة بالطيات العميقة التي كانت تغطي فرجها بظل محيّر، كان هناك ما يشبه الحيوان. ذلك الحيوان الذهبي غير الواعي كقوة رائحتها التي تفسد العالم. "

كائن من لحم، نعم. قبل أن يقوم زولا بكتابة هذه الجدارية العظيمة، قام كعادته بتحقيق حول عالم الرذيلة والغرام. وراح يقوده مؤلف مغناة هوفنشتاين، لودفيغ هاليفي، بالتردد على كواليس المسارح وصالونات "البغايا"، وأشهرهن كورا بيرل، وبلانش دانتينيي وأنا ديليون ودلفين دوليزي. استمع إلى الكونتيسات المزورات، والجميلات الحقيقيات، وسجل كلماتهن الطيبات وتابع تصرفاتهن، واستدرج خادماتهن للحديث عنهن. بعد نهاية استطلاعه، كتب في دفتره الصغير: "مجتمع بأكمله يهجم نحو الجنس. رهط من الكلاب يركض خلف كلبة لاتطلب السفاد وتهزأ بالكلاب التي تجري خلفها. قصيدة رغبات الذكر هي الرافعة الكبرى التي تحرك العالم. لم يعد هناك سوى الفرج والدين".

نانا فتاة صهباء. كما كانت البغي فالتيس دولافيني صهباء. من بين المومسات اللواتي التقاهن، لاشك بأن هذه الشهيرة الدنيوية إلى حد ما، هي التي استلهمها مؤلف نانا سواء من الناحية الجسدية أم الأخلاقية. استلهم أولاً طفولتها التي تشبه في تفاصيلها طفولة بطلة الرواية.

ولدت لويز دولافيني في باريس عام ١٨٤٨ في أحد الأحياء العمالية[١٤]. أمها، إيميلي، وهي نورماندية صلبة شهية، كانت تعمل غسالة أو كواية ملابس. ويقال أنها ذات فخذ سهل. أنجبت سبعة أطفال من أحد أبناء "قريتها" المقيمين أيضاً في العاصمة، لكن إيميلي تعبت من إدمانه الكحول وكسله، فقررت تركه لتستقر مع أطفالها وأمتعتها في الطابق الأخير من بناء متواضع في شارع بارادي بواسونيير.

الحياة قاسية والرعاية الصحية بدائية والفقر متفش. لذلك كانت إيميلي تمارس البغاء في بعض الأحيان لتحسن وضعها المادي. لكنها كانت أماً طيبة تسهر على أولادها. لويز ذات الشعر الذهبي، والجلد الأبيض الطري والفم المتمرد، كانت الأقرب إلى قلبها. لقد تنبهت الغسالة إلى جمالها الناشيء وتوقعت لها مستقبلاً مضيئاً.

تعلمت لويز كل أخلاق الشارع. وسرعان ما أتقنت لغته وعاداته ورذائله. اكتشفت الجانب الشعبي من باريس التي كانت تخترقها مشاريع قائد المنطقة هوسمان الضخمة. فتحت طرق جديدة، ونمت أبنية حجرية كالفطر على طول الشوارع العريضة. وكانت الأموال تنتشر بلا حياء. لكن الظروف العمالية لم تتغير. كان عمر لويز عشرة أعوام حينما انخرطت في أحد مشاغل الغسيل والكي التي تعد أمكنة لتأهيل الحسان على البغاء. كان عليها الهرب من رغبات البالغين ومن أيديهم الضخمة. وفهمت الصبية أن جمالها سيكون أكبر رأس مال لها.

بعد ثلاثة أعوام، اشتغلت لويز في أحد مشاغل الألبسة الجاهزة، وترقت لتصبح سريعاً آنسة المشغل. ألم تتوقع لها أمها مصيراً باهراً؟. لكن لويز لم تكن بالتأكيد قد خلقت للتجارة أو النسيج. هل يعود ذلك إلى الحي وصحبة

---

(١٤) هذا السرد يدين بالكثير للسيرة الذاتية الرائعة التي كتبتها يولاند دولابينيي عن فالتيس دولافينيي (وهي ليست من سلالتها على الإطلاق) وقد نشر هذا الكتاب في عام ١٩٩٩ لدى دار نشر بيران، حيث يرسم لوحة رائعة لأخلاق البغايا في تلك الفترة.

كل تلك الحسان اللواتي يذرعن أرصفة هذا الحي المحكوم عليه بالبغاء؟ أم وجود عشيق جديد لأمها، وهو سكير يضربها؟ هربت، والتقت بورجوازياً مسناً موسراً. ربما وجدت فيه حامياً لها. وهكذا استسلمت الجميلة الصهباء. بعد أن سرق هذا "العجوز" بكارتها وأوهامها، سرعان ما هجرها بعد أن استولى عليها. تركت لويز المحل، واكتشفت نعومة خدر الكحول. ومن الآن فصاعداً، أصبحت تصبغ وجهها وتحمر شفتيها وتذرع شوارع العاصمة بحثاً عن زبون. من بساتين الليلك Lilas إلى الشوارع الكبرى تعلمت حيل أقدم مهنة في العالم. كانت تسلم نفسها خلف كشك صغير، أو في حديقة، أو خلف ظل باب عربة أو تتمرغ في غبار أرض غير مزروعة. حينما يبزغ الفجر، كانت لويز، الثملة في أكثر الأحيان، تنام حيث يتملكها التعب. لكنها لم تكن تنام دائماً لمدة طويلة، إذ كان عليها باستمرار أن تحرص على ألا يلقي جنود المدينة القبض عليها، ولو تم هذا عليها، فقد تفيّش وتقاد إلى سجن سان لازار حيث يبدؤون هناك بقص ضفيرتها النارية الرائعة.

مازالت لويز مراهقة لكن يبدو أن مصيرها قد تقرر. الكحول والدعارة والمرض. أما البؤس فحدث ولا حرج. الأحد، حينما تذهب إلى حفل (مابي) الراقص بحثاً عن زبون كريم، كطالب أكثر ثراء من بطانته، كانت تنظر إلى الأزواج وهم يرقصون. تلك الصبايا اللواتي يرفعن سيقانهن في أثوابهن الحريرية. قد يحدث لبعضهن، وهن حسناوات مثلها، أن يلاحظها مدير مجلة باحث عن ممثل صامت. بوماريه وموغادور بدأن بهذه الطريقة. لذا لابد وأن تكون عارفة بالرقص. عليها أن تتعلم إذاً..

في القفزة الأولى، عملت لويز نادلة في أحد مقاهي النساء في شارع الشانزيليزيه. عمال هذا المقهى كلهم من العناصر النسائية والجميع يعرف أن البنات في الصالة لسن شرسات أبداً. بعد وجبة (الشوكروت) التقليدية التي تختتم بها الأمسية، نادراً ما كان الزبون يخرج وحيداً. غمزة عين، لمسة يد، حركة خصر جميلة، كل هذا كانت لويز تتقنه. المدرسة الحربية كانت قريبة،

والنادلة الشابة كانت مهتمة بهيبة البزة العسكرية وبوعود الضباط الجميلين ذوي الشوارب الملمعة الذين يترددون على المقهى. لكن من استولى على اهتمامها، وعلى قلبها، لم يكن عسكرياً على الإطلاق. ريشار ذو العشرين ربيعا، كان شاباً ينتمي إلى عائلة جيدة. تعلق بلويز وأراد الزواج بها وإنجاب الأطفال، أي بناء عش للزوجية.. كانت المراهقة ـ في الثالثة عشرة من عمرها ـ تستمع إلى عشيقها باسمة. كان وديعاً ومحبباً.

للمرة الأولى في حياتها، تكتشف لويز رجلاً لايقسو عليها ويتمهل في الحديث معها، ولا يتهرب منها فور الاستمتاع معها. تصورت نفسها بورجوازية. رضينة! لكن سرعان ما تبخر الحلم. ليس لأنها قطعت علاقتها بريشار بل لأنها غير قادرة على الانقطاع عن ملذات المدينة: الشراب والرقص واللقاءات، أي باختصار، السكر. التقت ممثلاً اقترح عليها لعب دور صامت في مسرح سان جيرمان. أخيراً، ستصعد على خشبة المسرح! ولويز كانت تعرف جيداً أنها تفتقر إلى أية موهبة. لكنها جميلة جمالاً لابد وأن يلاحظه الناظرون. ولم تشك أبداً في أن القاعة ستضم ذات يوم موهوباً ثرياً سيفتن بها.

اهتمت بتسريحتها، إضافة إلى الثوب والفساتين والقبعات لأنها كلها تشكل وسائل تساهم في إبراز جمالها كصهباء مثيرة ذات عينين زرقاوين. وداعاً أيتها الغادة الماجنة! فدخول لويز إلى المسرح يشكل خطوة للارتقاء نحو عالم الغرام الصغير. لأن هذا هو المقصود. مسارح تلك الفترة كانت أماكن مفضلة تعرض فيها "المومسات" التي تم انتزاعهن من الشارع مفاتنهن على الرجال. لكن هذا الأمر لم يمنع لويز من الاستمرار في مناجاة ريشار.

أول من تنبه إليها كان السيد سويغ. كان قبيحاً مكرشاً لكنه يعرف كل مدراء المسرح. لويز التي لم تبخل بجسدها أبداً سلمته له برضاها وتلقت جائزتها فوراً: وهي العمل كممثلة في مسرح ليبوف باريزيان. بهرت وهي تكتشف عالماً جديداً. فراحت تعاشر الساعين إلى الملذات و"الأسود" والصحفيين، مجتمع مرح لايهتم بشيء سوى شغفه بالملذات السهلة التي لها

أسعارها: النموذج يبدأ من الأعلى إلى الأسفل: نابليون الثالث يتنقل من محظية لأخرى. إنه صورة جديدة عن لويس الخامس عشر، محب مفجوع للأجساد البضة. كانت تنظم من أجله لوحات حية: ممثلات شابات شبه عاريات يقفن لمتعة الملك قبل أن يشاركنه مخدعه الإمبراطوري.

هل فعلاً لاحظ نابليون الثالث فعلاً عروس البحر المثيرة تلك، المحاطة بهالة من الشعر الأصهب الذي كان ينزل كالشلالات فوق نهدها العاري؟ التاريخ لايذكر هذا. لكن لويز، الداهية استغلت تلك الأسطورة. فكانت تلمح، وتروي بل وتقدم بعض التفاصيل. إن ممثلة تمكنت من الحصول على آخر أفضال الملك لايمكن أن تكون مخلوقة عادية. بعد أن أصبحت لويز تسمى، فالتيس دولا بينيي أكدت الحكاية وطلبت واجهة زجاجية تمثل غرامياتها الإمبراطورية.

ماذا عن ريشار؟ إنه دائماً هناك. محب يقظ وحام لها. ترى هل كان يجهل قصص جميلته؟ هل يجهل طموحها؟ بالتأكيد لا. لكنه لم ييأس من الأمل في الزواج من جميلته ذات يوم. وقرر أن يبدل نمط حياته مع الجميلة فبدأ بجعلها تنجب منه الأطفال. في عام ١٨٦٧ وضعت لويز جوليا باكريت. وفي السنة التالية، جاء دور فاليري ألبيرتين. طفلتان هزيلتان هشتان لم تعرهما لويز أي اهتمام على الإطلاق. ما إن ولدتا، حتى أوكلت أمرهما إلى إحدى المرضعات، ثم انتقلتا إلى حضانة أمها إيميلي دولابينيي. لم تكن الممثلة تملك نسيج الأمومة، ولم تكن لديها أدنى رغبة في تدليل الأطفال.

"لنتزوج !". كانت لويز على وشك الموافقة. أخيراً سينتصر ريشار. لكن العاشقين نسيا أن للشاب عائلة. ثارت ثائرة الوالد: لايمكنك الزواج من عاهرة! ولدت سفاحاً! ولايهمه أن تكون هاتان الطفلتان من صلب ابنه. تم إرسال ريشار الضعيف بعد جلسة عائلية إلى الجزائر. وهناك سيجد زوجة جديرة بمرتبته الاجتماعية. أما لويز، بعد أن ذرفت بعض الدموع، فقد وجدت عزاءها بين ذراعين أكثر صلابة ورجولة. لم يكن لديها أي وهم. لكنها كانت

قوية بتجربتها في مهنة الغرام، فقررت أن ترتقي أعلى درجات السلم لتصبح من تلك النساء نصف الدنيويات اللواتي يفلس الرجال من أجلهن.

باختصار، عليها أن تكتسح باريس!

فجأة تحولت لويز إلى فالتيز. لكن لم هذا الاسم؟ ببساطة لأنه تركيب من العبارة (فوتر ألتيس، أي سموك). قضي الأمر: لويز، تلك المومس الصغيرة التي كانت تسلم جسدها لقاء بعض القروش، ستصبح ملكة المحظيات. ولن تقبل بأقل من هذا.

في عام ١٨٦٩ عادت فاتيس إلى مسرح ليبوف باريزيان. وقامت بدور خادمة في مسرحية (أميرة تريبيزوند). كان الدور متواضعاً، ولم تتشكل بعد موهبتها، لكن جسمها واتساقه ترك أثراً كبيراً: بعد أربعة أيام فقط على عودتها إلى الظهور، قام الثري المشهور أوفينباخ بالتعاقد معها! بالنسبة لمن ستصبح محظية في المستقبل، كانت ضربة معلم: سرعان مافتن المؤلف بها وسحره جمالها. طلق فوراً صديقته الفاتنة الجميلة زولما بلانشار على الرغم من أنها أنجبت له طفلين. هذه المرة انطلقت فالتيز نحو الأفضل. وصفها المؤرخ أرسين هوساي على النحو التالي: "قامتها متوسطة، ربلة مذهلة، أنفها مستقيم وناعم، عيناها مضنيتان يعلوهما حاجبان قاتمان وشعر رائع حالم، ثقيلة كحزمة قمح، تشبه حزمة من أشعة الشمس".

أوفنباخ المدله بها، والمعروف عنه بخله الشديد، اصطحب سيدته إلى إيطاليا وأنفق بلا حساب من أجل عيني فالتيز الزرقاوين الجميلتين. سرعان ما أدركت زوجته المجاملة الخطر. تحملت زولما، لكنها لن تسمح لفالتيز، التي رأت أنها قادرة على فتن زوجها. فسافرت إلى إيطاليا بدورها ولحقت بالعاشقين في الفندق الذي ينزلان فيه. فتوارت المحظية باحترام. لأنها كانت تعرف بأنها ستعثر على عشيقها حين عودته إلى باريس. كما أنها تعرف بأن هذه الفضيحة ستضاف إلى سمعتها باعتبارها امرأة شؤوماً.

بفضل افنباخ، تمكنت فالتيز من ارتياد الأماكن التي لابد أن يراها الناس

فيها. تتعشى في مطعم بينيون، ثم في مقهى الشهداء، وترقص في نادي هانتيغ، وتختلط بحشود مقهى تورتوني الأنيق حيث تتواجد الطبقة المثقفة في تلك الفترة من رسامين وكتاب وصحفيين. حينما أعلن عن اندلاع حرب ١٨٧٠، كان على أوفنباخ أن ينفي نفسه لأنه من أصل ألماني. ولم تهتم فالتيز بذلك لأنها وجدت من يحل محله.

القادم الجديد كان أميراً: هو الأمير ليبوميرسكي، الذي دعوه أصحابه تحبباً بلورسكي في مجتمع الموضة. لقد سبق لهذا الشاب الخليّ المرح وأن أنفق ثروته على النساء والاحتفالات. لكنه ورث مرة أخرى ثروة جديدة آلت إليه بعد موت جده، وأصبح ثرياً مرة أخرى. وراحت فالتيز تشجعه بمنهجية (وحب) على الإفلاس. بدأ الأمير بإسكان عشيقته في شقة في شارع سان جورج، ثم راح يشتري لها الملابس ويغطيها بالحلي ويخرج معها. في تلك الفترة التي أعقبت الحرب كان الجو جو أفراح. فكانا يتنقلان من مطعم لآخر. لكن فالتيز لم تعد تظهر على المسرح بل كانت تجلس بارتياح في لوج ملتصقة بأميرها تصفق لرفيقاتها السابقات وتتذوق نجاحهن.

بعد عامين، أفلس لورسكي تماماً. ومن لا يملك المال لايملك الجسد. أما القلب فلا مجال للحديث عنه: فالمرأة الشابة مهنية مدربة لاتنوي إفساد مهنتها. ثم إن العشيق اللاحق ينتظر في صالونها، اسمه ميّو الملقب بالمليونير، اسم على مسمّى، فهو ابن أحد رجال المصارف. روحت عنه فالتيز ببضع عشرات الآلاف من الفرنكات قبل أن تدس في فراشها جنرالاً غنياً من جنوب أمريكا.

كانت المومس تتسلى بكل هؤلاء الرجال الذين ينتظرون في منزلها ويتنافسون للظهور وهي تمسك بذراع أحدهم. لكنها كانت نملة أكثر من كونها صرصاراً: فقد جاء في أحد تقارير الشرطة أن فالتيز قد جمعت خلال خمسة أعوام ثروة تقدر بثلاثمائة ألف فرنك (ما يعادل ست ملايين فرنك اليوم - قبل التحول إلى اليورو - م).

بعد أن كونت فالتيز ثروتها، وركبت لها اسماً، حيث أصبحت تدعى من الآن فصاعداً "دو لابينيي ـ وعما قريب ستحصل على لقب كونتيسة وترفع أعلام العائلة ـ إضافة إلى بناء أسطورتها وتلميع صورتها. وبدهائها قامت بالتعتيم على ماضيها ومواهبها الشبقية السرية، وأطلقت على نفسها لقب "الشعاع الذهبي" واختارت لوناً مقدساً هو الأزرق وشعاراً هو (Ego). وبذكاء قررت تثقيف نفسها. لقد أدركت فالتيز دولابينيي أنه ينبغي على عقلها أن يكون بمستوى جسدها. تعلمت الكتابة دون أن ترتكب أخطاء إملائية وبأسلوب رفيع، وراحت تقرأ بشغف، وتعلقت بالرسم (والرسامين بطبيعة الحال!)

كانت فخورة بكونها مومساً مثقفة وحققت بذلك حلمها: وفاقت شقيقاتها بالغنج. وبذلك أصبحت فالتيز ملكة باريس.

في عام ١٨٧٥ دخل أمير جديد حياتها وسريرها. كان عربون العلاقة قصراً صغيراً خاصاً رائعاً في شارع مالزيرب. أمير ساغان هذا، المنحدر من عائلة تاليران، كان يعيش حياة بذخ. أناقته المترفة وملابسه الباذخة ومرافقته الفخمة كانت تذهل أهل باريس كلهم. كان مولعاً بالسباحة وهو الذي أدخل إلى فرنسا ال steeple-chase، وكان يمسك بزمام ساحة سباق الخيل في أوتوي. مع أمير السباق والموضة وضعت "الكونتيسة " فالتيز دولابينيي قدمها في العالم الكبير. وحرصت على ألا تخرج منه أبداً على الرغم من سمعتها ورغبتها الجامحة في الاستقلال. لأنها لم تعد تعطي بل تأخذ! لاشك في أن رغبة الثأر لم تنطفئ في صدرها. إنها تكره أولئك الرجال الذين أخذوها ذات يوم على حين غرة في ركن أحد الأبواب، أو فوق قذارة أرض بور. تريد أن تنتقم من تلك الأيادي كلها التي لطختها وأذلتها.

فالتيز دولابينيي شرحت كل هذا بشكل صريح عام ١٨٧٦ في كتاب يحكي سيرتها الذاتية Isola: "كنت صغيرة وضعيفة فسقطت سقوطاً مدوياً لم أتمكن بعده من النهوض. لقد أصدر العالم حُكمهُ عليّ. قلت في نفسي حسناً. إنكم تمنعونني من الصعود إليكم، ليكن، لكنكم ستهبطون حيث أنا. أولئك

الذين سأقول لهم "تعالوا"، سيأتون. ستصطفون وراء بعضكم البعض لكي ترونا، نحن اللواتي تسموننا منحلات، وكنتنّ تشرن إلينا بالأصابع يا أمهات العائلات الحذرة! حسناً سأستعيد أزواجكن وإخوتكن وأبناءكن وعشاقكن، ولكي يخففوا من احتقارهم لي سأجبرهم على جعلي أغنى منكن، لأنهم يدفعون من أموالكن وأموالهم ثمن خداعي لهم وسخريتي بهم. بثرواتكم سأشتري عائلة، وأهلاً وأصدقاء وأطفالاً، بل سأشتري العالم، إذا رغب جموحي في هذا. لقد أفقدني جسدي كرامتي، وعليه أن يغنيني لكي أستعيد شرفي ظاهرياً على الأقل."

فالتيز دولابيني كانت شديدة الوضوح. فهي تستغل الرجال وتكرههم في الوقت نفسه. لاشك أن هذه الكراهية العنيفة تفسر مواهبها الخاصة جداً، فقد كانت تحمل السوط في يدها، في دور المهيمنة وربما ذلك الميل نحو ما سيعرف لاحقاً باسم غراميات سافو [شاعرة معروفة]. اكتشفت فالتيز لدى أصحابها حتما النعومة والتواطؤ الذين لم يمنحهما ها الرجال.

في شارع مالزيرب، رقم ٩٨، تحول قصرها الخاص إلى معبد للحب، بفضل سخاء الأمير دوساغان، قام المهندس المعماري جول فافييه بمراكمة غرائب الموضة وحول المبنى إلى حلم من الحجر القوطي الجديد، يجاور بناء زجاجياً تنبت فيه الورود المستوردة. سلم ضخم رسمه شارل غارنييه (مهندس دار الأوبرا) يؤدي إلى رواق مبلط، تكسوه التماثيل المرمرية.. الزائر الذي يتم قبوله من أجل تحية الجميلة يتم إدخاله إلى غرفة انتظار مزينة بنوافذ زجاجية ملونة، وجدران تغطيها لوحات الحفر وتذكارات الصيد. سجاد سميك، وأقمشة مطرزة، وسقف من خشب السنديان، أثاث "تريانون". كل ركن يفيض بالتحف الثمينة. ديكور مبالغ فيه، وجو ثقيل خانق إلى حد ما. إلى اليسار، باب نصف مفتوح يؤدي إلى غرفة الطعام. حينما تدعو فالتيز دولابينيي أحدهم، تجلس على رأس الطاولة، في مقعد رائع مكسو بجلد قرطبة. إنهاملكة. الجدران تكسوها أعمال "أعزائها" الرسامين، وهم في الوقت

نفسه عشاقها مثل دوتاي، جيرفيكس. لكن هناك أيضاً لوحات لبودان وإنغر وكوربيه وفوران... لاشك في أن تلك التي سيسمونها "اتحاد الرسامين" لصحبتها لعدد كبير من الرسامين كانت صاحبة ذوق أكيد.

المقربون جداً فقط، يسمح لهم بالصعود إلى الطابق الأول، حيث أول ماتراه صالون صغير للسيدات يغطي جدرانه كريب صيني أسود مرسوم فوقه أسود وفهود ذات ألوان براقة وهي تصطاد طرائدها. في الصدر هناك مكتبة ضخمة: لأن فالتيز تقرأ وتريد أن يعرف الآخرون ذلك. لقد كانت قادرة على الاستشهاد برابليه مثلما تستطيع استحضار بودلير.

لكن جوهرة هذا الفندق الخاص كانت خلف الباب: هي الغرفة المترامية الأطراف، غرفة أميرية في وسطها سرير لا يمكن إلا أن يذهل من ينال حظوة الدخول إلى هذا المكان السحري. فهل يمكننا القول أنه سرير؟ لا، بل هو معبد مهدى للحب. يتموضع السرير فوق درجتين، يحيط به درابزين من البرونز، وتحيط بقبته الضخمة أجواخ مطرزة على الطريقة القديمة، ترتفع تحت سقف عال مزين بالرسوم. وهناك تمثال لإله الحب (كوبيدون) يعلوه مصباح يطير فوق هذا المخدع الملكي المخصص للمتعة. رأس السرير لايقل زخرفة: أغصان على شكل صولجان باخوس (إله الخمر)، وتيجان مذهبة، وهناك بطبيعة الحال، الشعارات الدالة على نبالة عائلة لابينيي[١٥]. يصعب على المرء ألا يتصور، وهو ينظر إلى هذا السرير، تلك المومس وهي متمددة فوقه بشكل مثير، نصف عارية، وسط ركام من الأغطية الحريرية! كما يصعب ألا يفكر المرء ببطلة رواية زولا، نانا، وبسريرها كما يصفه الكاتب:

"صُممت الغرفة لتكون مجرد إطار للسرير، معجزة تُبهرُ النظر. كانت نانا تحلم بسرير يعزّ نظيره، بعرش ومحراب، تأتي باريس لتتعبد أمام عريها الأخاذ. عرش من الذهب والفضة المطروقة، أشبه ما يكون بحلية كبيرة." ذات

---

(١٥) هذا السرير الذي كلف خمسين ألف فرنك في تلك الفترة، موجود اليوم في متحف الفنون الزخرفية.

مساء دعي زولا إلى مائدة فالتيز دولابينيي، حينما كان يحضر وثائقه لكتابة (نانا)، لكنه لم يحظ أبداً برؤية هذا السرير الشهير: "لأنه كان ملكية محمية وسيداً". للدخول إلى خفايا غرفة النوم العجيبة تلك، لابد من وضع هدية ضخمة فوق الموقد الضخم، فهي وحدها المفتاح إلى رضا سيدة البيت. مع العلم أن فالتيز قد قبلت في حالات نادرة أن تدخل إليها حبيباً عابراً.

الحقيقة أن المومس كانت تدير مشروعها بصرامة حديدية. معها دفتر صغير تدون فيه أسماء زبائنها، وتاريخ دخولهم وأذواقهم الغرامية، وحالة ثروتهم، والمبالغ المدفوعة. في بعض الأحيان، ترى حرف R يسبق اسماً ما. وهذا يعني أن فالتيز دولابينيي يمكن أن تسلم له نفسها مجاناً باعتباره صحفياً أو صاحب شركة إعلان، لأن هذا النوع من الزبائن يؤمن لها الدعاية ويساعد في تحسين سمعتها. وبالتالي زيادة عدد زبائنها.

هذا النوع من التجارة يفرض أكبر قدر من الجدية. ميلدولا، خادمتها تنظم الدخول والخروج.. في الغرفة سلم مخفي يتيح تجنب حدوث لقاءات مباغتة. أما ما تبقى من أمور، فهناك عدد كبير من الخدم: طباخة وخادم للمقصورة، وحوذي. حينما تخرج "السيدة" في عربتها التي كل باب من أبوابها مزين بأسلحتها، فإن الحوذي يضع حلة زرقاء مبطنة باللون الأحمر. وخادم المقصورة، الذي يلبس الزي نفسه، يظل واقفاً في مؤخرة العربة.

إضافة إلى ما تملكه المومس في باريس فقد ابتنت لها فيلا في منطقة فيلدافاري، وهي عبارة عن قرية ريفية، اجتاحتها اليوم ضواحي باريس. عمد بيتها باسم "شعاع الذهب". كان واسعاً ومضيئاً. نوافذه الكبيرة تطل على حديقة، حيث يصادف المتنزه فيه تماثيل نساء إنكليزيات عاريات بين الورود. أما في الداخل، فقد كانت الجدران مثقلة بلوحات كبار الفنانين. في هذا البيت الريفي الجميل كانت فالتيز دولابينيي تستقبل من تفضلهم من أصدقاء المرحلة. ملكة المومسات كانت في هذا تقوم بدور ماري أنطوانيت. ما أطول الزمن الذي يبعدها عن شارع ارادي بواسونيير والمبنى العتيق القذر الذي كانت

تفوح منه روائح البول والبؤس.

مع هذا فقد تذكرت الماضي فجأة وبشكل فظ. الماضي وعائلتها التي أبعدتها عنها منذ زمن بعيد. جوليا باكيرين تعيش عند جدتها في الريف (البنت الأخرى توفيت وهي معاقة). تكفلت المومس بمصروفها بل وكانت تتفضل عليها أحياناً بالزيارة. هنا تتوقف واجباتها كأم. عدم الاهتمام هذا أوحى بفكرة ماكيافيلية لأختها التي اتخذت اسم ماركيس، هي الأخت البكر لفالتيز التي كانت تدير أحد البيوت المغلقة: لماذا لاتطلب إيميلي دولابينيي الحضانة الشرعية لجوليا باكريت طالما أنها تهتم بها منذ سنوات طويلة. قالت في نفسها: لاشك أن ماركيس تخفي هدفاً ما، على الرغم من طبعها الريفي، فإن المراهقة قد تشكل مجندة مختارة لمؤسستها. تصوروا بالتالي أن تكون بنت فالتيز دولابينيي الشهيرة!

لكن المومس فهمت سر مشروع أختها، وأمها لم تكن مستعدة للتخلي عن حقها في رعاية ابنتها لأنها تريد إنقاذها من الزنى فأودعتها مدرسة داخلية محترمة. وبدأت التحذيرات، والمناكفات والمنازعات: وانتهت القضية أمام المحكمة. ربحت فالتيز القضية. لكن مقابل أي ثمن! الصحفيون الذين تابعوا المحاكمة انفجروا ضحكاً. إذاً كونتيسة دولابينيي ليست سوى ابنة غسالة وسكير! ياللسخرية! لكن على الرغم من السهام التي وجهت إليها في أعمدة الصحف، فإن فالتيز لم تكب وتجاهلت تلك الهجومات بصلابة، وتركت العاصفة تمر طالما أنها واثقة من نفسها. كونتيسة المشحونات المجانية بالتأكيد لكنها أيضاً ملكة الملاطفات، نعم! وموحية الفنانين والكتاب الذين يترددون إلى صالونها ويصلون أحياناً إلى الجنة، في غرفة نومها العجيبة. قام مانيه برسمها، مانيه الذي يصبح أيضاً صديقاً لها. المومس أجمل من صورتها. فهي لاتملك جسداً فقط بل العقل أيضاً. ليان دوبوغي، وهي "بغي" شهيرة كانت تلميذة لها وعشيقة تقول ذلك في روايتها الموسومة "غزلية سافوية" حيث تظهر فالتيز تحت اسم شفاف هوAltesse "أي سموّها":

"كانت تتمتع بذكاء ندر مثيله، وقوة شخصية وإرادة شديدة الإغراء. تمكنت ألتيس منذ شبابها المبكر من أن تصنع لنفسها مكانة رفيعة في الملاطفة الفرنسية. يحيط بها بذخ لامثيل له، وكانت تعيش حياة المومس ببرود، كانت باريس شديدة الاهتمام بها، وكان الناس يستشهدون بأقل الحركات التي تند عنها، أو يكررون النكات التي ترويها. إنك تنحدرين من جد شهير، قالت ذات يوم لسيدة عظيمة سقطت من مرتبتها الاجتماعية، الأميرة كونياروفيسكا التي كانت تمارس عادة سيئة هي الوقوف أمام الرسامين بتصنع لايليق بمولدها النبيل. حسناً أنا أصعد هذا أو ذاك، هذا هو الأمر". كانت مومساً وبقيت كذلك. لكن العمر راح ينتقم منها شيئاً فشيئاً. حينما أقبل القرن العشرون، كانت فالتيز في الثانية والخمسين من عمرها، لكنها مازالت جذابة، وتفكر بأن ترسم لنفسها نهاية قبل أن تغرب شمس جمالها. لكنها لم تقرر الانسحاب دون أن تحدث ضجة. بينما كانت تقوم ببناء قصر لها في فيل دافاري، باعت بيتيها (كانت تملك أيضاً فيلا رائعة في موناكو) وقصرها الخاص في شارع مالزيرب. نتج عن هذا بيع مثير بالمزاد العلني استمر أسبوعاً كاملاً. لوحات، أشياء ثمينة، وسجاد كل ذلك عرض أمام فضول الجمهور الباريسي. حتى سريرها الشهير كان جزءاً من المعروضات. للمرة الأولى، تمكن من لم يحصل على حظوة الاقتراب من مبنى الإثارة هذا أن يستمتع بهذه التحفة.

في قصرها الجديد، أطلقت فالتيز دولابينيي العنان لذوقها في التزيين واختيار الأعمال الفنية. ليس هناك بذخ زائد ولاغلاء فاحش. بل قامت المومس بدفع الإثارة (أو الوقاحة) لدرجة أنها طلبت من صديقها الرسام ديتاي بتصميم معرض لصور أجدادها الخياليين من عائلة لابينيي.

لم تعد فالتيز تتاجر بمحاسنها لكنها سمحت لنفسها ببعض العلاقات الرجالية أو النسائية. لاسيما وأنها قامت بدور بيجماليون جديدة، من حيث تدريب بعض المخلوقات الشابة والجميلة على حسن الملاطفة ثم إطلاقهن في العالم الكبير. هل اكتفت بأن تنقل إليهن "مهارتها اليدوية" العبقرية؟ أم كانت

تحقق بعض الفائدة من هذه "الرعاية الخاصة" جداً ؟. هذا مالم تذكره أية رواية أو أي تقرير من تقارير الشرطة.

كانت فالتيز تهيئ لنهايتها بهدوء وهي تعيش في قصرها أياماً هادئة. أصابت أوعيتها الدموية بعض المشاكل فعرفت عندها أنها في خطر، . وبما أنها رائية، فقد قامت بتشييد قبر لها في مقبرة فيل دافاري. صرح لايتخيله العقل يشرف على القبور الأخرى كلها : نصب عال يقوم على ثلاث ركائز من الرخام الأبيض يعلوه صندوق ينبعث منه دخان برونزي. كما أوصت على تابوت ثمين وطبعت فوقه نعوة الموت وأبقت مكان التاريخ أبيض.

في ٢٩ تموز ١٩١٠، كانت فالتيز دولابينيي في أسوأ حال. أخبرها طبيبها أنه لم يبق من حياتها سوى بضع ساعات. فكرست المومس هذه اللحظات الأخيرة لكتابة تاريخ وفاتها على النعوة وكتابة العناوين على المغلف. ثم أغفت بهدوء لتنام نوماً أبدياً.

بعد يومين، التحقت فالتيز بمقامها الأخير، تحملها عربة زينت بالبنفسج وتجرها أربعة أحصنة بيضاء. لم يقم لها أي طقس ديني: فالمومس قد برهنت طيلة حياتها عن مناهضة متعمدة لكل ما هو ديني. الأصدقاء والعشاق (منعت العائلة من المشاركة في الجنازة) ساروا وراء النعش. إنها أسطورة تتوارى. لكن السر باق: فوق القبر، وإلى جانب اسم فالتيز دولابينيي، حفر اسمان آخران: E. Una وL. M. Auriac. ترى من هما هذان المجهولان اللذان سيشاركان الجميلة الصهباء قبرها؟ هل هما رجلان انتحرا لأجل عينيها؟

الأسطورة مستمرة. حتى زولا، الذي توفي قبل وفاتها بثمانية أعوام، ما كان ليجرؤ على تخيل مثل هذه النهاية!

❁ ❁

القديس دون جوان

موليير: دوم جوان

"دون جوان" الإسم الذي شاع على ألسنة الناس، يعني، في القاموس "الغاوي عديم الذمة". والدونجوانية، " مرض نفسي ينطوي على البحث المرَضيّ عن مغامرات جديدة". باختصار الدون جوان كائن غير قنوع، متعطش للمغامرات والملذات الدنيوية، شخصية وقحة وخطيرة. مغرم بالحب وليس بالنساء اللواتي يتركهن ما إن يتمكن من إغوائهن.

قليلة هي الأعمال التي فسحت أمام شخصية أدبية المجال لولادة هذا الكم الوفير من الأعمال المختلفة و لهذا العدد من التفسيرات. ومرد ذلك بلاشك إلى أن شخصية دون جوان هي شخصية أسطورية عالمية تتجاوز العصور والثقافات.

في فرنسا برزت هذه الشخصية بقلم موليير في دون جوان أو مأدبة الحجر. بعد سنة على نشر المسرحية، استلهمها موزار ومؤلف مغانيه لورنزو دابونتي. ونظراً لطابع هذه المسرحية المثير فقد سحبت من المكتبات ولم تنشر طيلة حياة موليير.

دون جوان شاب وسيد صقليّ جميل، قام بغواية إلفير التي انتزعها من الدير وتزوجها. لكنه سرعان ما تركها سعياً وراء مغامرات أخرى. حينما عثرت المسكينة إلفير عليه وعدها هذا النذل بالتوبة. لكن اعتذاره كان شديد النفاق لدرجة أن المرأة الشابة غادرته وهي تهدده بغضب السماء. ركب البحر برفقة روحه الملعونة سغاناريل، لكي يسلب أحد المسافرين خطيبته. لكن المركب يغرق. وتشاء المصادفة أن يتم إنقاذ دون جوان على يد الشخص الذي

كان يريد أن يسلبه خطيبته. لكن هذا لم يمنع الغاوي من أن يعيد الكرة بعد أن حطت قدماه على اليابسة ويعد الجميلة بالزواج. لكن الحالة تتشوش، لأنه هو نفسه قد أقسم بأن يتزوج قروية أخرى ساذجة. تتشاجر الفتاتان. أما دوم جوان وسغاناريل فيلوذان بالفرار.

لحق إخوة إلفير بهما للانتقام فتنكر الشريكان للإفلات منهم. التقى دون جوان بمتسول، ووافق على أن يقدم له صدقة لو قبل بشتم [الله]. فصرخ هذا الأخير بكل ما أوتي من قوة. وبعد أن أعيته الحيلة ترك له دون جوان ليرة ذهبية.

بعد قليل، سارع دون جوان لنجدة رجل هاجمه اللصوص، وهُزم الأوغاد. شاءت المصادفة أن يكون هذا السيد أحد إخوة إلفير. بعد أن اعترف له بفضله عليه حدد له مهلة يوم واحد ليصلح الخطأ الذي ارتكبه بحق أخته. فيما بعد، وبينما كان يمر بجانب قبر فارس قتله قبل ثلاثة أشهر في إحدى المبارزات، قام بدعوة التمثال إلى العشاء. فانحنى التمثال النصفي.

بعد أن رفض دون جوان استقبال أحد دائنيه تعرض لتوبيخ والده، دون لويس الذي كان يأخذ عليه حياته الفاحشة. وهنا تظهر إلفير. كانت حزينة بعد أن قررت الدخول إلى الدير، توسلت إلى زوجها بأن يتقي الغضب الإلهي. لكن رجاءها ذهب أدراج الرياح.

تصنع دون جوان التوبة أمام والده، لكنه شرح لصديقه سغاناريل بأن الأمر لم يكن سوى خدعة: ومن الآن فصاعداً سيغطي جرائمه تحت قناع النفاق. يظهر طيف ويطلب منه التوبة للمرة الأخيرة، فيجدد دون جوان رفضه. لكن بعد مدة يتحرك تمثال الفارس المقتول ليستجيب لدعوته السابقة. يمسك التمثال بيده. بينما كانت العاصفة تزمجر والبروق تملأ السماء، التهمت النار دون جوان وغاص في أحشاء الأرض.

كتب موليير، دون جوان مستلهماً مسرحية الكاتب الأسباني تيرسو دومولينا الموسومة (غشاش أشبيلية والضيف الحجري، ١٦٣٠). لكن يبدو أن

المسرحي الأسباني قد اقتبس موضوع تحدي الأموات عن أساطير شمالية قديمة. ومع هذا فإن المعاصرين والمؤرخين سعوا لمعرفة ما إذا أن تيرسو دو مولينا قد كتب مسرحيته استناداً إلى نموذج حقيقي.

كشفت التحريات الأولى وجود شخص الكونت فيلا ميدينا الذي عاش في الفترة نفسها التي عاش فيها تيرسو. كان البلاط يخشاه بمقدار ماتسعى إليه النساء، هذا الأرستقراطي الذي يطلق عليه أيضاً اسم دو ن جوان تاسي كان "دونجوانياً" قبل أن تبرز الظاهرة بشكلها النهائي. كان ابناً لأحد كبار رجالات أسبانيا . يملك موهوبة في الفنون والشعر. تزوج فيلاميدينا في سن مبكرة جداً سرعان ما ملّ منها . فتعددت مغامراته الغرامية دون أن يعير الظروف الاجتماعية المحيطة بمن يسعى وراءهن، بل ولا يهتم حتى بأعمارهن. كان فظاً في مغامراته غير لطيف، لاهمّ له سوى كسب المرأة. إضافة إلى إشباع رغبته. كانت جرأته تزداد على الدوام لدرجة أنه لم يقاوم رغبة إغواء محظية الملك فيليب الرابع، وبكل جسارة استهوته الملكة فرسم خطة للوصول إلى غايته: في أحد عروض مسرح أرانخويس، قام بإشعال حريق، وأسرع لإنقاذ الملكة وحملها بين ذراعيه. لكن بعد مغامراته الجريئة كانت نهايته مأساوية. فعمل الملك، الذي تضاعفت غيرته، على اغتياله. لكن معاصريه كشفوا عن أن فيلاميدينا كان يلوط النساء وأن مغامراته لم تثمر عن أي شيء. فهل كان الغاوي ياترى فحلاً كما كان يدعي؟

التحري الثاني أفضى إلى أن أحد أبناء سلالة أشبيليّة نبيلة، هي عائلة تينوريو، (لأن بطل مسرحية تيرسو كان يدعى بالفعل دون جوان ديتونيريو) قيل إنه الدونجوان "الحقيقي" الذي قتل كوماندور (فارس) أولوا بعد أن اختطف ابنته. لكن رهباناً فرانسيسكان قاموا باغتياله رغبة منهم في معاقبته على إلحاده وإنهاء حياته الداعرة.. ولكي يغطي هؤلاء الرهبان جريمتهم زعموا أن دون جوان ديتينوريو قد جاءهم إلى معبد الموتى ليشتم تمثال الكوماندور، الذي عادت الحياة إليه فجأة فسارع إلى قتله.

الأثر الثاني، مع أنه غير واضح بسبب تأريخه، لايقل أهمية عن الأثرين الآخرين. ربما لم يكن ميغيل دو مانارا هو نموذج دون جوان تيرسو دو مولينا، لكنه أكثر إثارة للعجب. هذا الشخص الذي كان معاصراً للكاتب المسرحي، أراد أن يتشبه به دون شك قبل أن يكفر عن أخطائه. ولد ميغيل دو مانارا في أشبيلية عام ١٦٢٧ لأحد سادة المدينة الكبار، اسمه توماس مانارا ليكا كولونا الذي يعود في أصله إلى مدينة كالفي الكورسيكية. هجر توماس عائلته بعد أن انهارت ملكيتها في سن مبكرة جداً، وهاجر إلى أشبيلية ثم أبحر إلى البيرو، حيث أقام عدة سنوات وعاد، بعد أن جمع ثروة، إلى الأندلس حيث تزوج بشابة كورسيكية اسمها جيرونيما.

ميغيل هو الولد التاسع من الأطفال والثالث من الذكور. حينما بلغ الثامنة من عمره، خلع عليه والده الثري لباس فارس كالاترافا. وفي الثالثة عشرة، وبعد أن توفي أخواه الأكبر منه باكراً، أصبح ميغيل الوريث الوحيد لثروة أبيه. وكأترابه من أبناء الطبقة الأرستقراطية، تعلم استعمال الأسلحة. غير أن الشاب لم يكن متعلقاً كثيراً بالمجد العسكري وفضل عليه متع الحياة الدنيوية. أصبح مانارا سيداً في مهنة الغواية، كما سيكتب عن نفسه لاحقاً، فقد قضى شبابه في "تجرع كأس الملذات الدنيئة حتى الثمالة". كان مشاكساً ومعتزاً بنفسه وببيئته الاجتماعية، فراكم هذا الإشبيلي الطيش تلو الطيش والتحدي تلو الآخر. وباعتباره كان أحد فرسان كالاترافا، فلم يكن ينسى أن يقول بعد كل تجديف: آفيه ماريا.

أتراه أسطورة أم حقيقة؟ شارك ميغيل دو مانارا في حصار(بيرغ أوب زوم) في منطقة الفلاندر الأسبانية. لكن حين عودته إلى موطنه، أصيب بمرض خطير. وفوق سيرة الألم كتب "قائمة دون ميغيل" في أحد الأعمدة أسماء محظياته، وفي الآخر، دون أسماء الأزواج والعشاق المخدوعين. ويقال أن فيها اسم أحد الأباطرة بل وآخر لأحد البابوات!

وكنموذجه الشهير، فتن مانارا بإحدى الراهبات اسمها تيريزا. وكما فعل

هذا النموذج فقد أراد انتزاعها من ديرها نوتردام ديروزير. لكن دون ميغل يتوقف حيث ذهب دون جوان إلى الفعل. لأن الألوهية تجلت أمامه وأرسلت إليه بتحذيرات مشؤومة. ذات مساء، بينما كان يعبر شارع سيركوي في طريقه إلى موعد غرامي، تلقى ضربة عنيفة لدرجة أنه وقع أرضاً على أثرها. كان نصف واع حينما جاءه صوت كئيب: "احمل النعش، لأنه ميت!. لشدة ذعره استرجع مانارا قوته ونهض ثم لاذ بالفرار، متخلياً بهذا عن ملاقاة الجميلة التي كانت بانتظاره.. في اليوم التالي تناهى إليه أن كميناً نصب له في البيت الذي كان يقصده، حيث رسمت خطة لاغتياله! وليس هناك أدنى شك في أن العناية الإلهية هي التي تدخلت لمصلحته.

ذات مساء آخر، لاحظ مانارا في الشارع شبحاً مثيراً. فتبع هذا الظهور الرائع، وأثاره غموض تلك المجهولة وقرر أن يسبر سرها ولاحقها حتى الكاتدرائية. نسي قدسية المكان، فاقترب من المرأة وأمسك بخصرها، وبسرعة رفع خمارها ليكشف عن وجهها فرأى" محجرين عميقين تنظران إليه، وإذا به قبالة رأس ميت!

بعد فترة وجيزة استطاع هذا الفاجر أن يكسب قلب شابة عذراء. ولكي يستعجل في قطف ثمرة غزوته فقد قرر التسلل إلى غرفتها ليلاً. رمى سلماً مصنوعاً من الحرير إلى شرفتها، وشرع بالصعود معتمداً على قوة قبضتيه. كانت هناك أنوار تهتز خلف الستائر. كتم مانارا أنفاسه ودفع درفة الشباك بهدوء، ووجد نفسه أمام جثة ممدة فوق السرير تحيط بها أربع شمعات!

بقي تحذير أخير هو الأرهب. ذات ليلة، بينما كان هذا الداعر بانتظار موعد جديد، كان هناك موكب نحسٍ، يطوف حاملاً مشاعل تسبق نعشاً يحمله رجال مسنّون. دب الرعب في أوصال دون ميغيل. ترى من هو هذا الشخص الذي سيدفن في الساعات الأولى من الليل وتُخفى رحلته الأخيرة عن أنظار المسيحيين؟ وعلى الرغم منه تقريباً التحق مانارا بالموكب. فتحت أبواب كنيسة سانتياغو بلا ضجة أمام هؤلاء الإخوة. وقبل أن يدخل هذا الشاب

بدوره، أراد أن يشبع فضوله وسحب أحد الإخوة من كمّه: "ترى من هو هذا الشخص الذي يراد دفنه في الليل؟" فجاءه صوت أصحل (جنائزي) من وراء البرنس: "إنه الكونت دون ميغيل دو مانارا!" إذاً هاهو الفاسق يشهد جنازته حياً. جن جنونه من الرعب، ولحقت به أصوات الإخوة وهي تدوي: دييس إيراييه، فلاذ مانارا بالهرب. هذا التحذير الرابع المشؤوم سيكون الأخير: ومن الآن فصاعداً تغير دون ميغيل تغيراً كلياً.

في عام ١٦٤٨، كان مانارا يبلغ الواحدة وعشرين سنة من عمره، حين قرر أن يتخذ لنفسه زوجة اسمها دونا جيرونيما (على اسم والدتها) كاريو دي ميندوزا وهي تصغره بعام واحد. كان زواجاً عجيباً أشبه ما يكون من أجل التكفير عن الخطايا، إذ تم بالوكالة في غرناطة بغياب مانارا، ومع ذلك كان دون ميغيل رصيناً بالفعل. وهو في الخامسة والعشرين من عمره ورث مسؤوليات أبيه باعتباره سيداً ريفياً يدير ثروة العائلة ويحيا حياة عاقلة مع جيرونيميا. هل يعني ذلك أن حياتهما العائلية كانت سعيدة؟ الحوليات لا تذكر ذلك. لكن لاشك في أن مانارا كان يتألم لأن زواجه هذا لم يبارك بطفل. في عام ١٦٦١، توفيت جيرونيميا بشكل مفاجئ، وأصبح مانارا وحيداً شديد التأثر بموت زوجته، تلاحقه وخزات الندم من فرط مغامراته في شبابه، وراح شيئاً فشيئاً يتخلى عن حياته الرفيعة. بعد عام على موت جيرونيميا، التحق بجمعية خيرية متواضعة في أشبيلية (أخوية الإحسان المقدسة). وما إن مر عام آخر حتى تم انتخابه لمنصب (الأخ الأعلى) دون التخلي عن علمانيته. كرس الدنيوي السابق عمله كله لمساعدة الفقراء وألزم نفسه بأداء أكثر المهام إثارة للنفور. هذا الذي حضن أجمل نساء أشبيلية تراه اليوم يمسك بذراعه جثث الموبوئين ويقوم بدفنهم بيديه. إنه يعظ المسلمين les Maures، وينشيء مشفى ويبني داراً للضيافة وينظم جمع الصدقات وينفق جل ثروته من أجل أكثر الناس عوزاً.. بعد أن تصالح مع نفسه توفي في عام ١٦٧٩ في نهاية فترة احتضار طويلة ومؤلمة وهو يدمدم بذهول "إنني سعيد، وسأرى الوجه!". توفي

"القديس" ميغيل مانارا حاملاً معه جثة دون جوان. أراد أن ينقش على شاهدة قبره هذه العبارة الفريدة "هنا ترقد عظام ورفات أسوأ إنسان في العالم. صلوا لأجل روحه".

ترى هل هو التواضع الحقيقي أم أعلى درجات الكبرياء؟ كتب مانارا في وصيته: "لقد خدمت بابل والشيطان وأميره بألف دنس ودنس وغرور وزنا وكفر وفضائح واختلاسات، والخطايا والشرور التي لاتحصرها سوى حكمة الله ولا يحتملها سوى صبره اللامتناهي، ولايغفرها سوى رحمته التي لاحدود لها."

كان دون ميغيل مفرطاً في الخطيئة، فهل كان مفرطاً في توبته؟ مهما يكن من أمر، فقد طلبت السلطات الدينية في أشبيلية العمل على تقديسه وقد سمحت إحدى المحاكمات بجمع عشرات الشهادات من قبل المقربين منه. لكن الغريب أن عملية التقديس قد تأخرت في القرن الثاني عشر. ترى هل كان السبب في هذا ذلك الوجه الملعون الذي اتخذته شخصية دون جوان هو الذي أرعب الكنيسة؟ في منتصف القرن اللاحق، بدأت العملية من جديد. حتى لواختلفت الشهادات التي جمعت بعد سبعين عاماً على وفاته، ولم يعد لها القوة نفسها إبان المحاكمة الأولى، فإن الإجراءات بدت وكأنها ستصل إلى مبتغاها. لكن صراعاً بين الكرسي الرسولي وبين الملكية الأسبانية بدد الآمال كلها. وابتعدت قضية التقديس.

كان لابد من انتظار القرن العشرين إبان بابوية يوحنا بولس الثاني، ليعود الاهتمام بدون ميغيل دو مانارا بناء على إلحاح أخوية الإحسان المقدس. في عام ١٩٨٥، اعترف البابا "ببطولية فضائله". وأصبح الأشبيلي بالنسبة للكنيسة "محترماً" بشكل رسمي. ولم يبق أمام تطويبه للمرتبة التي تسبق القداسة سوى "مناقشة المعجزات" التي يقال إنه حققها أو تلك التي نسبت إليه.

لكن قداسته لم تكن موضع شك بالنسبة للمؤمنين في أشبيليا، بدليل تلك

القصة "بعد سبعة أشهر على وفاته تم إخراج جسمه لوضعه في قبر يليق به، فظهرت جثته كما كانت في اليوم الذي دفنت فيه ودون أن يصيبها أي عطب. وهل يمكن للأمر إلا أن يكون كذلك لأن دون ميغيل دومانارا سبق له وأن قهر الموت، أثناء تلك الليلة الرهيبة التي شهد فيها حياً جنازته؟ لقد أصبح دون جوان، مثله مثل تمثال الفارس، خالداً.

❁ ❁

الحقيقة المعيشة

ألكساندر ديما الابن ورواية غادة الكاميليا

امرأة لاتُقَاوَم. شفافة ومريضة. على الرغم من إصابتها بالسل الذي شكل جزءاً من جاذبيتها إضافة إلى تلك الرغوة الزهرية التي كانت تبلل شفتيها في بعض الأحيان. كما لو كان جزءاً من روحها يهرب في كل مرة من جسمها الرائع. زهرة الكاميليا التي كانت تسكن بين نهديها، تارة حمراء بلون دمها وطوراً بيضاء كمرمر جلدها. مارغريت غوتييه، البطلة، أكبر بطلة أدبية أنجزها القرن التاسع عشر، المومس التي من أجلها أحب الرجال المومسات لأن الحب يطهر كل شيء، ويغفر أي شيء.

كان ألكساندر ديما الابن في الثالثة والعشرين من عمره حينما كتب غادة الكاميليا. وهو عمر الانفعالات الكبرى. روايته، هي رواية الهيام والحب المستحيلين..

مارغريت غوتييه مومس على الموضة، تحتفل باريس كلها بها وتنتقل من ذراع لأخرى. أذرع ثرية دائماً: نسق حياة الجميلة كان باهظ الثمن. لايأمل الوصول إليها سوى الرجال الأكثر ثراء. لكن المومس وقعت بدورها. كان اسمه أرمان دوفال. شاب وجميل، لكن إمكانياته المادية متواضعة.

للمرة الأولى في حياتها تقع مارغريت أسيرة الحب. ولكي تشبع هيامها الجديد، قررت الانقطاع نهائياً عن وسطها وعن حياة البذخ التي اعتادت عليها. انزوى العاشقان في بيت قريب من باريس، وعاشا خلال ثلاثة أشهر حياة هنيئة. لكن ها هو والد الشاب يظهر، ويشرح لمارغريت بأن هذا الحب الصادق الذي تكنه لابنها سيفسد مستقبله، والأسوأ من هذا أنه يعرض زواج

أخته القريب للخطر. إذ لن يقبل أهل العريس أبداً، أن تفضح العائلة بسبب مثل هذه العلاقة.

ضحت مارغريت بحبها وهي تتمزق، فهربت دون أن يعرف أرمان أي شيء مما جرى. يئس من عودة محبوبته بعد طول انتظار، معتقداً أنها عادت إلى حياتها السابقة، أو ربما ملته وحنت إلى حياة البذخ فقررت أن تجد لنفسها راعياً من الأثرياء الجدد.

بعد فترة وجيزة، شاءت مصادفات الحياة الدنيوية أن يلتقيا في أحد الصالونات. كانت مارغريت برفقة عشيقها الكونت دوفارفيل. وبما أن أرمان كان مايزال يحبها فقد تصرف بعنف. ورمى أمامها بمبلغ كبير ربحه في أحد الألعاب، كما لو أنه يريد أن يسدد لها كل ماقدمته إليه. امتقع وجه مارغريت بعد هذه الإهانة أمام الحضور والشتائم التي انهالت عليها والجرح الذي أصاب حبها، بينما كان الشاب يتباهى بمحظيته الجديدة أولمب.

هذه الإهانة الأخيرة نالت من صحة مارغريت المتزعزعة أصلاً. كانت مارغريت على وشك الموت. فقررت خادمتها الوفية أن تخبر أرمان، لاسيما وأنها تعرف مقدار حبها له. لكن الشاب لم يتمكن من قطف نفسها الأخير حينما وصل.

مارغريت غوتييه، لم تنشأ من خيال ابن ألكساندر ديما فحسب، فقد وجدت فعلاً باسم ماري ديبليسيس. وقد أحب ألكساندر الشاب هذه المومس الجميلة والشهيرة. وسما بحبه هذا باثنين من عيون الأعمال الأدبية، الأول رواية والثاني مسرحية حققتا نجاحاً واسعاً.

ألفونسين بليسيس ـ وهو اسمها الحقيقي ـ ولدت في النورماندي في شهر كانون الثاني من عام ١٨٢٤ . كان أبوها، ماران بائعاً متجولاً. يقال إنه مشعوذ. كان يشرب ويلاحق الفتيات ويضرب زوجته الجميلة ماري باستمرار. حياة العائلة (كان لألفونسين أخت أكبر منها بعامين) اتسمت بالمشاحنات والشتائم،

وازدادت فيها مشاهد العنف. لم تتأخر ماري عن الهرب لتعمل خادمة لدى سيدة تعيش بين باريس وجنيف. أرسلت دلفين إلى عمتها حيث تعلمت مهنة الكوي، أما ألفونسين فضمتها إحدى بنات العم حيث أصبحت خادمة تكلف بكل أنواع الأعمال. لم ترَ البنتان أمهما التي ماتت بالسل بعد عامين، أبداً.

كانت الحياة قاسية. فكانت ألفونسين تذرع الغابات والمراعي ما أن استطاعت إلى ذلك سبيلا، حيث كان أولاد القرية يغازلونها، فانتهى بها الأمر إلى فقدان عذريتها. فتحولت إلى جميلة متهتكة سمراء ذات عينين سوداوين يلمعان في منتصف وجه بيضاوي نقي، ولحم أبيض. أدى بها سوء سلوكها إلى إعادتها إلى أبيها السكير. وفي الحال أدرك هذا الرجل مدى الربح الذي يمكن أن تدره عليه مخلوقة جميلة مثلها. فعمد بها إلى أحد الفاسقين الذي يعيش على دخله مقابل كمية كبيرة من النقود المعدنية. كانت الصبية تقوم بأعمال المنزل وترضي نزوات ذلك الرجل السبعيني. لكن هذه المساكنة الشهيرة شكلت الفضيحة، لأن ألفونسين لم تبلغ بعد الخامسة عشرة من عمرها الأمر الذي استدعى تدخل الدرك. عادت البنت أولاً إلى أبيها ثم أرسلت إلى باريس عند أحد أبناء عمها فوضعها في دكان للغسيل والكي.

اكتشفت الفلاحة الصغيرة المدينة الكبيرة والبلاط واللهجة العامية وتهكم عامة الناس. سرعان ماهربت من المخابيط والغسالات والمكاوي. لفتت انتباه أحد أصحاب بيوت الموضة فاشتغلت عنده كبائعة في شارع سانت هونوريه، وانتهى الأمر بالأنيقة ألفونسين إلى التخلص من رواسبها الفلاحية. عند المساء كانت تلتقي ببعض الشابات المتحررات في الحانات الشعبية وحفلات الرقص. وكما هو حالهن، كن يعاشرن أحياناً الطلاب أو البورجوازيين الثملين لساعة أو لليلة. هذه المغامرات العابرة كانت أحياناً مدفوعة الأجر. غراميات عابرة لا قيمة لها. لقد هجرت ألفونسين جسدها لكنها لم تهجر قلبها أبداً.

أدى تكرار تأخر ألفونسين عن عملها إلى طردها منه. البؤس والبغاء هما النتيجة الطبيعية الأكيدة بالنسبة لشابة جريئة (متفتحة الذهن وقحة)

ويشكلان مصدر تهديد لتلك الصبية النورماندية. لكنها ليست من تلك السلالة التي تتحول إلى خادمة للتسوق، لثقتها بأن جمالها سينقذها ذات يوم.

جاءها الحظ وهي على رصيف تنتظر إحدى الحافلات المتوجهة إلى منتزه سان كلو. وكانت نظرتها صائبة: ما إن تقدم الرجل منها، حتى اكتشفت الصبية أنها إزاء صاحب مطعم موسر معروف في منطقة باليه رويال. سرعان ما استولت على هذا البورجوازي. اقترح عليها التنزه تحت أوراق الأشجار، فتغنجت. أسكره جسمها الطري المثير، وشده محياها النقي. قص عليها ألف قصة، واشترى لها تفاحة الحب (بندورة) والعصير وفطيرة من دكان تاجرة الفصول الأربعة. وغرز لها وردة في شعرها الأسود الطويل. في المساء نفسه، وفي طريق عودتهما إلى باريس، اقترح على ألفونسين أن يسكنها في شقة مريحة يستأجرها خصيصاً لها. ستعيش في أثاثها وسيكون لهاخادمة. وبالتالي ستكون خليلة ينفق عليها. ألفونسين تحلم.. وتولد لديها انطباع بأنها كانت قادمة من مكان بعيد. اقتادها الرجل إلى الفندق الكبير، حيث سلمت له نفسها.

هذا البورجوازي الذي ما زال متيماً بحبها صدق وعده، إذ بعد ثمانية أيام على تلك النزهة في سان كلو انتقلت ألفونسين إلى شقة في شارع الأركاد تتكون من غرفة وصالون كبير. ولم تعر انتباهاً للخادمة التي وضعها "السيد" للتجسس عليها أكثر من الاهتمام بخدمتها.

ألفونسين ليست عصفورة بريئة يمكن حبسها في قفص. لابد لها من الخروج واستنشاق هواء باريس وأن تشعر من حولها بطيش أمكنة الإثارة والمتعة. لم يكن راعيها متحمسا لمثل هذه الأماكن لاسيما وأنه لم يكن يحسن الرقص، ومع هذا فقد قبل بمرافقتها. وكان الرجال الذين يدعون ألفونسين للرقص المبتذل أو البوهيمي لابد وأن يستأذنوا من بورجوازيها. وحينما كانت تدور حول نفسها فوق حلبة الرقص لم يكن يفارقها بعينيه.

الغيرة أعجز من أن تحتفظ بالنساء المتقلبات. ذات مساء، وبينما كانت ترقص في البرادو، وعلى الرغم من المراقبة التي كانت تخضع لها، التقت الشابة

بالعشيق المنتظر (بيغماليون). أنتوان ألفريد، كونت دو غيش ذي الواحد والعشرين عاماً. إنه "أسد" كما كان يسمى شباب الموضة آنذاك. ثياب "سوداء" على طريقة لندن، وبنطال عريض وقفازات من جلد الجداء الأصفر وحذاء لامع، كان أنطوان يتزه بأناقته التي تتوافق إلى حد ما مع درجة الرومانتيكية الناشئة. وسرعان ما بان التوافق بين الشابة المتحررة وبين الكونت الشاب. ما إن انقضت ثلاثة أيام على تلك الأمسية في البرادو حتى غادرت ألفونسين شارع الأركاد لتستقر في شارع مونتابور. وهكذا انمحت البورجوازية أمام الأرستقراطية.

الفونسين! ما الذي يعنيه أن تتسمى بهذا الاسم؟ غيرت الشابة اسمها إلى ماري. ماري دوبليسيس. وهو الاسم الذي ستحمله بطلة المضاجع. لكن دوغيش أراد أن تكون خليلته في مستوى أناقة صحبته وتميزها. رقص، بيانو، التماسك والكتابة، وحسن الإلقاء: تقاطر أساتذة التدريب على شارع مونتادور. كان عليه أيضاً أن يلبس ماري. وكان الكونت الشاب حسن الذوق:

"عليك أن ترتدي الأبيض! الأبيض الذي يتناسب مع وجهك الصافي. والأسود الذي يشبه شعرك وبؤبؤي عينيك".

علبة حلي لإبراز شفتيها القرمزيتين. وأحياناً، منتهى الجرأة، مجرد مسحة لونية، ليلك للشال، وكم بنفسجي. ولا شيء غير هذا أبداً.

هي ولادة ثانية. الشابة وقد بلغت السابعة عشرة من عمرها والتي تظهر في شارع مونتادور، كانت ضائعة المعالم.. تحولت الغادة إلى قطعة جمال من عصر النهضة التي خرجت إلى حد ما من إحدى لوحات رافائيل. كان دو غيشيه قادراً على اصطحابها، دون الخوف على مقامه؛ إلى تريفولي ومقهى باريس أو إلى نادي الجوكي. من الأوبرا إلى مسرح الإيطاليين، كانت ماري دوبليسيس محط أنظار الجميع. كان الناس يرصدون ارتعاشات شفتيها، ويفتتون بلدانة جسدها النحيل. كان تيوفيل غوتييه من بين الذين لفتت انتباههم وكتب حول اسباسيا الجديدة هذه [عشيقة بيركليس التي أثرت في الحياة السياسية والثقافية اليونانية] فقال: "شابة ذات تميز لذيذ، عفيفة بيضوية، عينان جميلتان مظللتان

بأهداب طويلة، حاجبان كقوسين بالغي الصفاء، أنف منحوت بدقة ووضوح.. أرستقراطية تجعل منها دوقة.. " ما أبعدها عن تلك النورماندية الوسخة التي كانت تقوم بإفراغ الدلاء وتنظيف البلاط عند ابنة عمها. ! لقد قامت بقياس هذه المسافة في شباط من عام ١٨٤١ أثناء جنازة والدها، حيث التقت أختها دلفين. إنها الصورة الدقيقة التي كان ينبغي أن تكون عليها: فلاحة جذابة مقتصدة ستتزوج قريباً من مزارع شريف.

"تعالي معي إلى باريس! لايمكنك تصور ؟؟"

لا، دلفين، لاتحلم. الأرض بالنسبة لها أفضل من كل المتع العابرة. حتى لو كانت تلك المتع باريسية. وسرعان ما عادت ماري دوبليسيس إلى باريس ونسيت أختها..

لقد "أطلقها" دو غيش. وصار من الصعب عليه أن يحتفظ بها لنفسه فقط. ونقضت ماري أكثر من مرة عقد الوفاء. جاءها أولاً هاوي خيل ثري هو فيرنان دو مونغيون. لكن المومس لم تبق طويلاً في إصطبله، وهجرت ثروتها الصغيرة. جاء بعده روجيه بوفوار لفترة قصيرة. لكن ماري كانت تعود إلى دوغيش الذي ما زالت تكن له شيئاً من الوفاء، فكان يستعيدها فوراً.

هذه الشابة التي كانت متحررة سابقاً والتي يحتفي بها الناس ويعجبون بجمالها تعيش حياة جيدة. تخرج كثيراً، وتحب استقبال الناس في بيتها وتغني للمغرمين بها على إيقاع البيانو. إضافة إلى قدرتها على خوض المناقشات المتعلقة بالأدب. لقد نجح الكونت دو غيش بتربيتها نجاحاً تاماً. وحينما يحين قدوم الموسم الجميل، كانت ماري دوبليسيس، شأنها شأن الباريسيين المتحضرين، تخرج إلى حيث الماء، أي إلى بادن عاصمة الأناقة كلها.

كيف للمرء أن يتخيل مكاناً أكثر رومانتيكية. في قلب الغابة السوداء، بلد الأساطير الذي تجري فيه الجداول الغزيرة بمياهها الصافية، وتنثال الشلالات المتقزحة (بألوان قوس قزح) ذات الأشجار المعمرة. عند المساء كان "الأسود" و"اللبوات" يتناولون العشاء في المقاهي الساحرة قبل الانصراف إلى

بيوت القمار. ذات مساء، ما إن استقرت ماري خلف السجادة الخضراء، حتى جاء شاب في الثلاثين من عمره ليجلس خلفها مباشرة. تنطوي هيئته على شيء من الملامح العسكرية. لكن ملامحه تشي بعكس ذلك، إذ كانت تعابير وجهه ناعمة بل باهتة. اسمه غدوار دوبيريغو، وريث سلالة من المصرفيين الأثرياء، كان عائداً لتوه من الجزائر حيث قاتل هناك عبد القادر ببسالة. كان الكونت دو بيريغو يشعر بالفراغ وبين يديه ثروة لايدري كيف يتصرف بها، اللهم سوى أنه كان يسيّر بعضن الجياد في حلبة السباق. لقد التقى بماري للمرة الأولى قبل ثلاثة أشهر في شانتيي. بعدها قام بزيارتها في شقتها الكائنة في شارع مونابور. استقبلته وهي مستلقية فوق أريكة، وترتدي أحد أثوابها البسيطة المحيرة. تجاسر على سؤالها" :

- هل سبق لك وأن أحببت؟"

انفجرت الدلوعة بالضحك

- " ماذا لو أجبتك بالنفي؟"

- سيكون ذلك جميلاً جداً، ماري!"

- ولم؟

- لأني أحبك!"

في تلك الليلة خرج بيريغو خائباً. لكنه لم يستسلم. في باد، مساء إثر مساء، كان يجلس خلف ماري، حينما كانت تلعب. كان لتعنته أثره على المقاومة الضعيفة التي كانت ماري تبديها. أصبح إدواردو بيريغو العشيق المتيم راعيها الجديد.

بعد عودة العاشقين إلى باريس أعلنا علاقتهما في كل الأماكن التي يستحسنان أن يراهما الآخرون فيها. وكانت ماري تدور دائماً، برفقة إدوار، على أفضل الخياطين ومحال العطور والمجوهرات الأكثر شهرة وفخامة. والأكثر غلاء أيضاً!.وكانت الحسناء المبذرة تنفق عشرين ألفاً من الفرنكات شهرياً. فهل ياترى ستكفيها ثروة ابن المصرفي زمناً طويلاً. بيريغو لايعبأ بهذا

الأمر حالياً، فهو يحبها.

إدوار، يحلم كبطل رواية غادة الكاميليا لاحقاً، يحلم بأن يخفي حبه في عزلة أكثرسرية. في ربيع عام ١٨٤٣ اكتشف العاشقان منزلاً ريفياً رائعاً في عمق أحد الدروب المظللة بأشجار الحور، في منطقة بوجيفال. وتحولت ماري إلى صاحبة مزرعة كما كان يمكن لماري أنطوانيت أن تكون في تريانون (فيرساي). وهل هناك سعادة أكبر من سماع صوت العصافير حين تبدأ تغريدها في الصباح، والخادمة تفتح الشباك! ولون تلك الورود الربيعية الصارخ، ورقة أوراق الأشجار وهي تتفتح وهي ماتزال تحمل زغبها. قضى إدوار وماري زمناً وهما متحدان في صمت الطبيعة.

- " هل تعرفين ما الذي يجلب أعظم السرور إلى نفسي؟". كان الكونت معلقاً على شفتيها، وعلى أتم الاستعداد لإرضاء رغباتها. اتخذت ماري هيئة الحالمة:

"آه، أتمنى لو أصبح كونتيسة!

- سيكون لك هذا إذا رضيت الزواج بي!"

قفزت المرأة الشابة لترتمي على عنقه وتطبع قبلتين على وجنتيه. لم يكن الشك يخالج ماري. فقد قدم الكونت كلمة شرف. كان إدوار سعيداً وهو يوقف إيجار البيت في بوجيفال مما يوفر عليه بعض المال. وعادت ماري دوبليسيس لتغرق بانفعال شديد في إعصار الحياة الباريسية. لكنها بدأت تشعر بأعراض المرض الذي أودى بحياة والدتها. ازداد شحوبها، وأحياناً كانت تنتابها نوبات عنيفة من السعال، وتحس بآلام في الرأس حينما تستيقظ صباحاً. لكن هذا لم يوقف حماستها في إرادة التمتع بملذات المدينة، واستقبال أصدقائها وعشاقها الجدد والقدامى منهم، ولا تكف بطبيعة الحال عن إرسال آلاف بطاقات الحب إلى راعيها الرسمي، ذلك الرجل الوديع بيريغو. في الأماسي كانت تنافس بجمالها أشهر مومسات ساحة بينيني، مثل لولا مونتيس وأتالا بوشين وليونيلد لوبلان. كن كلهن يغرن منها، ويسخرن من سحنتها الحزينة

ويقلن "إنه محض تكلف"، نحافتها "مجرد هيكل عظمي حي"، وعيناها "أشبه بمرايا البندقية التي لاتعكس سوى الضجر". لكن ماري دوبليسيس كانت تعرف أنها الأجمل.

أضنت الغيرة إدوار. لم تكتف ماري بخداعه وهو يعلم ذلك، بل أيضاً ازداد جموحها وتضاعفت مصاريفها. لقد اقترب من حافة الانهيار المادي وراح يستدين ليشبع رغبات عشيقته، لأنه يدرك تماماً أن انقطاعه عن الدفع سيدفع الجميلة إلى الهرب من بين يديه. لم يكن يطلب في مقابل ليراته الذهبية سوى بعض فتات الحب.

ذات صباح، ازداد سعالها على غير العادة، بعد نوبة أنهكتها لمحت ماري خيطاً من الدم على منديلها. نصحها الأطباء بالذهاب إلى بانيير للعلاج، فسافرت المومس برفقة خادمتها فقط.

استعادت ماري بعض قوتها. لكن بدت لها باريس بعيدة جداً عن منتجع العلاج هذا وجوّه القاتل. بالتالي لم لاتتحدث إلى هذا الرجل المسن ذي العارضين الأشيبين الذي يسعى إلى التقرب منها؟ قدم الرجل نفسه رسمياً: كونت ستاكلبيرغ، سفير روسيا. لقد سبق لماري أن سمعت عنه. لاسيما وأن هذا الديبلوماسي الرفيع كان بالغ الثراء. استمعت المومس إليه بسرور.

شرع ستيكلبيرغ في مغازلتها بشكل لايخلو من النفاق: كان يقول لها إن تقاطيعها تذكره بتقاطيع ابنته الغالية التي توفيت منذ فترة قليلة بالسل، ولاشك بأن الله وضع في طريقه هذه الشابة لكي يخفف آلامها. وهو ماتأثرت له ماري. فالشابة الميتة التي كانت تعاني مما تعانيه اليوم تحولت إلى أخت لها. لكن مشاعر الكونت، وإن بدت في البداية أبوية، سرعان ما تحولت إلى مشاعر غرامية. إذ كان الأب يعزي نفسه لأن العاشق يطالب بدينه. على الرغم من عمره المتقدم (كان في الثمانين من عمره) فقد دخل ستاكليبرغ في سرير ماري. وبهذا أصبح لماري راعٍ جديد أغنى من ذلك الطيب إدوار بكثير. بل وأسخى منه إذ سرعان ما صفى ديون الشابة كلها.

بعد أن عادت ماري دوبليسيس إلى باريس، أقامت في الرقم ١١ من شارع المادلين في شقة فاخرة تتكون من ست غرف فوق الطابق الأرضي. ولم تكن تتمنى أكثر من هذا. اشترى لها ستاكيلبرغ عربة تجرها جياد أصيلة، وكلباً أصيلاً ومجوهرات وطاولة زينة من الطراز الرفيع. وللقيام على خدمتها المنزلية، صار عندها حوذي وخادم مكلف بإدخال المدعوين إلى مقصورتها ووصيف صغير، ومدبرة للمنزل وأخرى خاصة بها وطاهية. وكل يوم كانت الورود تدخل الشقة: باقة من ورود الحقول، وحزمة من الجيرانيوم وسلال من من ورود الكاميليا البيضاء والحمراء تزين صدرها فوق التقويرة الفاصلة بين نهديها: وردة الكاميليا ذات العطر الأذكى من عطر الزهور والقرنفل، وصفها لها الأطباء خشية من أن يضاعف الأريج العنيف آلام رأسها.

كان المرض يستشري بها. لكن بمقدار ما كان يتقدم، بمقدار ما كانت ماري تندفع برعونة نحو فسق الأعياد والأسفار. كانت تريد نسيان كل شيء. والمرض يزيد من حدة رغباتها. كانت تستقبل، بحضور الكونت ستاكيلبيرغ، مدعوين متميزين بوقار. لكن في غياب أرستقراطيها الراعي، كانت تستقبل دون تكلف فتيات مثلها وشباناً متغندرين جمعتهم رفيقتها كليمانص برا التي تعمل في تجارة القبعات والقوادة. عندها ينسى المدعوون كل قواعد اللياقة فيشربون ويحتفون ويغنون أغاني تافهة ويتشيطنون. وتنقضي السهرة وبعدها الليل. في الصباح كانت ماري تجد نفسها في سريرها إلى جانب رجل شبه مجهول.

في إحدى أماسي أيلول من عام ١٨٤٤، بعد نزهة طويلة على الجياد في غابة سان جيرمان عاد الشاب ألكساندر ديما بصحبة صديقه أوجين ديجازيه إلى مسرح المنوعات. ابن مؤلف الفرسان الثلاثة كان في العشرين من عمره، أي نفس عمر ماري دوبليسيس. كان ألكساندر دانديا لطيفاً ومرموقاً في باريس كلها: طويل القامة، له شاربان رفيعان، وقليل من الشعر تحت شفته السفلى ولحية رفيعة، عيناه واسعتان صافيتان وشعره أشقر كثيف متموج. صفات

شغلت المجتمع الباريسي.

ما إن استقر في أحد المقاعد الأمامية للمسرح حتى لاحظ فتاة جميلة تجلس في المقصورة القريبة من الخشبة. سرعان ما فتن بها: كانت ترتدي ثوباً من الموسلين تحيط به دوائر، وشال هندي مربع ذو أطراف مطرزة بالذهب وورود الحرير، وقبعة إيطالية من القش وأسوارة وحيدة من الماس. "لكن ما شد انتباهه أكثر هو وجه تلك الجميلة المجهولة: نقاء بيضويته، ونظرة مخملية قاتمة وفم تخفي لدانته الطفولية شهوة غير مرئية.

- " من هي هذه المرأة؟ سأل صديقه ديجازيه.

- كيف لاتعرفها! إنها الآنسة دوبليسيس!

- عليك أن تعرفني بها!"

لكن ماري لم تكن بمفردها. ذلك المساء كانت بصحبة الكونت ستاكيلبيرغ، وتلك المرأة الفريدة كليمانص برا. وبما أن ديجازيه كان ابناً لممثلة مشهورة، فقد كان يعرف القوادة صديقة المومس. في فترة الاستراحة، ذهب للقاء كليمانص وحصل على معلومة قيمة: هذا المساء سيقوم ستيكيلبيرغ باصطحاب ماريا إلى منزله لكنه لن يبقى هناك فترة طويلة. وبالتالي فالطريق ستكون سالكة.

حينما وصل الصديقان برفقة كليمانص إلى بيت ماري دوبليسيس كانت بانتظارهم خلف البيانو. وكتب ألكساندر بأنها تمكنت من تغيير ملابسها وارتدت ثوباً حريرياً من طراز لويس الخامس عشر. كانت تعزف لزوارها بينما كانت خادمتها تجهز العشاء. كان ديما مفتوناً بها وكتب بكل سذاجة: "كان المرء يلاحظ أن ماري ماتزال عند حدود عذرية الرذيلة.. مختصر القول يمكن للمرء أن يرى في تلك الصبية التي حولها سبب تافه إلى مومس، وهذا الشيء نفسه جعل من تلك العذراء أعظم العاشقات وأنقاهن."

قدم العشاء وراح الشباب الأربعة يتناولونه بفرح وهم يحتسون أطيب أنواع الشمبانيا. عند نهاية العشاء أخذت ماري نوبة من السعال على حين غرة

ومنديلها فوق شفتيها، غادرت الطاولة وهربت. ألكساندر كان الوحيد الذي أخذته الدهشة. باعتبار أن الآخرين يعرفون المرض الذي تعانيه ماري.

طال الغياب. لم يعد ألكساندر قادراً على الانتظار فاندفع نحو غرفة تواليت ماري. كانت ملقاة فوق أريكة وهي ما تزال تلهث. اقترب ألكساندر منها دون ضجة. وقد روى بنفسه بقية ما حدث:

"جلست وأمسكت بإحدى يديها الملقاة فوق الأريكة.

ـ آه، هذا أنت، قالت لي مبتسمة. هل أنت مريض أيضاً؟

ـ لا، لكن هل مازلت تتألمين؟

ـ قليلاً جداً، فقد اعتدت هذا الأمر

ـ إنك تقتلين نفسك ياسيدتي، قلت لها بصوت منفعل. أود أن أكون صديقك وأهلك لأمنعك من الإساءة إلى نفسك بهذا الشكل.

ـ من أين لك هذا التفاني ؟

ـ من تعاطف لايقاوم معك

ـ هذا يعني أنك مغرم بي؟ قل هذا فوراً ببساطة.

ـ لو كان علي أن أقوله لك ذات يوم، فلن أقوله اليوم.

ـ من الأفضل لك ألا تقوله لي أبداً

ـ لماذا؟ لأنه لن ينتج عن هذا الحب سوى شيئين

ـ ماهما ؟

ـ إما ألا أقبل بحبك، وعندها ستنزعج مني. أو أن أقبلك: عندها ستكون لك امرأة عصبية، مريضة حزينة، أو تبدي الفرح الذي سيكون أكثر حزنا من الحزن، امرأة تبصق الدم وتنفق مائة ألف فرنك في العام! هذا يصلح لعجوز ثري، لكنه مضجر جداً بالنسبة لشاب مثلك..

لم أرد عليها، بل كنت أستمع. هذه الحياة الأليمة التي كانت تلك الفتاة المسكينة تهرب من حقيقتها إلى الفسق والسكر والأرق، كل هذا أثر في لدرجة أني لم أجد شيئاً أقوله لها.

ـ هيا بنا، أردفت قائلة، إننا نتحدث كالصبيان. هات يدك ولنعد إلى غرفة الطعام."

قدمت له شفتيها ثم خرجا سوية. في الممر راحت ماري تغني قبل أن تلتحق بأوجين ديجازيه وكليمانص برا، التفتت إلى ألكساندر وكاد يجن من شدة الرغبة:

ـ " لاشك بأن هذا يبدو لك غريباً أن يظهر من سلوكي أني مستعدة لقبولك فوراً على هذا النحو: هل تعرف مصدر ذلك؟"

أمسكت بيد ديما، ووضعتها فوق نهدها المختلج وأردفت:

ـ "مصدره أن حياتي أقصر من حياة الآخرين لذلك عاهدت نفسي على أن أعيش بسرعة كبيرة

ـ أتوسل إليك ألا تتحدثي إلي بهذه الطريقة.

ـ جد لنفسك العزاء، قالت ماري ضاحكة. مهما قصر الزمن الذي سأعيشه، فإني سأعيش أطول مما تحبني."

ويضيف ألكساندر تفصيلاً رائعاً هو أن ماري دخلت إلى قاعة الطعام وهي ترقص،

لاشك أن ألكساندر، وهو يكتب هذا النص بعد عدة سنوات، حاول تجميل أو "ضبط" هذا الحوار، لكن هذا لايمنع أن ديما كان بالفعل مأخوذاً بتلك المرأة غير العادية. وهو في العشرين من عمره يحب كما يحب الآخرون بشغف.

على الرغم من أن ماري كانت عاشقة، ربما للمرة الأولى في حياتها، لم تتخلَ عن استقلالها وحياتها المشتتة. ومما يبرهن على الحب الذي كانت المومس تكنه له هو أنها سلمته مفتاح شقتها في شارع مادلين، لكن كان عليه قبل الدخول أن ينتظر خروج ستيكيلبيرغ أو بيريغو لترى كم من الوقت يمكن لكبرياء ديما أن يتحمل مشاركة الآخرين في المرأة التي يحب حتى وإن كان يعرف أن هؤلاء الآخرين ما كانت لتقبلهم لولا ضخامة ثرواتهم؟ فماري مرتفعة السعر جداً ومسرفة في الإنفاق..

ديما كان مفلساً ويعيش على ما يقدمه له والده، لذا فقد بدأ كاتب المستقبل بالاقتراض لكي يكون بمستوى المتبرعين الآخرين. وأنفق خلال ستة أشهر أكثر من خمسين ألف فرنك. وهو مبلغ فلكي بالنسبة له. على الأقل فهو يتمتع بلذة لا متناهية جراء ظهوره بصحبة ماري في المسرح أو المطعم أو لدى موردي حاجيات ماري. كان الناس يرونه ويعرفون أن إحدى أجمل نساء باريس كانت تحبه، وبالتالي فقد كانت الفواتير تبدو أقل إيلاماً له.

في شتاء ١٨٤٤ - ١٨٤٥ انتكست حالة ماري الصحية، وقضت شهرين في سريرها، تحت رعاية الدكتور كوريف، وهو أحد المشعوذين الدارجين، فكان يصف لها أقراصاً تشكل مادة الزرنيخ أساس صناعتها. وعلى الرغم من الطبيب الدجال فقد كانت الحياة تعود إلى ماري مع عودة الأيام الجميلة. ألكساندر الجميل، المبادر الغريب، العاشق كان دائماً إلى جانبها. فكر العاشقان بالسفر إلى أسبانيا والبرتغال والمغرب. ماري وهو فقط. مجرد حلم. ألكساندر غير قادر على تمويل مثل هذه الرحلة، أضف إلى أنه أعجز من أن يوفر نفقات حياة مشتركة جديرة بمكانة المومس. ومع هذا فقد تشبث برأيه. قامر فخسر وازدادت ديونه. أنهك العاشق نفسه لمسايرة نمط حياة ماري. لكنه تنبه أنه لم يعد قادراً على ذلك. وصار لابد من الانفصال. في شهر تشرين الأول أرسل إليها بآخر بطاقة:

عزيزتي ماري

لا أملك من الثروة ما يجعلني أحبك كما أرغب، ولا فقيراً تحبينني كما تودين. لينس كل منا، أنت انسي اسماً قد يصبح لا معنى له بالنسبة لك، وأنا سأنسى سعادة أصبحت مستحيلة علي.

من النافل أن أقول لك مقدار الحب الذي أكنه لك. الوداع إذاً. قلبك كبير قادر على إدراك السبب الذي دفعني لكتابة هذه الرسالة، وعقلك أكبر يستطيع أن يسامحني.

❁ ❁

ألف ذكرى

"أديت" كما كانت تسميه تحببأ، أو "بحيرتي الجميلة". لقد تم الانفصال. لكن هذه العلاقة تركت آثارها العميقة في حياة ديما. ولن ينسى قط تلك التي خلد ذكراها في آخر فصل من فصول الحب.

رحل ألكساندر ولم تمنعه ماري. بقي القدماء الذين لم يتخلوا عن التردد على زقاقها: ستيكيلبيرغ استمر في الدفع. بيريغو استسلم لكنه بقي عاشقاً لها كما كان في أول علاقته بها. " هل تتذكرين وعدك لي؟" إدوار بيريغو ليس من أولئك الرجال الذين ينسون. اتفق العاشقان على الاحتفال بزواجهما سراً في لندن في كانون الثاني من عام ١٨٤٦. أصبحت ألفونسين بليسيس كونتيسة بيريغو وهي في الثانية والعشرين من عمرها.

بعد زواجها سارعت إلى نقش شارات عائلة بيريغو على ورق رسائلها. لاسيما وأن الزوجين الجديدين اتفقا على أن يمارس كل منهما حياته باستقلالية تامة. قلل إدوار بيريغو من تردده على شقة ماري في شارع مادلين وقوفاً عند رغبتها، علماً بأن ستاكيلبيرغ قد استمر في دفع إيجارها.

راحت ماري تحرق حياتها. واستمر العشاق العابرون في التردد على سرير الكونتيسة. ذات مساء، استقبلت في دار الغموض، شاباً جميلاً يرتسم على وجهه شحوب الرومانتيكيين، هو فرانتز ليست (الموسيقار الشهير). علاقته بكونتيسة أغول، التي هجرت كل شيء من أجله، شكلت فضيحة في شارع سان جيرمان. لكن الموسيقار قطع علاقته بها. فأوقفت كل شيء من أجل أن تتعرف عليه، وكان وسيطها الدكتور كوريف. وبعد يومين كان ليست مدعواً للعشاء عندها.

حينما توارى المدعوون الآخرون، سارعت المومس إلى الوقوع بين ذراعيه. عاشقان لكل منهما وجه الملاك، يبدو أن أحدهما خلق للقاء الآخر. نظرة ليست الخضراء ونظرة ماري السوداء.. الأشقر والأبنوسية. وهذان الجلدان الشفافان اللذان يمزج جموح الهيام بينهما. حينما التفت ماري على الموسيقي تولد عندها انطباع بأنها تعيش حياتها من جديد. نسيت عشاقها الكثر، والغراميات المدفوعة الأجر، وما علق بها كمومس من تلوث. مع ليست عثرت ماري على شيء من نقائها الأصلي. وكان ديما يسميهل "عذرية الرذيلة". مرة أخرى يستيقظ عندها حلم الرحلات والسكون. معاً سنذهب إلى الشرق ونزور القسطنطينية. لنقم أيضاً بزيارة الواحات والقوافل والغزلان والجمال والنساء المحجبات المتفتحة أشكالهن، والنظرة الثقيلة التي لايهرب سواها من خلال الحجاب. لكن لابد على ليست أن يرتب شؤونه، لأن فايمار بانتظاره حيث عليه إحياء بعض الحفلات الموسيقية. لكن الموعد حدد في مدينة بيست على أبواب ذلك الشرق الساحر.

سافر فرانتز ليست. ولم تره ماري بعد ذلك أبداً. إذ استولى عليها المرض من جديد. إنها تسعل وتبصق دماً. وتدهورت حالتها. أخيراً قررت ماري طرد كوريف واستشارت أطباء حقيقيين. هؤلاء الأطباء، ومن بينهم طبيب الملك الخاص، وصفوا لها الراحة التامة، وبعض النزهات القليلة حينما يكون النهار مشمساً، وحمية غذائية دسمة وبعض العقاقير. لكنهم لم يقدموا أي أمل، ذلك لأن المومس كانت مصابة بمرض لاشفاء منه. ولايمكن للعلاج سوى تأجيل المصير المحتم.

لم تكن ماري ديبليسيس راغبة في التقيد الحرفي بمثل هذه التوصيات الصارمة. بعد سفر فرانتز ليست، لم تفكر بدعوة أحد لإشباع رغباتها الليلية. على الرغم من الحمى التي كانت تنتابها على الدوام، وتواتر التقيؤ، فإن ماري لم تشأ الاعتراف بآلامها وبالمرض الذي نهد ما تبقى لديها من قوة.

لكن آخر رجل جاء لمساعدة المحتضرة. هل كان ذلك من باب الشفقة؟ أم

كان مولعاً بصدق هذه المرأة التي، وهي تحتضر، كانت أكثر جاذبية من أي وقت مضى، كما لو أن الموت القريب كان يزيد من جمالها؟ بيير دو كاستيلان، جنتلمان أنيق أصبح عشيقها الأخير. يسهر عليها، ويبعد الدائنين عنها، العقبان الدائمون الذين تشدهم رائحة الموت. عند بداية عام ١٨٤٧، وجدت ماري ما يكفي من القوة في مسرح باليه رويال وهي تلبس معطفاً من الفرو وهي تمسك بذراع دوكاستيلان. وكان ذلك خروجها الأخير، وداع جميل مأساوي ورائع لكل من أعجب بها.

اعتكفت ماري دوبليسيس في بيتها، ومنع الأطباء عنها أية زيارة. ذلك الشهم كاستيلان سافر إلى الجزائر ليخدم تحت إمرة بيغو. كتب إليها، متحدثاً عن الصحراء وأشجار النخيل والبرنس. أذن لبيريغو، زوجها، برؤيتها. "تعال حينما أكون نائمة" دخل إلى غرفتها على رؤوس أصابعه. تلك الجميلة الشفافة، التي أصابها الهزال، النائمة تبدو وكأنها تنام نوم الموت. انفجر بيريغو بالنحيب، ثم لحقه ستاكيلبيرغ. عندها استيقظت ماري:

- " افتح النافذة، أريد أن أستمع للمرة الأخير إلى ضجة الشارع"

قام السفير بتنفيذ ما طلبته. رأس ماري المنهكة، سقط فوق الوسادة.

في شهر شباط، لم تعد قادرة على الكلام. قام أحد أطبائها بعملية فصد، فعاد إليها صوتها. أرسل أحدهم لاستدعاء الكاهن بينما كانت المرأة المحتضرة تطلب من خادمتها أن تحضر لها قلنسوة وثوباً طويلاً مزركشا بالدانتيل، وهو ثوبها الجنائزي، كما لو أنها أرادت أن تبين آخر أناقتها.

وصل خوري سان روش، واستمع إلى اعترافات ماري. كانت تتكلم بصعوبة بالغة. ولدى خروج الكاهن صرح قائلاً:

- "عاشت خاطئة وماتت مسيحية"

تمت تلاوة الصلاة: بعد ساعة كانت ماري تدخل في سبات تقطعه بعض نوبات الهذيان. في ٣ شباط توفيت عن عمر يناهز الثالثة والعشرين عاماً. كتب تيوفيل غوتييه، كشاهد وليس كشاعر: "بآخر عزيمة من عزائم الشباب،

وبتراجع أمام الدمار، نهضت وأطلقت ثلاث صرخات وسقطت في خطوط الفاجعة."

في الخامس من شهر شباط، سار العشاق والأصدقاء والفضوليون في جنازتها من كنيسة المادلين حتى مقبرة مونمارتر. وألقيت فوق جثمانها كميات من ورود الكاميليا. الغائب الوحيد كان ألكساندر ديما حيث كان في رحلة إلى الجزائر.

بعد خمسة أيام على الدفن، علم ديما أثناء نزوله في ميناء مرسيليا بخبر وفاة ماري دوبليسيس التي تحدثت عنه الصحافة بشكل واسع. عاد إلى باريس على جناح السرعة بعد أن انقلب كيانه. وصل في الوقت المناسب خلال بيع أثاث المومس وحليها.

بيع كل شيء بما في ذلك أغطية سريرها الذي ماتت فوقه. وتجاوز الانبهار حدود الموت. ألكساندر، من جهته، عاد لشراء طوق من اللؤلؤ كان قد قدمه لها ذات يوم. حيث استمرت علاقتهما أحد عشر شهراً. وكانت على وشك أن تدوم مدى الحياة. بعد خمسة أشهر على موت عشيقته اعتزل ألكساندر في نزل يقع في ضاحية سان جيرمان أنلاي، في قلب تلك الغابة نفسها التي كان يعدو فيها على ظهر حصانه قبل أن يلمح ماري دوبليسيس في المسرح. بعد ثلاثة أسابيع كان ألكساندر يضع لمساته الأخيرة على روايته (غادة الكاميليا). بعد أربعة أعوام قام الكاتب بإعداد الرواية للمسرح. ماري دوبليسيس، مارغريت غوتييه، شخصتها أكبر ممثلات تلك الفترة. كانت نسخة عنها، المحظية التي أحبها هي التي كانت تظهر في كل عرض.

كتب ألكساندر ديما الابن يقول "إن هدف المسرح هو الحقيقة والحقيقة لاتكشفها إلا الملاحظة." وكان يمكن له أن يضيف بأن الحب لم يكن غريباً عن معنى الملاحظة الاستثنائي هذا.

❁ ❁

التمـــــرد

غوته: فاوست

درس الدكتور يوهان فاوست أنواع العلوم كلها في مختبره الذي كان عبارة عن غرفة قوطية ذات قبة عالية. لكن هل تمكن من معرفة أسرار الحياة كلها؟. رغبته الجامحة كانت تعذبه لكي يعرف، فأراد أن يذهب بعيداً ليصل إلى تخوم المعرفة المادية، وفهم المبادئ الخفية التي تحكم عالمنا. هجر فاوست العلم ليتحول إلى السحر سعياً للوصول إلى مالا يمكن الوصول إليه. لكنه لم يتأخر في اكتشاف بطلان مساعيه وأن الإنسان أعجز من أن يرتفع إلى مصاف الإله. بعد هزيمته فكر يوهان فاوست بالموت. لكن في اللحظة التي كان يرفع فيها كأس السم إلى شفتيه سمع أجراساً تقرع بمناسبة الاحتفال بعيد الفصح، حيث النشوة تجتاح قلوب البشر وتعيد فاوست إلى الحياة. "هاهي الأرض تملكني مرة أخرى".

كان فاوست حياً لكنه لم يشف أبداً. وحينما جاءه روح الشر متمثلاً بميفيستوفيليس وعده بالسعادة والجمال والشباب في مقابل روحه، عندها يقبل العالم ويوقع بدمه الاتفاق الذي عقده معه.

اقتاد ميفيستوفيليس فاوست إلى زوبعة من الملذات. لكنه لم ينجح فعلاً بالتأثير على تابعه إلا حينما قدم له صورة مارغريت الجميلة الرائعة. وقع فاوست في الحب. ترى هل السعادة موجودة؟للأسف، نجح الشيطان في إيقاظ الشهوة الحسية لدى فاوست وغرق الحب البريء في الخطيئة وانتصر ميفيستوفيليس. وبعد أن استسلمت مارغريت للغواية سارع فاوست إلى التخلي عنها. التعيسة، اليائسة وضعت طفلاً قامت بقتله. بعد أن أودعت

السجن قام فاوست بزيارتها وهي في حالة من تأنيب الضمير. ضغط عليها للهرب معه، لكن مارغريت التائبة رفضت اللحاق به وقضت بين ذراعيه، بينما كان صوت قادم من أعالي السماء يعلن أن ذنوب الخاطئة قد غفرت.

فاوست بروميثيوس جديد، يرمز للحرية والعقل، لذا تراه يهرب من محاولات الإفساد الدائمة التي يقوم بها ميفيستوفيليس. أصبح يبحث عن الحقيقة والجمال والمعرفة في هيلين اليونانية. بعد أن تطهر فاوست من خطاياه وأعاد الاعتبار لنفسه، انتهى به الأمر إلى النجاة من الجحيم. في اللحظة التي دق فيها ناقوس الاتفاق وتقدمت الشياطين للإمساك بفاوست، تدخل صوت إلهي. بفضل شفاعة مارغريت التحق فوست بفضاءات السماء العليا، وتم قهر الشيطان، وبالتالي فقد تمكن الله والإنسان الذي حرره من القضاء على الشر والغواية.

أنهى غوته مسرحيته (فاوست) في عام ١٧٧٣، أي قبل فترة وجيزة من موته في عام ١٨٣٢ . مثله مثل سابقيه مارلو ولوسانج ومولر، استلهم الشاعر الألماني الكبير نصه من حياة أحد السحرة، وهو شخصية حقيقية عاشت في فترة عصر النهضة وشكل مادة بنيت عليها العديد من القصص الخرافية التي غذاها الصراع الديني بين الكاثوليك واللوثريين في ألمانيا.

هل فاوست هو فاوست فعلاً؟ بعض مؤلفي عصر النهضة عزا إليه اسماً آخر هو جورج سيبيليكوس. المهم أن اسمه، أو ذلك الذي أراد التكني به، يوهان فاوست، في سجلات جامعة هايدلبيرغ أو سجلات مدرسة إينغولشتات، حيث كان يشغل في هاتين المؤسستين مديراً للدراسات ويقال إنه طرد منهما بسبب أخلاقه الفاسدة، إذ كان فاسقاً وشريراً ولواطياً وكذاباً وغير ذلك... تكررت الاتهامات ضد فاوست في كل قصص تلك الفترة التي اهتمت بسلوكه.

ربما يكون يوهانيس فاوست قد ولد في عام ١٤٨٠ في مدينة ساكس، في فايمار بالقرب من ويتينبيرغ مدينة لوثر. كان ينتمي إلى أسرة فلاحية، لكن أحد أعمامه الأعيان قام بتربيته وتكفل بتعليمه. فدرس اللاهوت في

هايديلبيرغ، وحضر فيها دروس ميلانشتون أحد أتباع لوثر. و في عام ١٥٠٩ حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة.

لكن قبل الحصول على هذا اللقب العظيم الذي كان يعني آنذاك، تمكن حامله من كل فروع المعرفة، بدءاً بالرياضيات مروراً بالموسيقا وعلم الفلك وانتهاء بالتنجيم والخيمياء. يبدو أن فاوست كان طالباً متسكعاً ودنيوياً يتردد على الحانات أكثر من تردده على مقاعد الجامعة أو الكنيسة. في تلك الأماكن المعتمة، ذات النوافذ الضيقة المجهزة بشبكة حديدية مدعمة بالرصاص، في وسط براميل البيرة وبين حشد من الفاسقين الشرهين الذين لا يكفون عن مناكفة النادلات، في هذه الأماكن إذاً كان الدكتور فاوستوس يطلق العنان لطلاقة لسانه المذهلة. ويزعم الناس أنه كان دائماً برفقة شيطانه المعتاد أي كلبه الأسود الأجعد الوبر، حيث يروي على الملأ سلسلة من الحكايات التي تبز إحداها الأخرى من حيث غرابتها. كان هذا الطالب الدائم يثير أحلام الفضوليين ببهلوانيته وشعوذته: إذ كان قادراً على تحويل الرصاص إلى ذهب، والعثور على الكنوز، ومعالجة أشد الأمراض ضراوة، أو قراءة المستقبل؟ مواهب كان يقبض ثمنها نقداً. لاشك أنه كان نصاباً، وفسقه مؤكد، أما شعوذته فدائمة. كان فاوست يذرع المدن، الواحدة بعد الأخرى، ويرتاد الحانات، متحدياً متمرداً. هذا الرفيق المرح كان فيه شيطنة. وهذا الطالب الخبيث يراكم الخدع والنبوءات ويسخر من الأخلاق والمؤسسات، ويهين رجال الدين سواء أكانو من الكاثوليك أو من اللوثريين. ويعود السبب من عدم خوفه إلى أن الناس كانوا يخشونه بسبب اعتقادهم بأنه على علاقة بالشيطان. في تلك الفترة المضطربة، التي يميل الناس فيها إلى تصديق أي شيء، كانت أسطورته تتنامى باستمرار.

بعد أن حصل يوهانيس فاوست على شهادة الدكتوراه غادر إمبراطورية روما الألمانية المقدسة إلى عاصمة بولونيا، كراكوفيا. ويبدو أنه درس فيها السحر لمدة أربع سنوات. كان هذا العقل المؤسس والشكاك، المجبول بنزعة

عصر النهضة الإنسانية يرى في السحر رمزاً لسلطة الروح على المادة. من خلال متابعته لدراسة الغيبيات حلم بالسيطرة على الطبيعة روحياً، ضمن خط فكر الخيميائيين. وهنا، حيث لا يؤمن الدكتور فاوست إلا بالعمل الروحي، كان الرأي العام يرى فيه متعاوناً مع الشيطان. فهل يستطيع المشعوذ أن يخذل جمهوره ؟

في عام ١٥١٣ قام بالتدريس في جامعة إيرفوت، لكنه طرد منها، واتهم باللواطية مرة أخرى. فهل استغل فاوست تأثيره على طلابه للقيام ببعض الحركات الفاسقة؟. بعد هذا انتقل إلى ويتنبيرغ، مركز الدعوة اللوثرية. لكنه سرعان ما طرد منها. الكاثوليك بدورهم لم يستقبلوه استقبالاً حسناً: وسرعان ما حصل يسوعيو إينغولشتات على الإذن بطرده. في عام ١٥٣٠، مر الساحر المتشرد بمدينة براغ وتنقل من بلاط الأمراء إلى بلاط الدوقيات حيث كان يقدم نصائح تتعلق بإدارة الحكومة (نصائح سياسية) على اعتبار أنه قادر على قراءة المستقبل كما يزعم. كان فلكياً وعالماً. لم يكتف فاوست بوضع معارفه العلمية بخدمة شارلكان الذي كان يخوض حرباً ضد فرانسوا الأول، بل اقترح على الإمبراطور بأن يريه زوجته المتوفاة، إيزابيل البرتغالية أو ماري البورغونية، جدته، بل حتى ألكساندر الكبير. سحر أسود أم سحر أبيض؟ إلا إذا كان الدكتور فاوست قد استخدم مصباحاً سحرياً!.

على الرغم من النجاح الذي حققه في البلاطات، فإن أعداءه الكثيرين والمتنوعين أشاعوا عنه أنه يقوم بصنع الرقيات الشريرة. في البندقية طار بمساعدة الشيطان، وفي ويتنبيرغ هدد بتطيير الصحون والملاعق من النافذة على إثر شجار مع مالانشتون؛ وفي مكان آخر ابتلع خادما في أحد الفنادق لأنه سخر منه، ولكي يستطيع ابتلاعه شرب دلواً من الماء، بعد ذلك يتم العثور على هذا الولد التعيس، مبللاً ومخبأ خلف مدفأة. في مدينة مايسن في بافاريا، ضاعف فصول أعماله السحرية. بعد أن تناول العشاء مع أصحاب مرحين، اصطحب أصحابه يحملهم الهواء لينهبوا قبو أسقف سالزبورغ. ترى

هل اعترض خازن الخمور على مشروعه؟ فقام بوضعه فوراً فوق شجرة سرو. وحينما يحاول أحد المؤمنين المسيحيين هدايته وإقناعه بالعودة إلى الطريق القويم، فإن فاوست ينتقم ويرسل شيطاناً إلى منزله.

لاشك في أن الساحر قد عقد تحالفاً مع الشيطان لكي يتمكن من إنجاز هذه الأفعال. كان مارتن لوثر من أوائل الذين نشروا الخبر، ولوثر نفسه كان على قناعة تامة بوجود الشيطان. ذات يوم، بينما كان يترجم العهد القديم إلى اللغة الألمانية، ظهرله الشيطان ليغويه ويحيده عن عمله المقدس. لكن الراهب، الذي لم يصبه الاضطراب قط، أمسك بمحبرته وقذف بها وجه الشيطان. اليوم يرى الزائر على جدار زنزانة قصر وارتبورغ بقعة حبر راسخة تشهد على الصراع الذي قام بين أول المجددين وبين الشيطان. بعد أن خرج لوثر منتصراً، منهكاً من هذا الصراع الدائم مع أمير الظلمات، لماذا لايصدق بأن أناساً أضعف منه يمكن أن يكونوا قد باعوا أرواحهم للشيطان؟

هكذا اعتقد اللوثريون، ومثلهم الكاثوليك بأن فاوست قد وقع اتفاقاً مع الشيطان. ومع مرور السنوات وإضافة تفاصيل غير معروفة، انبثقت قصص شعبية في تلك الفترة حول هذا الموضوع.. فاوست المتعطش للرذيلة قرر أن يبيع نفسه ليوسيفير. ولكي ينجز هذا العمل انتقل إلى غابة كثيفة الأشجار مظلمة، قريبة من ويتنبيرغ، تدعى غابة مانجيلاي. في المساء، وعند تقاطع أربعة دروب، قام برسم حلقة دائرية فوق الأرض بعصاه ثم حلقتين أخريين في داخل الأولى، بعدها رجا الشيطان بالظهور، لكن لوسيفر تأخر في المجيء. يبدو، في الواقع، أنه حينما يلح في طلبه يتعمد التأخير حتى تزداد الرغبة في رؤيته ومضاعفة شوق الناس وبالتالي لكي يتمكن من السيطرة عليهم.

أخيراً ظهر ذو القرنين الكبير، شبيه الأسطورة، مرعباً كريهاً يحيطه اللهب. انتفضت فرائص فاوست رعباً. لكن رغبته في توقيع الحلف كانت أقوى من خوفه. عندها اتخذ الشيطان هيئة راهب أشيب واتفق مع فاوست على اللقاء به في منزله غداة اليوم التالي.

حضر الشيطان في الموعد المحدد. بعد نقاش طويل تم عقد الاتفاق. وكتب فاوستوس العقد ووقع عليه بدمه، وتمت الإشارة فيه إلى أن جنياً اسمه ميفيستوفيليس سيرافقه طيلة أربع وعشرين سنة يقوم خلالها على خدمته، وينفذ كل مايريده ويرغب فيه. وفي المقابل، يتعهد الطرف الثاني (فاوست) بتسليمه روحه بعد انقضاء هذه المدة، ويعد بأن يكون عدواً لكل المسيحيين وألا يغويه أي منهم بالإيمان مرة أخرى.

لكن بقيت نقطة خلافية إذ رفض ميفيستوفيليس طلب فاوست بالالتزام بأن يكون صادقاً معه. وهو أمر منطقي لأن ميفيستوفيليس ملك سيده ومولاه، ملك الجحيم وأمير الكذب غير قادر على الالتزام بمثل هذه العادة السيئة (أي عادة الالتزام بالعهود). ومع هذا فقد وعد ميفيستوفيليس بأن يتصرف كشيطان طيب لمرة واحدة.

على الرغم من هذه العقبة أصبح فاوست يأمر مفيسوفيليس بما يريد. فطاب له أن يظهر على هيئة راهب فرانسيسكاني ليسخر من الجمعيات الخيرية. وما أن يكون جنيّه الخاص بتصرفه، سرعان ما يضع قوته على المحك. فيفكر أولاً بلعب دور النهم للطعام فيتخم نفسه بازدراد اللحوم ويسكر بشرب أشهر أنواع الخمور في أوروبا.

بعد أن يشبع فاوست كانت تستحوذ عليه فكرة الزواج. ولمّا فاتح ميفيستوفيليس بهذا المشروع انتابه غضب فظيع. إذ على الرغم من معرفته بأن المرأة، وإن كانت تساهم في ضياع الرجل، فهي أيضاً قادرة على إنقاذه إذا كانت مسيحية مؤمنة. لكن فاوست ركب رأسه ولم يتراجع عن فكرته وطلب من شيطانه الامتثال لأمره. عندها لجأ ميفيستوفيليس إلى أكبر مالديه من وسائل: فاستنجد بلهيب الجحيم. أصيب فاوست بهذا اللهيب بقوة وقهره الألم الناجم عن هذا اللهيب الجهنمي وتخلى علناً عن مشروعه المشؤوم في الزواج. وفي الحال وعده ميفيستوفيليس بأن يقدم إليه كل النساء اللواتي يرغب بهن، شريطة أن يجدد التزامه بعدم الزواج بأي منهن.

لاحظ فاوست بعد مدة مدهوشاً، أنه على الرغم من الولائم والاحتفالات، وجلسات الفسق التي تفقده صوابه للحظة، لم يكن يحس بطعم السعادة، بل كانت تبعث فيه القرف بعد تحقيق متعته. الأسوأ من هذا، إدراكه للضجر الذي كان ينتابه والحزن الذي يستولي عليه فلا يفارقه. كيف له أن يتوب؟ كيف يمكنه أن يصبح في حل من هذا العهد؟ لكن قبل هذا وذاك، هل لديه الشجاعة الحقيقية التي تمكنه من التخلي عن طقوس المأكل وعديد النساء اللواتي يتساقطن بين ذراعيه ما إن يعبر عن رغبته في ذلك، وعن شبابه الدائم الذي يتحدى الأعوام والعقل؟.

مرت أربعة وعشرون سنة، وجاء اليوم المصيري. فراح فاوست يشكو ويبكي. دعا رفاق الفسق للمرة الأخيرة على حفل عشاء في أحد الفنادق الذي يبعد مسافة نصف فرسخ عن ويتمبيرغ. حينما حل المساء، أغلق على نفسه الباب في إحدى الغرف. فجأة هبت ريح عاتية على المنزل. صفارات رهيبة وزمجرة مخيفة دوت في النزل (الفندق). اختبأ رفاق فاوست من شدة الرعب، ولم يقو أحد منهم على النوم. عند الفجر، تجرأ الأشجع من بينهم على الدخول إلى الغرفة التي عزل فاوست نفسه فيها. حطموا بابها لكنهم لم يجدوا الساحر فيها، إنما دم وبقايا دماغ متناثرة فوق الجدران وأرض الغرفة، رأوا عينين وبعض أسنان، لكن لم يكن هناك أي جسد. بعد ذلك بفترة تم العثور على جثة فاوست غير بعيد عن الفندق، لكن رأسه كانت محطمة وعظامه مفتتة.

فاوست المتمرد دفع ثمن لعنته موتاً رهيباً. كان لابد من نهاية "توجب العبرة" يستخدمها المسيحيون الطيبون سواء أكانوا كاثوليك أم بروتستانت للتخلص من مثل هذه الأسطورة الكريهة ومن شخصية مزعجة مثل شخصية فاوست.

الحقيقة أن فاوست، أي يوهانيس فاوست الحقيقي، توفي حوالي عام ١٥٤٠ . وهي وفاة لاتذكرها الروايات أو الحوليات. ولم يترك هذا الرجل ذو

النزعة الإنسانية أي عمل مكتوب يحمل اسمه. لم يعد فاوست سوى ظل بلا روح. الروح التي يقال أنه باعها إلى الشيطان! لكن المفارقة أن القصة الغامضة، لهذا المجهول إلى حد ما، لم تكف عن إلهام أكبر عباقرة الأدب.

❁ ❁

أبطال الرواية الحقيقيون

مشهورون مغمورون

يحق لنا التساؤل: من أين يأتي الروائي بأبطال روايته؟ بكل بساطة، إنه يستعير لحمة حبكتها، محتفظاً لنفسه،قدر ما أمكنه، بحرية السرد.

باتريك بيسنو، مؤلف هذا الكتاب، انطلق باحثاً في الوثائق التاريخية عن أولئك المغمورين الذين تقاطعوا مع مخيلة الكاتب وتحولوا إلى أبطال رواية معينة.

هذا النوع من العمل، يكتشف لناالأبطال الحقيقيين الذين نسج حول حياتهم أبطال الروايات، مثل جوليان سوريل بطل رواية "الأحمر والأسود" لساندال، وكونت مونتي كريستو، لألكساندر ديما الأب، والسيدة بوفاري، بطلة رواية فلوبير، أو نعيش وقائع تلك المحاكمة المدهشة التي أوحت إلى فرانسوا مورياك بفكرة روايته "تيريز ديكيرو" الخ. وسنعجب لتلك المفارقة العجيبة التي حولت أقدار هؤلاء كلهم إلى روايات نستمتع بقراءتها اليوم وغداً وكل يوم.

ISBN 978-9933-407-95-7

نينوى للدراسات والنشر والتوزيع